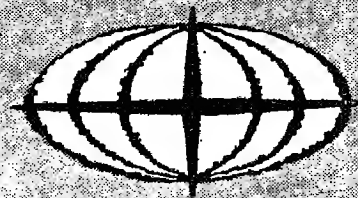


من الشرق والغرب
نافذة على الفكر العالمي المحرر



أفريقيا القديمة

مكتشف من جديد

مؤلف: إميل واقيسون

ترجمة: نبيل بدر
وسعد زغلول
مراجعة: محمد شوقي الكيال



اهداءات ٢٠٠١
محمود كدي
ج بالمستشفى الملكي المصري

من الشرق والغرب

أفريقيا القديمة

مكتف من جديد

تأليف: باسيل رافيدسون

ترجمة: نبيل بدر
و سعد زغلول
مراجعة: محمود شوقي الكيان

تقديم

هذا الكتاب يسرد تاريخ افريقية
والافريقيين ، جنوب الصحراء ، خلال ألف
وخمسمائة عام أو أكثر قبل بداية الاستعمار .

وهو يقدم اطارا لما هو معروف الآن ،
أو ما يبدو انه الاعتقاد السائد عن المظاهر
الرئيسية والملامح البارزة للحضارة والحياة
الافريقية في ذلك الوقت ، وهو بذلك يساهم
في انقاء الضوء على أصول افريقية اليوم .

ويعتمد الكتاب على الحقائق التي توصل
اليها المتخصصون خلال أعوام كثيرة ، وخلال
السنوات العشر أو العشرين الأخيرة بصفة رئيسية
وخاصة فيما يتعلق بتاريخ افريقية القديم .

مقدمة

لم تكن أوروبا عندما بدأ التوسع التجارى واكتشف الجغرافى ، تعلم عن جغرافية افريقية أكثر من الحدود الساحلية لها وامتدادها لمسافة قصيرة الى الداخل فى بعض المناطق المتفرقة . ثم تتابعت رحلات الرواد الأوائل والمكتشفين والبعثات التبشيرية حتى كان القرن التاسع عشر فتبدد الكثير من الغموض الذى أحاط بـافريقية ، وظهرت الخرائط التى تحدد بوضوح أماكن ومواقع ومعالم ثابتة ، حلت محل التخبط والاساطير التى كانت تحاك حول جغرافية افريقية .

ومنذ مائة عام تقريبا بدأت حركه كشفية أخرى تستهدف التعمق فى البحث عن التاريخ الافريقى وجذوره الممتدة عبر القرون السحيقة الموهلة فى القدم ، حتى نحدد معالم هذا التاريخ وانقشعت الظلمات التى سربلته دهورا طويلة ، واتضح حقيقة الرجل الافريقى وما شيده من حضارات فى وقت كانت فيه أوروبا تغط فى سبات عميق .

لقد افترى العالم على الافريقيين وأنكر عليهم أن يكون لهم حضارة قديمة من صنع أيديهم ، وقيل فى ذلك : انه لو كان لهم تاريخ فانه لا يستحق الرواية . والادعاء بأن الافريقيين عاشوا فى تخلف وجمود حتى جاء الأوروبيون انما يظهر صداه فيما روى من آلاف القصص عن البؤس والجهل والوحشية التى وصم بها الافريقيون ، وهو الاتجاه الذى غذاه المستعمرون تأييدا لمصالحهم ، وما عللوا به استعمارهم ، من أن هؤلاء الافريقيين (الذين لم يتطوروا بعد) يحتاجون الى من يحكمهم حتى يستطيعوا تولي أمورهم بأنفسهم .

ولكن لم يعد لهذا الوهم الباطل من أساس اليوم ، فالكشوف الجغرافية والتاريخية الحديثة ، أثبتت بما لا يدع مجالا للشك مدى التطور والنمو الاجتماعى والمدنية التى رفرت على افريقية حقبة طويلة من الزمان .

حقيقة أن هناك بعض النقاط فى تاريخ افريقية القديم ، لا يزال يكتنفها الغموض أو أنها غير مؤكدة ، ولذا فمن الخطأ وضع تعميمات شاملة بالنسبة للقارة الافريقية ، ولكن الحقيقة الثابتة أن علماء التاريخ قد وضعوا أيديهم خلال السنوات القليلة الماضية على الكثير من الحقائق الباهرة المؤكدة التى كشفت النقاب عن جانب كبير من تاريخ افريقية .

لقد عانى التاريخ الافريقى ألوانا من التحامل الصارخ أو التعاطف
الاجوف البعيد عن الروح العلميه ، وقد حاولت فى هذا الكتاب أن أكون
محايدا وموضوعيا متوخيا ابراز الحقيقة وحدها ، وقد بذلت فى ذلك
كل جهدى .

انها قصة الفشل والنجاح ، الهزائم والانتصارات ، قصة لا تختلف
فى جوهرها عن قصة الانسان فى أى مكان . وان اعادة الكشف عن
افريقية من جديد لهى بمثابة الاعتراف بوحدة شعوب افريقية وتاريخها
مع بقية شعوب العالم .

الفصل الأول

استيطان افريقية القديسة

احتمالات التاريخ الافريقي :

منذ نحو خمسين عاما ، جلس أحد البلجيكيين في مكان مكشوف بغابة من غابات الكونغو يدون ملاحظاته .

وبالنسبة لذلك الوقت والمكان كان هذا البلجيكي واسمه - اميل تورداي - يختلف عن غيره من الرجال ، وكذا عن غيره من الأوروبيين ، فلم يكن يريد مطاها أو عابجا أو عملا بالسخرة ، بل معلومات عن الماضي ، وقد أتى من بعيد بحثا عنها ، فبعد أن قطع عدة مئات من الأميال عبر نهر الكونغو ابتداء من مصبه على المحيط الاطلسي واستمر في طريقه الى قلب افريقية ، وتوغل في نهر الكاساي ثم على ضفاف نهر سانكرو حتى وصل الى مكان في قلب افريقية غير معروف للعالم الخارجي ، وهناك وجد شعب البوشنجو وجلس يستمع الى حديث زعمائهم ويدون ملاحظاتهم .

وقد كان من حظ هذا الأوروبي - وكان من أوائل الذين وقعت عليه أنظارهم - أن شيوخهم تذكروا أساطيرهم وماضيهم ، ولم يكن ذلك عسيرا عليهم لأن تذكر الماضي كان أحد واجباتهم . وحكوا قصتهم في عبارات موزونة واستطردوا فيها على مهل ، وسردوا قائمة ملوكهم الـ ١٢٠ ملكا الى أن وصلوا للملك الاله الذي وضعت معجزاته أساس أمتهم ^{حجج}

وكان هذا رائعا ، ولكن هل كان تاريخا ؟ هل كان يمكن تحديد زمن كل ملك أو ربطه - على الأقل من حيث الزمن - ببقية العالم ؟

لقد كان تورداي متحمسا واستمر يدون الملاحظات ولكنه كان يتلهف على تاريخ (وعلى حين غرة أعطوه اياه) . كما تذكر هو فيما بعد !

فبينما كان الشيوخ يتحدثون عن الأحداث العظيمة في مختلف عهود الحكم ووصلوا للزعيم الثامن والتسعين يوكاما بوما تكالا قالوا : انه لم يحدث شيء جدير بالملاحظة أثناء حكمه سوى أن الشمس في أحد الأيام اختفت عند الظهر وساد ظلام تام لفترة قصيرة .

«وما أن سمعت ذلك حتى فقدت كل سيطرة على نفسي ، وقفزت من مكاني وكنت أريد أن أفعل شيئا يائسا . وطن الشيوخ أن عقربا لدغتنى»
«ومرت شهور قبل أن أعرف تاريخ هذا الكسوف - ٣٠ من مارس سنة ١٦٨٠ حينما كان هناك كسوف كلي للشمس مر بالصَّبْط فوق بوشنجو .

ولم يكن ثمة احتمال للمخلط مع كسوف آخر ، لان هذا كان هو الوحيد الممكن رؤيته فى المنطقة فى القرنين السابع والثامن عشر .

وكان عمل تورداى كشف احتمالات تاريخ افريقى فى القرون التى سبقت الوثائق المكتوبة . وعن هذه القرون . يبحث هذا الكتاب لحد كبير ، وسترى أنه قد أمكن معرفة الكثير منذ قيام تورداى بدور الرائد من حوالى خمسين سنة .

ولكن لا بد للتمهيد لذلك من الرجوع الى الماضى البعيد - فما الذى يمكن قوله - اذا أمكننا شىء على الاطلاق - عن الأصول الأولى للجنس البشرى فى افريقية - عن الرجال الأوائل أو المخلوقات التى تشسبه الرجال فى فجر ما قبل التاريخ ؟

فقد عاش رجال كالقروود فى افريقية منذ مليون سنة . واكتشف الكثير من حفرياتهم طوال الأربعين عاما الماضية ، هل كانوا رجالا كالقروود أو قرودا كالرجال ؟ ما زال السؤال معلقا لائن « الحلقة المفقودة » بين الأسلاف التى تجمع بين القروود والرجال والمخلوق الذى مهد الطريق « للرجل العاقل » مسائل لا تزال مبهمة .

وهناك عديد من المتنازعين الأقوياء فى هذا الميدان تمثلهم حفريات أتت أساسا من جنوبى افريقية وشرقيها . وهذه الحيوانات القديمة المتعددة الأنواع سواء كانت أقرب للقروود أو للرجال فى اصطلاحات التطور بلا شك رجال من قبل التاريخ المدون من نوع ما أو كما عرفهم البروفيسور ريموند دارت :

« كانوا يتأرجحون على حافة الانسانية » .

وتؤيد الشواهد من شرقى افريقية النظرية القائلة بأن افريقية مهد أول تطور للانسان نفسه . وتضم الأشياء التى عثروا عليها فى شرقى افريقية - وخاصة فى أوغندا وكينيا من الدلائل والشواهد عن الرجل العاقل ما دفع ببعض علماء الانثروبولوجيا للقول - ولم يخالفهم أحد حتى الآن - بأن افريقية كانت مهد الحضارة ، وتوحى هذه الاكتشافات بأن الرجل العاقل « لم يتطور من أنماط غير كاملة ، ومن ثم من أنواع مندثرة من الانسان مثل رجل يناندرتال ، بل أيضا من نوعه نفسه أى من خط تطوره الذى لم يكتشف بعد .

ما التواريخ التى يمكن أن نامل تطبيقها ؟

ليست هنا جدوى من محاولة تقسيم عصر ما قبل التاريخ . . . الى سنوات لأن السنين تمتد بالآلاف والملايين حتى تتجاوز كل خيال . وكل مايمكن عمله هو تحديد بعض المعالم على الطريق الذى تتردد أصداءه من بعيد - وحتى هذا اذا اعتبرنا الصعوبات - يجعل تقصى ما قبل التاريخ عملا ملحوظا ولكن غير مؤكد .

وقد وصل علماء ما قبل التاريخ أخيرا الى اتفاق ما زال محلا للاختبار

على تعاقب محتمل لتغيرات مفاجئة في اشرقي افريقية - وكانت هذه الشواهد من القيمة لدرجة أنهم حاولوا ايجاد ترابط بين هذا التعاقب وتغيرات مفاجئة فى أجزاء أخرى من افريقية وأوربا .

واستطاعوا تمييز أربع فترات مطيرة فى شرقي افريقية عبر حوالى ٥٠٠٠ سنة، ويعتقدون أن هذه الفترات ربما تصادفت مع أربعة العصور الجليدية فى أوربا . والسبب الرئيسى فى اعتقادهم أن « الرجل العاقل عاش فى افريقية أولا هو أن الادوات الحجرية تمت استعادتها من مخازن مخبأة فى أول هذه الفترات المطيرة على حين تم العثور على هذه الادوات الحجرية بعد ذلك بكثير فى التعاقب الطويل للعصور الجليدية فى أوربا وما بينها ، وعلى هذا قد تكون الادوات التى أمكن العثور عليها فى أوغندا أقدم أدوات أمكن العثور عليها فى مكان ما .

وقد سميت هذه الفترات المطيرة - تبعا للمواقع التى اكتشفت فيها الأدوات أو الحفريات - كاجران ، كامسيان ، كانجران ، وجاميليان ولكن لم يصبح للقصة مدلول كبير لا فى فترة « جاميليان » التى بدأت من حوالى ١٢٠٠٠ أو ١٤٠٠٠ سنة مضت . وفى فترة جاميليان كان « الرجل العاقل » قد استقر فى شرقي افريقية وفى أجزاء أخرى من افريقية وكان قد دخل فى العصر الحجري القديم منذ مدة وكان فعلا بالنسبة لمقاييس العصر المطير رجلا حديثا .

ولم يعد - منذ زمن طويل يقلقه منافسوه الذين استطاع أن يعيش من بعدهم أو حتى أعداؤه الذين تعلم قتلهم أو صيدهم أو حتى ترويضهم .

وفى وقت ما خلال هذه الفترة الممطرة الاخيرة اختفى من افريقية آخر منافس للرجل ومن أشباهه - رجل نثرلاند ورجل روديسيا وآخرين لحقهم جمود التطور ، ومنذ الآن تأخذ قصة العصر الحجري للانسانية شكلا متسقا - بالرغم من الثغرات الكبيرة - فقد أرسى الأساس بأمان ورسخ النوع البشرى الملائم . وبعد ذلك بقى للانسانية أن تنمى قدراتها داخل نفسها : أن تهاجر وتتكاثر وتعمر الأرض .

خطوط الهجرة :

بلغت الزمن الجغرافى فان تزايد الرجل فى افريقية - كما فى كل مكان آخر - لم يبدأ الا بالأمس ، غير أنه بلغه العصور وآلاف السنين بدأ منذ زمن غابر حتى أن الطرق التى اتبعها وانظروف التى هيأها تعتبر من أعمال التخمين .

كيف كان هؤلاء الرجال والنساء من عنصر جاميان ؟ لقد كانوا على الأرجح لا يشبهون أى ناس آخرين يعيشون فى افريقية اليوم مع احتمال استثناء بعض البوشمن فى صحراء كلاهارى وأقزام الكونغو ، وربما كانوا الأسلاف المباشرين لهؤلاء الصيادين ذوى الجسم اللدن والقامة الصغيرة وتقاطيع الوجه الغربية بالنسبة لنا ، وربما كانوا ينتمون لنوع من الأجناس يطلق عليه الانثروبولوجيون أنهم « ساكنو الادغال » أو (Baskapaid) حتى يتجنبوا ما يوحى بالتاكيد .

ومهما يكن من أمر فقد انتشروا وتزايدوا واحتفظوا بالأرض وعشر على آثارهم في عدة مناطق من القارة . وفي وقت ما حوالى سنة ٥٠٠٠ ق.م ظهرت أنماط جديدة من البشرية في افريقية وكان الزوج أو النوع الزنجى سائدا بينهم وقد عثر على أقدم بقاياها - حتى الآن من نفس خطوط العرض نفسها في افريقية - جمجمة - من الحفريات وبعض قطع أخرى من موقع بالقرب من الخرطوم بالسودان يعود لمنتصف العصر الحجري وجمجمة أخرى وبعض العظام تحت طبقة من الطين فى (anelar) وتبعد حوالى ٢٠٠ ميل شمال شرقى تومبكتون فى غربى السودان .

وهؤلاء الناس من الزوج ، لأن التفرقة الجنسية الطفيفة لها دلالة بسيطة هنا - وتكاثر لا شك فى السنوات التى تلت سنة ٥٠٠٠ ق.م وان تحليلها لحوالى ٨٠٠ جمجمه تقريبا من عصور ما قبل الأسرات فى مصر من وادى النيل الأعلى - من حوالى ٣٠٠٠ ق.م ، يبين أن ثلثهم على الأقل كانوا من الزوج أو من سلالة الزوج الذين نعرفهم ، وهذا قد يؤيد جيدا ، الرأى الذى تؤكد دراسة اللغة بعض الشيء ، وهو أن أسلاف افريقى اليوم القدامى كانوا عنصرا هاما وربما كان سائدا فى السكان الذين رعوا الحضارة المصرية القديمة .

وقد أتى عام ١٩٥٨ بايضاح باهر لسجل كان هزيلا . فقد عاد مكتشف الصحراء الفرنسى هنرى أيبوت بمجموعة عجيبة لنسخ من رسوم وحفر على الصخور ، وكان معرضه الذى عرضها فيه ، عملا رائعا .

فقد عرض التاريخ الانسانى على نطاق واسع ، وكانت طبقة وراء الأخرى من النماذج الصحراوية تحكى التعاقب المدهش لأناس عبر آلاف من السنين لا يحصيها عد ، ما بين صور عجيبة حساسة للحيوانات الى صور أشخاص لا تقبل عنها حساسية - صور لرجال ونساء - والكلمة هنا ليست قوية كما ينبغي ، ومن صور للحرب لمناظر الرعى فى سلام ، ومن آلهة وآلهات أتوا قطعاً من مصر القديمة الى أقنعة ووجوه لم تأت من هناك قطعا ، وكان كثير من هذه الأعمال من صنع الزوج فى وقت قبل أو بعد سنة ٤٠٠٠ ق.م بقليل . وشواهد كهذه توسع وتردد صدئ أناس فى القرون الحالية وكان من المعتقد - وهذا الرأى يقيد فى فهم التعقيد الذى صاحب استيطان افريقية - أن الصحراء قد عرفت أربع فترات من السكنى خلال عصرها الحصى . وكان أولهم قوما يعملون بالصيد تبعهم أخيرا قوم يرعون الماشية ، وهؤلاء أو خلفاؤهم حصلوا على الحيل سنة ١٢٠٠ ق.م . وداخل هذا الإطار المجرى أضاف لوت ثروة من الشواهد بعثت فيها الحياة فجأة وبشكل غريب . واستنادا على التغيرات الملحوظة وأسلوب الحفر استنتج وجود ما لا يقل عن ١٦ مرحلة مختلفة من السكان بين عصر الصيادين والرعاة وهو يقول : «انها حقيقة مدهشة وثورية لأنه لم يكن أحد يتصور أن الصحراء عرفت كل هذه الشعوب المختلفة .

وهذا التلميح الى التعقيد المتزايد الذى اتصف به استيطان الصحراء القديمة - وبالطبع فى غير الصحراء القديمة - يفيد المرء حينما يواجه صعوبة متابعة خطوط الهجرة الافريقية والانماط البشرية التى تبعها حقا . وقد يمثل البوشمن - وهم نادرون جدا فى افريقية الحديثة

الصلة القريبة الوحيدة لشعوب الـ « Baskapaid » في الماضي البعيد .
والزواج لاشك شعوب افريقية قديمة أخرى - ولكن القصة لا تنتهي
عندهم فقد كان في افريقية منذ زمن بعيد نوع أنساني آخر وهو وان كان
يجمعه اليوم اساس لغوي متقارب الا أن خصائصه لا تعود في جذورها
الى اليبوسكوبويد أو الزوج ، وهؤلاء يطلق عليهم الحاميون . وهؤلاء
الحاميون هم أصلا جنس أبيض ، ويبدو أنهم ينتمون الى الشعوب
القوقازية التي خرج منها معظم الأوربيين أيضا منذ زمن بعيد جدا
حتى ان قراءة « أبيض وأسود » بالمعنى الحديث وتطبيقها على الحاميين
والزوج لا معنى لها على الإطلاق .

ويقسم علماء الانثروبولوجيا الحاميين في افريقية عادة الى
فرعين كبيرين : الحاميين انشرفيين والشماليين . وبدايتهم في افريقية
مجهولة كبداية الزوج وهم كالزوج ربما بدأوا في افريقية أو آسية
أولا ثم قدموا لافريقية بطريق الهجرة فهي مسألة غير مؤكدة . وفي
خطاب للمؤلف من الدكتور K BSbleak وهو أحد كبار المتخصصين في
تاريخ الأجناس في افريقية وهذا يعطى وزنا خاصا لعدم تيقنه من هذه
النقطة ، يقول : ان الزوج تبعوا الحاميين الى شرقي افريقية وظنى -
وهو مجرد تخمين وليس له أساس خيرا من الآراء الأخرى - أن انحاميين
ظهروا في شرقي افريقية منذ سنة ٥٠٠٠ ق . م وما بعد ذلك وأنه في
تاريخ متأخر عن ذلك كثيرا جاء غزو زنجى أدى الى أن أصبح السكان
نصف حاميين وربما حدث الشيء نفسه بالنسبة للبانتو .

ومهما يكن من أمر سبق الهجرة فان ثمة قليلا من الشك في ان
اختلاط البوشمسن أو Baskapaid والزوج والحاميين في زمن موغل في
انقدم أبو بعيد بعض الشيء - أنتج أسلاف معظم الافريقيين المحدثين
وهكذا يبدو أن البوتنتون في جنوبى افريقية نتجوا من اختلاط البوشمسن
والحاميين .

والشعوب الكثيرة والمتزايدة لمجموعة لغة البانتو تسود في النصف
الجنوبى من القارة على حين يظهر « الزوج الأصليون » غالبا في غربى
افريقية ، وأغلب المميزات هي تلك التى تتعلق باللفظة أو الخصائص
الانثروبولوجية المتوارثة ليست لها سوى دلالة بسيطة على أسبقية
الهجرة القديمة والاستقرار ولا دلالة اطلاقا على « التفوق » أو « التأخر »
وهذه النقطة تستحق التأكيد لما يتخيله البعض من تفوق الحاميين على
الزوج والبيض والحر على السود مما كان ، ومازال تقدمه غير مفهومة
كما سماها مستر Twstice Hopmes مرة في موضوع آخر .

وهذه المقدمة ليس لها أساس من الحقائق في افريقية القديمة
أو الحديثة نسبيا ، ذلك أن المفتاح الكبير للتطور والتقدم في افريقية
كما في كل مكان آخر - لا يكمن في الجنس ، ولكن الظروف المحيطة ،
وليس هناك في العالم ما يبين أو يوحي بأنه لو عاش الزوج في شمالى
افريقية بدلا من وسطها ما كانوا قد أتوا بالقدر نفسه من الخير أو
الشر كفالبيية الحاميين المصريين أو بربر وادى النيل وشاطئ البحر
المتوسط . كما كان يحدث في فترة متقدمة من التاريخ يغزو رعاة

القطعان انحاميون الاراضى التى كان اكثرها ارضا زراعية يسكنها الزنوج أو Baskapaid أو مزيج من الاثنين ويفرضون نظم مجتمع أكثر تأخرا على آخر أكثر تقدما .

ولكن أسطورة « التفوق الحامى » التى تحجب حتى الآن غالبا التقدم العظمى غير المفهومة « وهى أن الزنوج منحطون بالطبيعة لا تزال تجد من يصدقها . فمنذ وقت قليل صرح أحد الدارسين الجادين لانتروبولوجيا شرقى افريقية - لولا ما قاله - عندما وصف بقايا أناس بدائيين عثر عليها فى كينيا وسجل « انه من الصعب أن يتصور كيف أن قوما متحضرين كالحاميين عاشوا فى هذه المنطقة » .

وبشبه ذلك قولنا : ان شعبا متحضرا كالإيرلنديين يعيشون فى المستنقعات ، فلم يكن الجنس هو الذى مكن الإيرلنديين أو أى قوم أو هؤلاء الناس فى افريقية من أن يحققوا المدنية لأنفسهم بل انها ظروف البيئة المختلفة .

وثمة سبب آخر لتأكيد هذه النقطة ، فالوقت وما حققه الرجال فى افريقية - الرجال الافريقيين - نسبا لأناس مجهولين « من خارج افريقية » ولم يوضح من هم . فلم يكن الحاميون فقط هم الذين أفسحوا المجال « للتقدمة العظمى غير المفهومة » عن الانحطاط الافريقى أو الزنجى الذى طبعوا عليه وخلال الخمسين عاما الماضية أو نحو ذلك كان كلما يكتشف شئ يسترعى الاهتمام أو لا يمكن تفسيره ، يستدعى موكب من غير الشعوب الافريقية أو غير الزنجية لتفسير ذلك . فيجلب الفينيقيون لتفسير Zimbabwe فى روديسيا ويأتى المصريين الاغريق السيدة انبيضاء « فى Brandberg فى جنوب غربى افريقية ويعرض الاغريق والبرتغاليون كعلمى وملهمى أولئك الذين استخدموا البرونز والصلصال فى غربى افريقية أثناء العصر الوسيط . وحتى الحثيون كان لهم يومهم ، بيد أنه من المتفق عليه أن كل هذه الاعمال والظواهر كان لها أصل افريقى خالص . وأن مشكلات التقدم ، والتأخر - حتى لو وجدت حقا فى مكان ما وكانت أكثر من مجرد وهم داخل اطارات التفكير الاوربى البحتة - يمكن تفسيرها باتباع هذه الخطوط البسيطة فلا يمكن ارجاعها لأسباب جنسية . فالظروف المحيطة لا الجنس هى مفتاح الموقف ولهذا السبب نجد أنه حتى عندما استمد الافريقيون الكثير من الخارج فى أوقات وأماكن مختلفة فان طريقة استعارتهم للأساليب الفنية أو العقائد كانت تتعرض دائما للتعديل بحكم الظروف والجو المحيط فى مجتمعات وثقافات وحضارات أصبحت بشكل محدد بارز افريقية والنجاح والفشل يمكن ارجاعهما لنفس السبب المعقد الملىء بالمتعة وهو تفاعل الانسان والبيئة .

الحاجز الصحراوى :

بدأت الصحراء تفقد خصبها فى وقت ما فى الأربعة الاف سنة التى سبقت الميلاد . وبدأت أنهارها العظيمة التى كانت تجرى جنوبا للنيجر وشرقا للنيل - التى يمكن متابعة وديانها القاحلة فى معالم

لأثبت فيها - بدأت تجف وتختفي وبدأت بحيراتها في الاختفاء وسكانها في الهجرة إلى أماكن أخرى . وهناك كثير من الشواهد على هذا التغير الطويل المخرب . فأقدم زنوج العصر الحجري في الخرطوم وهم الذين وضعوا أساس كثير من مظاهر حضارة النيل وكانوا يصنعون الآنية حتى قبل أن تصنع في جريكو أقدم مدينة عرفت في العالم - كانوا يعيشون بجانب نهر يرتفع فيضانه بين ١٢ و ٣٠ قدما أكثر مما يحدث اليوم .

وكانوا يستخدمون رءوس رماح مدببة من العظم استبدلوها بعد ذلك برمح صيد له أكثر من ثلاث شعب وثقب في مؤخرته ، وأقرب رماح صيد مشابهة نجدها في وادي النيل في بعض الأماكن في وادي أزواك على بعد ألفي ميل غربا في الصحراء القاحلة التي نعرفها اليوم .

وحتى في الثلاثة آلاف سنة الأخيرة كان من المعروف أن قطعانا كبيرة من الماشية كانت ترعى في النوبة السفلى حيث تسود الظروف الصحراوية البالغة القسوة اليوم ، حتى أن مالك ساقية تجرها الثيران يجد صعوبة في الاحتفاظ باثنين أحياء فيها خلال السنة ، كما يقول « أركل » .

ويلاحظ كل من سافر في هذه البقاع المتربة كيف أن تيهام من الرمال والصخر يقع غربي النيل لمسافات بعيدة في الوديان الخالية التي تتخللها عدة أحواض ، وديان كانت تحمل مددا موسميا ثابتا من الماء ولكنها اليوم جافة كهواء الصحراء والأسباب المباشرة لهذا الجفاف الطويل القاسي الذي مازال مستمرا - مازالت مجهولة ، وهي ترجع بوضوح كاف لنفس النظام الكبير نفسه في الأحداث التي وقعت بخط الاستواء جنوبا ، خلال العصور - وتحكمت في التلوج المتقدمة والمتراجعة . وحددت سير الأعصار والعاصفة في عصر ما قبل التاريخ . والنقطة الهامة هي أن الصحراء أضحت حاجزا كبيرا للطريق الإنساني منذ حوالي ٥٠٠٠ أو ٦٠٠٠ سنة مضت - في الوقت الذي بدأت فيه الشعوب الأفريقية نفسه تقريبا تزايد وتحرك وبدأت الزراعة المستمرة تنمو في شمالي أفريقية .

وشمالي هذه الصحراء الواسعة الشاسعة الأطراف كان هناك اتصال عظيم لم يقطع إلا نادرا - بين المدن والحضارات النامية في شمالي أفريقية - والشرق الأوسط والبحر الأبيض . وفي جنوبي الصحراء لم يكن هناك ما يعوق الحركة والاتصال في الأرض الرئيسية للقارة . حتى أننا نجد اليوم الشعوب الزنجية في كل مكان فيها تقريبا وكان تباعد الشمال عن الجنوب يزداد يوما بعد يوم كما اتجه التطور في كل منهما اتجاها مختلفا .

وهذه الحقيقة الكبيرة تخضع لبعض التحفظات فلم ينقطع الاتصال تماما بين الشمال والجنوب ، إذ كانت طرق الاغارة والتجارة والهجرة تتجه جنوبا من فزان للنيجر أو بجوار الساحل جنوبا على البحر الأحمر وحول القرن الشرقي لأفريقية .

وقد امتدت تجارة قرطاجنة جنوبا على طول الساحل الغربي

برغم أن السرية التي التزمها الفينيقيون قد حالت دون معرفة الأجيال التالية حجمها أو مداها . وكانت الخيول والعربات مألوفة في الصحراء لعدة قرون بعد سنة ١٢٠٠ ق م وبعد ذلك كانت الجمال . غير أن الطرق عبر الصحراء كان من العسير متابعتها لطولها وخطرها ، حتى أن العرب في العصور الوسطى وهم يسافرون بين آبار معروفة كانوا يقضون أحيانا شهرين لاتمام الرحلة بل أن بعض من بدأوا لم يصلوا قط لاهدافهم .

وليس معنى ذلك - بالطبع - القول بأنه لولا جفاف الصحراء لاتبع نمو المجتمع الانساني داخل افريقية نمط البحر الابيض فهذه القارة الفسيحة المتنوعة لا بد ان نموها كان دائما وفي جميع الاحوال دون انتظام ، ودون تساو وبعض سكانها كانوا يسبقون غيرهم لأن طبيعة البلاد وغاباتها وسهولها وكذا مرتفعاتها انصحية ومستنقعاتها المملوءة بالملاiria ، ووفرة بعض أنواع النباتات والنقص الشديد في بعضها - كل ذلك لا بد أنه فرض أنماطا فريدة غير منتظمة من النمو .

يبد أن جفاف الصحراء بالرغم من هذا ليس أقل أهمية في هذا الصدد .

ففي شمال الصحراء كانت حضارات الهلال الخصيب حرة في أن تفعل وتتفاعل مع غيرها تأتي باختراع اثر اختراع وتمارس ضغطا متجددا ابدا من المنافسة بعضها مع بعض ومع جيرانها حتى انتقلوا عبر القرون من بداية بدائية لأمجاد النظام الملكي الديني في عصر البرونز .

أما في جنوب الصحراء فلم ينفذ للشعوب التي كانت تعيش في قحطها الا الصدى الخافت لهذا انقلابان في الشمال . ثم تلاشي الصدى .

وإذا سألنا لماذا ظهرت الحضارة القديمة في وادي النيل وفي الشرق الأدنى وحول الفرات لافي شمالي أوروبا أو جنوبي افريقية - فإن هذا يدعونا أولا للتأمل ففي هذه المرحلة من المعرفة لا يعدوا الأمر الا أن يكون كذلك . ويبدو أن . الزراعة في وادي النهر هي مفتاح الموقف . فقد نشأت كل الحضارات القديمة في وديان الأنهار العظيمة ، وهذه الأنهار مهما اختلفت كانت تتميز بالرى الطبيعي وتجديد التربة وفي كل عام كانت هذه الأنهار تعطي أرضا جديدة بصورة غير عادية - للزراعة . وبذلك مكنت الرجل الذي كان يكتشف امكانية زراعة الطعام بدلا من جمعه أو صيده ليغير من حياته انقائمة على التنقل والترحال وعندما فعل ذلك - عندما استقر في مكان واحد عدة سنين مرة واحدة واجهته المشكلات الفنية للزراعة المنتظمة - وعندما تمكن من حل هذه المشكلات - حيث كان الرى من النهر يمنح في كل عام أرضا جديدة حل أيضا مشكلة انتاج فائض من الطعام .

وعندما طرأت هذه الظاهرة التي لم تعرف حتى الآن . وهي فائض الطعام ظهرت أسس التجارة . ولكن التجارة كانت أساسا ، في مقابل ذلك - للاستقرار النهائي ، وكان معنى الاستقرار النهائي تقسيم العمل ونمو المدن ، وكان معنى نمو المدن الحضارة والحكومة

المركزية للحكم الاتوقراطي الالهى الذى ميز العصر البرونزى فى مصر وحضارات قديمة أخرى .

وهكذا كانت الظروف ملائمة عندما يتطلب الأمر الحساب ولو لعد البضائع التى كان الكهنة يكدسونها فى شون ومخازن القرعون ، وكانت الوسائل الأولى للحساب هى التى قادت بدورها وسائل الكتابة وقد اكتشف علماء الآثار بعد خمسين سنة من الاكتشافات الثورية كثيرا من الأمور المعقدة - ولكنها أظهرت مدى آلية النمو . وإذا كانت المراحل اندقيقة ما زالت محل سؤال فان الطبيعة العامة لهذه القضية مقبولة .

وفى جنوبى الصحراء - التى حرمت الاتصال بحضارات العالم القديم كانت الأمور تجرى بشكل مختلف . يبدو أن ظروف الاستقرار فى وديان الأنهار التى كانت جاثمة فى الشرق الأوسط والهند والصين فشلت فى قلب افريقية . وليس هذا فحسب ، بل أن الأرض كانت من السعة حتى أن الحاجة لفائض من الطعام كانت معدومة أيضا . وعندما كان السكان الأولون تعوزهم الحاجة كانوا ينتقلون ببساطة لمكان آخر وعندما نشأت بعد ذلك كثافة أكثر من السكان لا تحملها مساحة معينة بعد وسائل الزراعة وعصر المعادن حدث الشيء نفسه مرة ثانية فكانت فروع القبائل تشد رحالها من أرض القبيلة الأم الى أرض جديدة .

وكانت تنتقل فى أغلب الأحوال الى أرض بكر . وكانت تصطدم أحيانا بمهاجرين أو رحل سبقوها وعندئذ كانت تتجاشاهم حتى تنسرب أمواج الهجرة الجديدة عبر الغابات والسهول ، ولهذه الصورة أنبسيطة استثناءات واضحة غير أنه يجدر الاحتفاظ بهذه الصورة فى ذهننا لأنها تساعد على توضيح الوسائل والحوافز لاستيطان افريقية تاريخيا .

والآن نعرف كثيرا من القصص القبلية - وهى - بصفة عامة تحوى قصة الهجرة والاستقرار فى مكان جديد . وهى غالبا ما تحكى التحرك من الاتجاه الشمالى أو الشرقى ومن المرجح جدا أن يكون الميل العام للهجرة من الشمال للجنوب .

وهكذا تصبح صورة جنوبى انصحراء تمثل حركة لاستقرار ، تزداد سرعتها عبر القارة دون أن تقف سلاسل الجبال العظيمة أو الصحراوات الواسعة عقبة فى طريقها . وحتى الغابات الكثيفة التى تحيط بنهر الكونغو شهدت هذا التوغل لقبائل مجهولة فى أزمان غابرة ، وكانوا يتحركون كجحافل مع النجوم غير المرئية جنوبا وغربا ثم يعودون بعد فترة من الوقت فيتجهون شرقا وشمالا فى مدارات خفية لا نعلم من أمرها شيئا .

عمالة وأبطال :

ولم يكن هذا التعمير لقلب افريقية خلال نحو ١٥٠٠ سنة مضت بواسطة الشعوب التى نعرفها اليوم . ذلك أن هذه الشعوب طواها النسيان ولم يعد لها وجود الا فيما يروى من أساطير عن الأسلاف ،

رجال يعيشون على الاعجاب ، عيونهم براقه وشجاعتهم لا تقهر - وهؤلاء الابطال هم فين وبيوف الذين انحدر منهم سكان افريقيا الحديثون ، والذين مازالت القلوب تردد اصداً فتوحهم بكل اعجاب .
(كما قال رجل عبوز من Bunijoro فى أوغندا لجراى الرائد من Bachuezi فى العصور الوسطى :

« كانوا يجولون بلا مانع أو عقبة لاماكن لم يطاها انسان من قبل »
وكان لا يمكن النظر اليهم فى وجوههم . لأن عيونهم كانت ذات بريق يؤدى عيون من ينظر اليهم ، كما يحدث عند النظر الى الشمس »

ويبدو Sao القديم من بحيرة تشاد كما يقول ليف بيدوفى .
الأسطورة كعالمقة ذوى قوة خارقة ويحتفل بالأعمال المدهشة بأسمائهم وكانوا يسدون الأنهار بيد واحدة وكانت أصواتهم من القوة لدرجة انه كان بإمكانهم أن ينادوا من بلد لبلدة وكانت الطيور تطير فزعة اذا سئل أحدهم وكانت رحلاتهم للصيد تنأى بهم عن أماكن سكنهم - وكان هؤلاء الصيادون المحظوظون يحملون صيدهم من الفيلة وأفراس النهر على أكتافهم بسهولة - وكانت أسلحتهم أقواساً من جذوع النخيل .. وحتى الأرض كانت تتحمل ثقلهم بصعوبة !

ولسنا بحاجة الى أن نقول ان الأسطورة القبلية لا تعطينا معلومات محددة عن السكان الأولين أبداً . ولكنها بقايا على بقايا - وكل ما نستطيع أن نفعله هو أن نزيح طبقة بعد طبقة حتى تتداعى المعلومات كلها .

وبالنسبة لشعوب كثيرة - من مجموعه المتحدثين بالبانتو - يمكن أن تتم هذه الازاحة لمدى ٣٠٠ او ٤٠٠ سنة فى الماضى وهنا وهناك كما هو الحال على سبيل المثال مع البوشنجو الذين قابلهم تورداى لمدى أطول من ذلك بعض الشيء . وقد وصل كثير من الشعوب التى تعيش الآن فى وسط وجنوبى القارة - كما يبدو الى أماكن سكنهم خلال عدة مئات من السنين مضت غير أن بعضهم وصل فى الوقت نفسه مع أقاربهم الذين وجدوهم أو خلفوهم بعد ذلك بمدة طويلة .

وتدل حالة البوشنجو على طول الاستقرار . ويبدو أنهم عاشوا فى منطقة نهر ساتكارو سبعمئة أو ثمانمئة سنة وخلال هذه المدة طوروا ثقافة متميزة كانت بارزة سواء فى نظامهم الاجتماعى أو انتاجهم الفنى . ويمثل السالا أحد شعوب ايلا - تونجو فى شمال روديسيا وغربها عكس هذه الحالة . فهم يمثلون شعوباً استقرارها جديد نسبياً . ويقول جاسيان :
« يقال ان تاريخ السالا بدأ حوالى سنة ١٨٢٠ حين ظهرت زعيمه تدعى نامومت من مقاطعة شمال غربى لوساكا وأسست قرية ثم ماتت نامومب حوالى سنة ١٨٣٥ وورثت أختها مانجا الزعامة ولكن أقصاها بعد ذلك شونجو بن نامومب . وفرض ضريبة على عاج الفيلة كلها وجلود الصيد التى يصطادها رعاياه .

وربما اتضحت الدوافع التى أدت الى إعادة تشكيل القبائل وكانت أحياناً من عناصر مختلفة ، من رجال ونساء من قبائل متباينة من كثير

من تلك التواريخ النقبيلة ، ومن أبرز الأمثلة على هذا الموند الجنوبيون وجيرانهم الذين ينتمون اليهم في حوض الكونغو الأعلى .

وكما يقول ما كلوش كانت أول هجرة على نطاق واسع من مملكة لوند هجرة الشنجولي والشينا ما أشقاء لويجي وكاث لويجي الزعيمة الكبرى للوندا بين عامي ١٥٩٠ ، ١٦١٠ . ولا تباعهم بين عامي ١٥٩٠ ، ١٦٢٥ . وكان من أسباب رحيلهم بحسب التقاليد المختلفة عدم الرضا عن وصول أختهم للسلطة . فذهب شنجولي غربا وأسس أخيرا شعب بانجالا الذين يعيشون شمالي أنجولا وغربي الكونغو (البلجيكي) وذهب شنتياما جنوبا ثم غربا وأسس هو وأتباعه لوينا شعوب شوكو ولوشازي .

وكان التقدم معقدا واستمر مدة طويلة . وعن شعوب يتشوانالاند كتب الينبرجر في سنة ١٩١٢ « لما كان نابو أخو موشولي الصغير غير راغب في العيش كقشة تحجبها شجرة ، فقد ترك أخاه الأكبر وهاجر جنوبا في حوالي نهاية القرن الخامس عشر . ولهذا يضيف شايبرا الذي كتب بعد ذلك بسنوات قليلة كل الذي يمكن قوله بثقة هو أن ايتسوانا الذين يعيشون في يتشوانا لاند اليوم كانوا فعلا في النصف الشرقي من مكان سكنهم الحالي حوالي سنة ١٦٠٠ بعد الميلاد وخلال القرنين اللذين تليها ذلك واستمر انخراط عقد المجموعات الموجودة . وكانت ظاهرة دائمة الحدوث في تاريخ تسوانا أن تنفصل قبيلة يقودها أحد أفراد العائلة الملكية غير الراضين وتتحرك الى موقع جديد . وهناك كانت تقيم قبيلة منفصلة تحت زعامة قائدها وتسمى باسمه - الذي أصبحت تعرف به غالبا .

والتواريخ تقريبية غير أن ثمة شكاً قليلا في أنها صحيحة على وجه التقريب .

ومثل هذه النماذج العارضة من تاريخ الهجرة - قد تضلنا الى حد كبير لو جعلتنا نحس بأنها مجرد حركة متكررة داخل اطار اجتماعي راكد أو غير قادر على النمو . فمع اتباعهم لخطوط نموهم نفسها فإن هذه الشعوب النشيطة المتزايدة كانت ناجحة وذات قدرة على الاختراع ونجحت في مواصلة حياتها والاستقرار حيث لم يعيش انسان من قبل . وبعضهم - والبوشونجو مثل ملحوظ - بيد أنه واحد من عديد من هذه الأمثلة حققوا الاستقرار وتقدموا في الزراعة فقد قهروا الظروف المحيطة بهم وتعلموا أن يعيشوا معها في سلام ، ولا يمكن استخدام كلمة « بدائي » بالنسبة لهم - مع الانصاف الا في حدود ضيقة للغاية وبمعنى تكنولوجي .

وسيؤيد تعليق اميل (Torday) هذا الرأي . فقد كان يكتب عن الملك شامبا بولونجوجو الذي بدأ حكمه للبوشونجو حوالي سنة ١٦٠٠ ويقال : أنه ألغى جيشه العامل ومنع استخدام السكاكين في الحروب . ويقول تورداي « ملك افريقي مركزي في بداية القرن السابع عشر كانت انتصاراته الوحيدة في حقل الثقافة والرخاء الشعبي والتقدم الاجتماعي وما زال يذكره كل واحد في بلده حتى اليوم لا بد أنه كان حقا شخصا

جديرا بالاعجاب » . والحق أن تورداى كان متحمسا . ولو أن آراءه عن ماضى افريقية الوسطى تميل قليلا نحو المثالية الخيالية الا أنها بالرغم من ذلك أقرب للحقيقة من مبادئ الفوضى الوحشية التى قدمها آخرون كوصف للماضى .

ولكن هناك عدة نقاط هامة تبرز فى وجه هذا الأساس للتقدم المتداخل للهجرة والاستقرار . فإذا كان أهل القارة الافريقية المعاصرون بدءوا يتزايدون بعد ندرتهم منذ حوالى ٤٠٠٠ الى ٥٠٠٠ سنة أو اقل فان عددهم لم يزد حقا . وينتشروا عبر القارة ويحصلوا على انقوة التى لهم اليوم الاخلال الالف والالف وخمسمائة سنة الأخيرة .

وهذه الحقيقة المحتملة لحركتهم الكبرى وهجرتهم خلال عشرة قرون تقريبا قبل دخول التجارة الأوربية وتغلغلها هى التى تعطى فترة ما قبل التاريخ هذه دلالة كبيرة . وعندما يكتب التاريخ المحدد للشعوب الافريقية ، بعيدا عن تردد المتعلمين وتكهات غير المتعلمين فان عليه أن يفسر سير الاكتشاف ونمو الزراعة فى قلب افريقية بل أكثر من ذلك سير الاكتشاف ونمو استخدام المعادن وبخاصة الحديد .

ولهذا السبب . اذا عدنا الى الخطوط المتواضعة التى تحدد هذا الاطار ستعتبر هذه الاسئلة بالغة الحيوية . لان التوسع فى الزراعة واستخدام الحديد بالاضافة الى مؤثرات البيئة التى تدل عليها هذه الامور هو الذى صاحب وبحكم فى الحاجة الى الهجرة وامكانياتها بنجاح فى ارض جديدة غير معروفة ، ولم يكن هذا العمل عملا صغيرا ، فهؤلاء الناس انتشروا فى خطوط رفيعة ، وعاشوا فى هذه القارة الصعبة المتطرفة التى ينقصها الكثير من النباتات الثابتة التى يعيش عليها الانسان فى أماكن أخرى .

وهناك نقطة هامة - على سبيل المثال - وهى ان عملية الهجرة لاشك قد عاقت النمو الاجتماعى وتطور المجتمع - كما أنهم لم يتعرضوا لتلك الازمات الاجتماعية والاقتصادية التى ساعدت على سرعة التغير فى اراض أقل سعة وأكثر كثافة بالسكان ، ولأنهم كانوا فى حركة وتنقل دائمين لان الاراضى كانت واسعة وسكانها قليلين . وكان القنص وصيد الاسماك يوقليل من فلاحه الارض تمدهم بوسائل مناسبة لهم .

وطالما ظلت هذه الوسائل مناسبة لم يسعوا وراء تحسينها فكانوا ينتقلون لمكان آخر ويتبعون قطعان البقر الوحشى التى تموج بها الارض . . . يبحثون عن مراعى جديدة أو يمهدون الارض .

غير أن سجلهم بعيد كل البعد عن الجمود ، فقد كانت هذه الشعوب من الرواد الاوائل . كانوا يحرقون حيث لم يحرق انسان من قبل وكانوا يستخرجون المعادن دون أن يريهم أحد وسيلة العمل . واكتشفوا أعشابا طبيعية استخدموها فى العلاج وكانوا ماهرين فى رى الارض والاحتفاظ بالتربة على جوانب التلال المنحدرة وانشأوا نظما اجتماعية جديدة معقدة . وقد حوروا ما أمكنهم استعارته من آخرين فى الشمال يعتبرون فنيا أكثر تقدما فى نظمهم الاجتماعية وأضافوا ولأموا وجربوا واخترعوا ، حتى

استطاعوا بمرور الوقت أن يحصلوا على وسائل فنية متعددة ويتفوقوا في الفنون ، وكان لهم دينهم وموقفهم وأمزجتهم التي انفردوا بها والتي كونت زنجيتهم التي نعرفها اليوم .

والعصر المعدني الإفريقي الذي امتد في الخمسة عشر قرنا أو العشرين قرنا الأخيرة هو باختصار عصر التكوين الإفريقي الحديث . وكان له قوته الدافقة للنمو والتغير التي أنتجت ثقافتها وحضاراتها الإفريقية الخالصة . وهي الموضوع الرئيسي لهذا الكتاب .

ولكن قبل أن ننتقل لهذا الموضوع الرئيسي يجدر بنا أن نلقى نظرة على التاريخ القديم . وإلى أي مدى تدين الأعمال في العصر البسيط وماقبله للحضارات القديمة في الشمال ؟ وكيف كانت تجري خطوط التأثير ؟ وإلى أي حد كانت أهميتها ؟

الفصل الثاني

أسرار ميرو

١ - سيادة الحملود الجنوبية :

قبل أن يعبر يوليوس قيصر القناة الانجليزية بنحو أربع مائة عام « قام بعض الشباب المخامرين - كما يسميهم هيرو دوت - من أبناء الزعماء وأصدقائهم بعبور الصحراء من الشمال إلى الجنوب بعد أن غادروا سيرانيكاً حيث كانوا يعيشون . . . توغلوا مسافة طويلة نحو الجنوب والجنوب الغربي . . . وبعد عدة أيام شاهدوا الأشجار تنمو على الأرض المستوية . وأخذوا يقطعون ثمارها . وبينما كانوا يفعلون ذلك هاجمهم رجال قصار القامة . . . أقصر من نصف طول الإنسان العادي وقبضوا عليهم . . . كانوا يتحدثون بلغة غير مفهومة وبعد أن عبروا بأسراهم أرضا مملوءة بالمستنقعات وصلوا إلى بلدة سكانها من الأقزام السود . وكان النهر يموج بالتماسيح

وكانت هذه أول إشارة عن نهر النيجر. وربما كان نهر الكمودوجو الذي يجري شرقا حتى بحيرة تشاد. . وربما كانت ذلك أيضا أول إشارة بقيت لنا عما كان في يوم ما من قصص الرحلات الحية عن السفر عبر الصحراء .

كان كثير من الحضارات المتقدمة القديمة . في وادي النيل والشرق الأدنى من الأهمية بكان . . . بالنسبة للقارة الأفريقية . . . ولكن ليس من اليسير أن نحدد مدى هذا القدر من الأهمية . . . وتؤكد المعلومات الحديثة برغم عدم اكتمالها أنها أكثر أهمية مما كان يظن من قبل . . . وبينما كان هؤلاء الشعوب يسافرون حيث لم تطأ قدم أحد من مواطنيهم فانه يبدو محتملا انهم سلكوا طريقا عرف منذ زمن بعيد قبلهم . . . وكان يسلكه عادة الليبيون . . . وبرغم ان الاكتشافات الأثرية عن الصلات بين الشمال والجنوب لا تزال في بدايتها فان أساس ذلك يعود إلى التاريخ العلمي لمصر القديمة - : فالحفريات في مدينة جريكو في السنوات القليلة الماضية أثبتت أن زراعة مستقرة كانت في وادي الأردن ويعود تاريخها إلى ثمانية آلاف عام مضت . على حين يبدو أن الزراعة في وادي النيل ، حيث توافرت امكانيات الري السهلة قد بدأت متأخرة عن ذلك التاريخ ، فقد أثبتت الاختبارات الراديوكاربونية أن شعوب العصر النيوليثي قد ضربوا خيامهم إلى جانب مياه بحيرة الفيوم وزرعوا هذه المنطقة ما بين عامي ٤٥٠٠ إلى ٤٠٠٠ قبل الميلاد .

ومنذ ذلك التاريخ بدأت الزراعة تستقر وتنتشر لعدة مئات من

الأميال على طول ضفتي النيل الأدنى ، وقد أدخل هؤلاء نماذج متقدمة من الزراعة وأحسنوا استخدام آلات الحرث والثران ، ومن ثم استطاعوا أن ينتقلوا بأنفسهم من بدو قبلية إلى مجتمع زراعي مستقر هو أساس الاسر المملوكه المصريه القديمه التي حكم فراعتها أكثر من ثلاثة آلاف عام بعد ذلك ، ومع بداية الأسرة الرابعة - وربما بعد ثلاثمائة عام من هذه البداية بدأت مصر تبرز كدولة ملكية متقدمة على رأسها حكومة تسيطر على كثير من مصادر الثروة . هذه الثروة التي مكنت خوفو أحد ملوكها من أن يقيم الهرم الأكبر منذ حوالي عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد . ومن ثم بدأت الأيام الخالدة لحضارة مصر القديمة . . وهنا يبرز سؤال : إلى أى مدى وصل تأثير هذه الحضارة على طول وادي النيل جنوبا وغربا ؟

هناك حقائق تتصل بهذا التأثير جنوبا . فقد كان انتقال هذه الحضارة جنوبا أمرا طبيعيا . يؤكد أبناء النوبة حتى خلال حكم الاسر الوسيطة . . كانوا يرعون قطعانا كبيرة من الماشية في هذه المناطق في أقصى الجنوب التي لم تكن كما هي الآن شديدة الجفاف . . . ومن ثم فقد وجه الفراعنة الأقدمون أنظارهم جنوبا وتطلعوا إلى الغزو . وكان تاريخ حملاتهم إلى الجنوب يسير في خط واحد مع تاريخهم وتاريخ أسلافهم .

هذا إلى جانب صلاتهم بالشعوب الليبية غربى وادى النيل ، إلا أن هذه الصلات الأخيرة لم تكن ثابتة أو دائمة . فكل ما وصل إلينا من أخبار هذه الصلات لا يعدو أن يكون أخبار معارك حربية قامت بين الطرفين . فقد اكتشف لوت بين صخور وديان جبال تاسيل في منتصف الصحراء الكبرى شواهد على التأثير المصرى القديم فى شكل رسوم تعكس صورا لنماذج مصريه من الفن من بينها خمس صور لمراكب فى النيل فى هذا المكان الصحراوى القاحل . وكما سبق أن بينا فإن هذه الصلات بين المصريين القدماء . . وقاطنى الغرب . . كانت صلات غزو أكثر منها صلات استقرار وإقامة . وكل ما وجد من آثارها لا يخرج - كما قلنا أيضا عن تاريخ الحروب أو عن صور للحياة فى مصر القديمة سمع بها الليبيون . فليس هناك ما يؤكد أن البعثات المصرية وصلت فعلا إلى جبال تاسيل حيث تم العثور على هذه النماذج . وإن كان هذا لا ينفي احتمال وصولها إلى هناك . . غير أن هناك الكثير الذى يشهد أن هذه الحملات المصرية اتجهت جنوبا فى النيل وعلى شواطئ البحر الأحمر . فالوثائق التاريخية حافلة بالتفصيلات الواضحة المتنوعة فى هذا الصدد . فكثيرا ما وصل التجار والجنود المصريين إلى بلاد بنت وبلاد كوش واثيوبيا والصومال وما يعرف اليوم بالسودان . . بل وربما وصلوا إلى أبعد من ذلك . . إلى شواطئ بحيرة شاد وغابات الكونغو ومرتفعات أوغندا إلا أنه لا توجد آثار ثابتة لمثل هذه الصلات .

فالتأثير المصرى المباشر المؤكد لم يتوغل إذن إلى أبعد من وادى النيل الاوسط والاعلى . أما المعتقدات والافكار والمخترعات المصرية القديمة فقد انتقلت إلى أبعد من هذا عن طريق الكوشيين وشعوب شمالى أفريقية . . وإن كانت قصة هذه الحملات المصرية عبر الجنوب تدلنا على مدى ما كان عليه أفرادها من جرأة وإصرار ومهارة .

هناك مثلاً نقوش باسم « اوسركاف » مؤسس الاسرة الخامسة (٢٥٦٠ ق م) على صخور الجندل الاول عند أسوان أما « ساحور » الذى خلفه فقد بعث بسفنه الى بلاد بنت ودون ما يؤكد أول اتصال مباشر مع هذه المناطق الجنوبية البعيدة (وان كان أحد أبناء خوفو من قبل قد امتلك جارية من هذه البلاد) .

وقد عادت هذه السفن محملة بخشب المر والابنوس والمعادن من الذهب والفضة . . . وقد ذهبت حملة أخرى من الأسرة الخامسة يرأسها « بيردر » مدير خزائن فرعون . . . وكان من بين ما عادت به قزم يبدو انه من سلالة الاقزام بأفريقية الوسطى وزاد فراعنة الاسرة السادسة من توثيق هذه الصلات التجارية بالغزو المباشر حيث كان للملك بيبي الاول من السلطة والسيطرة على البلاد التى تلى الجندل الاول جنوبا . . . ما مكن نبلاءه وقادته من ضم عدد كبير من أبناء الزنوج الى جيش فرعون

وقد استطاع الملك يرنيرى أن يبسط نفوذه على هذه الاماكن الجنوبية ، حيث عين حاركوف حاكما على منطقة الجندل الأول . وقد اتجه حاركوف هذا أكثر من أربع مرات جنوبا الى بلاد « يام » فى رحلة استغرقت سبعة أو ثمانية أشهر ذهابا وإيابا وربما يكون حاركوف قد وصل فى رحلاته هذه الى مستنقعات أعالي النيل أو الى تلال دارفور وعلى أية حال لابد أنه وصل الى الأطراف الجنوبية لما يعرف الآن بمنطقة الصحراء ثم عاد محملا بالابنوس والعاج والبخور « وبكل بضاعة طيبة » وعندما عاد من رحلته الرابعة احضر معه قزما من « أرض الارواح » أو « أرض الآلهة » التى كان المصريون القدماء يظنون أنها غرب النيل والتى كان لها تأثير غامض عليهم باعتبارها الأرض التى ترتبط بذكرى أسلافهم .

وقد بدأت مع بداية المملكة الوسطى حوالى سنة ٢٠٠٠ ق م سيطرة المصريين الدائمة على الاراضى الجنوبية فيما وراء الجندل الاول . فالغزوات جنوبا بدأت مرة ثانية بعد فترة طويلة من الانحلال والتدهور الذى انتهى مع نهاية الاسرة الحادية عشرة وبداية الاسرة الثانية عشرة ، وبدأت انتميات مرة أخرى مع بلاد بنت فى عهد الملك امنمعت الثانى فى هذه الاسرة واستمرت فى عهد سيزوستريس الثانى حيث شيدت عند الشلال الثانى بالقرب من وادى حلفا قلاع مصرية مثل قلاع سمنا الثلاث . وكان من الممكن بعد ذلك أن تتوغل السيطرة المصرية القديمة أكثر نحو الجنوب لولا غزوات الهكسوس الذين قدموا من آسيا سنة ١٧٠٠ قبل الميلاد تقريبا . وان كانت مثل هذه السيطرة قد تحققت مع قيام الاسرة الثامنة عشرة التى تعتبر بحق بداية للعصر الامبراطورى لمصر القديمة حيث قاد تحتمس الأول - الفرعون الثالث فى هذه الاسرة - حملة ناجحة ناحية الجنوب حوالى سنة ١٥٢٥ قبل الميلاد فوصل الى دنقلة وتوقف كما يقول برشيد على المدخل الشمالى لاقليم دنقلة الذى يعتبر بحق الحديقة العظمى لآعلى النيل ، بمعنى أن تحتمس وصل بالفعل الى ما بعد الجندل الرابع حتى وصل كورجوس على بعد حوالى أربعمئة ميل ، مما يعرف الآن بالخرطوم ، وعلى بعد يقل عن ثلاثمئة ميل عن ميو عاصمة الكوشيين ،

وربما تكون قواته قد وصلت الى ابعد من ذلك كما يعتقد بعض المؤرخين .
ولكن هذا الاحتمال سيظل مجرد احتمال حتى تؤكد أو تنفيه نتائج
الاكتشافات الحديثة في أطلال ميرو .

وبعد موت تحتمس الأول ثار الكوشيون في دنقلة على المصريين ولكن
ثورتهم سحقت وسادت فترة من الاتصال السلمي مع مصر بعد ذلك . ثم
تأتى بعد ذلك أعظم القصص وأكثرها تفصيلا عن التوغل المصرى في
الجنوب البعيد . . مدونة على معبد الدير البحري بالاقصر حيث تروى
الملكة حتشبسوت قصة بعثتها الى بلاد بنت .

وتبدأ هذه القصة بخمس سفن تستعد للرحيل في البحر الأحمر
.. ثم تبحر في هدوء الى بلاد بنت حيث تصل بسلام ويجيئها زعيم البلاد
بنت بيريهو تتبعه زوجته السمراء السمينه وأطفاله الثلاثة وخدمه . . .
ونرى المنازل في بلاد بنت وقد بنيت على أعمدة بين الأشجار . . ونرى
خلفه زعماء البلاد الذين يلتمسون رضا ملكة مصر .

ثم نرى أيضا صورا لتفريغ حمولة هذه السفن عند عودتها مملوءة
بالأعاجيب من هذه البلاد . . . الأخشاب المعطرة . . . وأكوام من خشب
المر والصمغ والابنوس والعاج والذهب والبخور . . . والكحل والقردة
والكلاب وجلود الفهد . . وبعض سكان البلاد الأصليين وأبنائهم . .
وتكن الفراعنة مع ذلك لم يغزوا قط بلاد بنت ، ولكن سفنهم وتجارتهم
كانت تزورها بين الحين والحين .

وعندما تولى تحتمس الثالث الحكم بعد الملكة حتشبسوت في القرن
الخامس عشر قبل الميلاد سجل على الآثار أنه أتى بالبضائع من هناك
عن طريق البحر . . وربما عن طريق البر أيضا .

واستمرت سيطرة المصريين على بلاد كوش وتجارتهم مع بلاد بنت
حتى عصر رمسيس الثاني (١٢٩٢ - ١٢٢٥) قبل الميلاد على الأقل وهو
أقوى فراعنة الأسرة التاسعة عشرة . وتلا ذلك فترة من الانحلال في
مصر . وبعد ذلك بنحو خمسمائة عام تمكن الكوشيون من انهاء السيطرة
المصرية . . بل ومن غزو مصر نفسها . . . وبدأت حضارة كوش ومملكة
نباتا ؟ . . . واستمرت ألف عام تمد تأثيرها الحضارة جنوبا وغربا .

مصر . . . ليبيا . . . كوش :

هذه هي الخطوط العريضة لصلات المصريين بالقارة الأفريقية ، وهي
برغم استمرارها لفترة طويلة فإن هذا الاتصال كان في حدود خفيفة
نسبيا : فقد حدث في الفترة التي تعرضت فيها الأرض في الجنوب والغرب
للجفاف كان ان اتجه ضغط الهجرة صوب الجنوب والجنوب الغربى في
قلب القارة البعيد .

وقد حمل آخرون ثمار الحضارة القديمة في النيل والشرق الأدنى
والبحر الأبيض المتوسط ، وفي خلال حكم الأسرة ٢٢ الذى بدأ سنة ١٩٥٠
قبل الميلاد في فترة التدهور المصرى نمت ثلاث مناطق حضارية جديدة

وظهرت الى الوجود وقامت بعملية نقل الحضارة ٠٠٠ أول هذه المناطق
لانت في الجنوب في بلاد كوش التي أصبحت قوة عالمية في القرن الثامن
قبل الميلاد ٠٠ وتمتعت بقوة ذاتية عدة قرون بعد ذلك ٠٠٠ وكانت في
بعض النواحي أعظم حضارة افريقية قديمة نقية .

والثانية كانت حضارة قرطاجنة وولايات البربر الليبية التي كانت
على اتصال وثيق بقلب القارة الأفريقية .

ومنطقة الإشعاع الحضاري الثالث كانت في الشريط الجنوبي لبلاد
العرب (بلاد البخور) وهي المعروفة اليوم باليمن وحضرموت .

وعندما سافرت ملكة سبأ شمالا تتبعها قوافل طويلة تحمل الذهب
والأحجار الكريمة والتوابل ٠٠ وأتت الى سليمان ٠٠ كانت تسافر في
الوقت نفسه جيوش سبأ لتستقر في مرتفعات آتيوبيا ٠٠ وكانت كل
هذه الحضارات تؤثر في معتقدات وأفكار أبناء الاراضى التي تليها الى
الجنوب ٠٠ فمنذ ثلاثة آلاف سنة بالنسبة لمصر وألف سنة بالنسبة
لقرطاجنة وكوش وجنوبى بلاد العرب كانت القوة الدافعة لهذه الحضارات
تتجه الى الجنوب والجنوب الغربى وتحدث التطور والتغيير الحاسم في
قلب القارة الافريقية مثل : اكتشاف وتطوير الزراعة واستخدام المعادن
وبث الأفكار والمعتقدات الخاصة بنظم الحكم والتي لا يمكن فصلها عن
تأثيرهم وتأثير الاحتكاك بهم .

ويرى بعض الثقاة أن صناعة الحديد وصلت الى الجنوب عن طريق
شعوب ليبيا التي نقلتها عن قرطاجنة وسراجل البحر الأبيض المتوسط
٠٠ ويرى آخرون أن هذه الصناعات وصلت الى الجنوب عن طريق كوش
٠٠ وربما يكون الرأيان صحيحين . وإن كان من المحتمل أيضاً أن
يكون أبناء الجنوب قد توصلوا الى اكتشاف هذه الصناعة بأنفسهم .

وهكذا فإن عهد حضارة ومدنية عالم اليوم كانت في وديان الانهار
في مصر والعراق وكانت أصولها في مصر على الأقل افريقيه كما هي
آسيوية .

وبعد حوالى ٢٠٠٠ سنة نقلت هذه الحضارة الموهلة في القدم أفكارها
وفنها الى بلاد وشعوب أخرى كثيرة ٠٠ وفي الوقت نفسه ٠٠ وخلال
عصر البرونز الطويل كان الايونيون والحيثيون ينقلون خلاله ما تعلموه
الى جنوب أوروبا ٠٠ على حين كان الفينيقيون ينقلون بعض حضاراتهم
لشمالى أفريقيا ، على حين كانت مصر تنقل تأثيرات حضارتها الى كوش
ومن ثم الى أماكن أخرى من القارة الافريقية .

والسؤال الآن هو ٠٠٠ ماذا يمكن أن نقوله بصدد هذا التوغل في
قلب القارة الأفريقية ؟

ميرو : -

تعتبر أطلال مدينة ميرو القديمة من بين أعظم الآثار القديمة في
العالم وتاريخ هذه الاطلال يمثل جزءاً هاماً من تاريخ الانسان . وهذه

غزت القوات الكوشية فيلة ومعبد الفينيقيين على الحدود الجنوبية التي أنشأها الامبراطور أغسطس وتغلبوا على ثلاث مجموعات من القوات الرومانية المعينة للدفاع عن هذه المنطقة . وقد جمع « بترونباس » حاكم مصر الروماني في هذه الأيام عشرة آلاف من المشاة وثمانمائة من الفرسان لاسترجاع هذه المواقع . وتتبعهم جنوبا لعاصمتهم نباتا (بالقرب من دنقلة) واستولى على المدينة وحطمها . وبالرغم من أنه لم يتمكن من القاء القبض على حاكم كوش إلا أنه نجح في اطلاق سراح الاسرى الرومان الذين وقعوا في قبضته وفي استعادة تماثيل الامبراطور أغسطس التي حملها الكوشيون معهم .

والواقع ان كوش كحقل للاكتشافات الأثرية لم تنل بعد حظها . . فقد حجبته اكتشافات مصر التي اعتبرت كنزا للمعلومات عن الماضي البعيد . . كما أنها أعطتنا معروضات عديدة ملأت المتاحف ولا يمكن أن نلوم ان الذين تولوا الاكتشافات في مصر ، فقد كان ذلك من حقهم .

الا أن ريسز وجريفيه مارسا عمليات التنقيب في المقابر الملكية في نباتا وميرو وعملا بأمانة في هذا الحقل . بيد أن نقص الامكانيات المادية لم يمكن الباحثين من متابعة التنقيب الا على السطح فقط . . باستثناء المقابر الملكية . . والحقيقة الواضحة بغض النظر عن قيام وسقوط مملكة كوش - هي أن حضارتها كانت على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لتطور السودان . وبالنسبة لنشر الأفكار الحضارية والأساليب الفنية في كثير من أنحاء القارة الأفريقية غربا وجنوبا . وسوف تتيح السنوات القادمة فهما أكبر لهذه الحقيقة . أما عن الخطوط التاريخية المجردة فهي كافية في هذا الصدد . . فقد ظهرت كوش نتيجة لانحلال الامبراطورية المصرية سنة ٨٠٠ ق.م أو ربما بعد ذلك بقليل . ويبدو ان الضغط المتصل على فراعنة الأسرة الثانية والعشرين أتاح للكوشيين فرصة للاستقلال العملي ان لم يكن للاستقلال التام المعترف به .

وقد نقل الكوشيون الى عاصمتهم الكثير عن المصريين القدماء فمند قدم تحتمس الأول الى نباتا في ١٥٢٥ قبل الميلاد أصبحت نباتا مركزا هاما لعبادة الاله آمون اله الشمس الذي يرمز له بالكبش . ويقول بعض الثقاق ان الاسرة الحاكمة في كوش كان يؤيدها الكهنة المصريون المنشقون ثم قام كاشتا أو ملوك كوش العظام بغزو مصر نفسها واتم ابنه « بفنح » هذا الغزو حوالي سنة ٧٢٥ قبل الميلاد وامتد حكمه من البحر الابيض المتوسط الى حدود اثيوبيا الحديثة وأوغندة أيضا . وكون هؤلاء الملوك في مصر الأسرة الخامسة والعشرين « الاثيوبية » وجعلوا من كوش قوة دولية .

وفي سنة ٦٦٦ قبل الميلاد غزا الأشوريون الدلتا بفضل قوة أسلحتهم الحديدية الحديثة (لأن الأسلحة الكوشية مثلها مثل أسلحة المصريين حتى ذلك الحين كانت من البرونز والحجارة) ، وتراجع الكوشيون جنوبا ولكنهم احتفظوا باستقلالهم وفي حوالي سنة ٥٣٠ قبل الميلاد نقلوا عاصمتهم من نباتا الى ميرو في الجنوب ولا يمكن على وجه التحديد معرفة السبب في هذا الانتقال اذ ربما يكون لأسباب تتعلق بالمناخ أو الاقتصاد .

أفريقية ما مثلته حضارات البحر الابيض المتوسط بالنسبة للمناطق الشمالية من أوربة بعد قرون قليلة لاحقة .

يبقى بعد هذا كله أن نقول : أن ميرو وحضارتها تبقيان شيئا غامضا خلف كل هذه التغيرات التي حدثت في المنطقة . ووجه هذا الغموض ليس في حقيقة هذه الحضارة . ولكنه طبيعتها وتأثيرها على الحياة وصلاتها بالعالم الخارجى وبرايزها لمقومات لم تكن أفريقية من قبل ، وامتزاج هذه المقومات والافكار بمثيلاتها التي كانت موجودة بالفعل فى افريقية .

وأخيرا دلالتها العظيمة بالنسبة للمناطق الاستوائية والتي تليها جنوبا وغربا .

ومن المدهش أننا لا نستطيع أن نقول شيئا حتى الآن فى هذا الصدد ولا نستطيع أن نقول شيئا عن الطبيعة الاجتماعية لهذه الممالك المقدسة التي قامت فى كوش . كما أننا لا نستطيع أيضا أن ندرك الى أى مدى كان ترحيب أبناء ميرو بمقدم عصر الحديد وصناعاته وبالتجارة مع نصف العالم المعروف ان ذاك . وإلى أى مدى كانت معلوماتهم عن الصين التي قلدوا مصنوعات البرونزية وابتاعوا بعض انتاجها الفنى ، أو معلوماتهم عن الهند التي لبسوا من أقطانها وعن الجزيرة العربية التي تبادلوا معها التجارة . ليس لدينا من كل هذا سوى معلومات ضئيلة وغير مؤكدة . وربما استطعنا أن نعرف المزيد فى هذا الصدد بعد الاكتشافات التي يمكن تحقيقها بعد اهتمام حكومة السودان بالتنقيب عن آثار ميرو ودولة كوش .

وخلاصة القول عن دولة كوش انها تعتبر بداية لتاريخ افريقية الحديث .

الفصل الثالث

(ممالك السودان القديم)

١ - غرب افريقيا القديم - اكتشافات في نوك :

في القرن الرابع بعد الميلاد سقطت ميرو في قبضة اكسوم
« لاثيوبية واختفت من المسرح . وفي خلال مائة سنة من إختفائها تبدأ
السجلات المكتوبة لغرب افريقيا . هذه السجلات التي يمكن فهمها
وقراءتها لانها مكتوبة بلغة عربية . . . صحيحة بعكس النقوش النهر وغليفية
في « ميرو » . . . فقد وصل المسلمون في سنة ٦٨١ ميلادية الى شواطئ
المحيط الأطلسي . . . وقبل ذلك بخمسة عشر عاما كانوا قد دفعوا ببعثاتهم
الاولى جنوبا عبر الصحراء . . . وخلال مائة سنة تالية . . . كانوا يبعثون
برجالهم لارتياح السودان « بلد السود » والتي كانوا يعنون بها
كل الاراضي التي بعد الصحراء مباشرة . وان كنا في هذا الفصل
والفصل الذي يليه نعني بكلمه « السودان » . . . السودان الغربى . . .
أى اراضي السافانا التي تقع بين الاطلنطي وحوض السودان النيل .

ولكن وجود العرب في الجنوب من الصحراء لم يكن يحدث الا عرضا
أو لأغراض تجارية ، فقد كانوا أحيانا يغزون السودان الغربى . . . ولكنهم
لم يكونوا يتبعون جيوشهم باستقرار على نطاق واسع .

وتبدأ السجلات العربية عن الجنوب الافريقي . . . فيما كتبه « وهب
بن منبه » سنة ٧٣٨ والذي يعتبر كتابه أشبه شيء بمذكرات رحالة باللغة
العربية عن هذه المناطق المأهولة في افريقيه والتي كانت تحجبها الروايات
والاساطير ، وهنا نسمع صدى نول رواية عن أسطورة الهجرة « التي تردد
صداها طيلة عدة قرون بعد ذلك . . . يقول ابن منبه « ان ذرية أبناء
« كوش » تشمل شعوب السودان وهم ربما القادان الذين يعيشون
شرقي بحيرة تشاد الذين يعيشون اليوم في وادي دارفور (. . .) والأحباش
والقبط والبربر . . .

وبعد ذلك بحوالى مائتى عام بعث المسعودى . . . أعظم جغرافى
العرب في العصر الوسيط بعث حياة جديدة فى أسطورة انهجرة . . .
كتب يقول (فى كتابه مروج الذهب) : - انه عندما انتشرت ذرية نوح
عبر الأرض فان أبناء كوش ابن كنعان اتجهوا صوب الغرب وعبروا النيل
وهناك تفرقوا . . . أما بعضهم وهم النوبيون والبيجا والزنج فقد اتجهوا

صوب اليمين ما بين الشرق والغرب .. وأما الآخرون وهم عديدون فقد ساروا صوب الشمس الغاربة ..

وقد يكمن جزء كبير من الحقيقة التاريخية .. في موضع ما من أسطورة الهجرة من وادي النيل .. فقد كانت الشعوب المهاجرة التي انجبت شرقا وشمالا بشرق قبائل أو عشائر امتزجت أجناسها وتحضرت نوعا ما ... ودخلت السودان الغربي في مواكب طويلة من الغزو والاستقرار .

ويمكن المرء أن يتكهن بطبيعة الضغط الذي تعرضت له هذه القبائل حتى اضطرت إلى الحركة والهجرة إلى السودان الغربي .. فهناك اغارة الفرس وانتصارهم على ممالك وادي النيل الأعلى .. وهناك خسوف شمس مملكة « كوش » .. وانهارها .. وهناك البؤس الذي جلبه الصراع بين الاسر الحاكمة والبحث عن الثراء .

كما يمكن المرء أيضا أن يتكهن بطبيعة الاستقبال الذي استقبلتهم به الشعوب التي كانت هناك في هذه الايام .. لما رأوه في هؤلاء الوافدين الجدد من أسلحة تفوق أسلحتهم .. ومن قوة ومعرفة .. ومعلومات أكثر سعة من معلوماتهم وهي صفات لا يمكن أن يعيش بدونها شعب مهاجر .

ويبدو أن الزنوج كانوا يحتلون من هذه الارض : المناطق الواقعة شمالا حتى جبال « تاسيلي » في منتصف الطريق بين انداغل وشاطي » البحر الأبيض وقد عثر « لهوتي » على قناع في منطقة جبال « تاسيلي » مثل هذه التي تستعملها إلى ان يوم قبائل « سنوفو » التي تعيش في ساحل العاج .. ويعتقد « ديلافاس » أن قبائل « سنوفو » كانت إحدى ثلاثة شعوب وجدها المهاجرون من الشرق والشمال الشرقي تمتلك هذه الارض .. فهل كانت هذه القبائل تعيش قبل ذلك إلى الشمال من هذه المنطقة .. ثم اتجهت جنوبا بدافع من جفاف الصحراء ؟

ومن الواضح أنه على أيام « ابن منبه » أي في بداية القرن الثامن .. كان المهاجرون القادمون قد اختلطوا بالشعوب الزنجية حتى أن أحدهما كان قد استوعب الآخر تماما .. فقد احتفظت بعض شعوب غربي افريقيا بالخصائص الجسمانية ... للجناس « البيضاء » .. مثل شعوب « الفولب » الذين يعيشون اليوم في أماكن متفرقة في السودان الغربي .. على حين نرى شعوبا أخرى كالسنغهيي ظلت تحتفظ دائما بالخصائص الزنجية الخالصة .

وقد عثر في « نوك » سنة ١٩٣١ (وهي قرية في مقاطعة زازايا) على تماثيل لرؤوس آدمية في آنية من ان فخار ثبت أنها لا تمت من الناحية الفنية إلى أية حضارة عرفت في المنطقة المحيطة .. وهي تماثيل تدل على شكل من الطقوس الدينية عرفته شعوب عاشت في هذه المنطقة عبر الوادي الفسيفس الذي يمتد شرقا وغربا بين النيجر والبنو ... وقد أثبتت الاختبارات الراديوكربونية أن هذه التماثيل تعود إلى ٣٥٠٠ ، ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد أي أن صانعيها كانوا من الشعوب الزنجية التي عاشت في هذه التواريخ قبل أن تفتد إلى أراضيها هجرات من الشرق أو

الجنوب الشرقي .. وهي تدل على أن هذه الشعوب الزنجية كانت لها تقاليدها وأفكارها الخاصة بها في الفنون والنحت وأن حضارتها القديمة كانت أقدم الحضارات التي استخدمت الحديد في تلك المناطق وأنه كانت لها أساليبها في الفن والدين والتنظيم الاجتماعي مما قد تزيده وضوحا الاكتشافات المقبلة .

والواقع أن هذه الاكتشافات التي تمت في - نوك - تعتبر من الوجهة التاريخية ثورة هامة - فقد دأب الاوربيون على أن يعتبروا الشعوب الزنجية شعوبا متخلفة بطبيعتها لا تستطيع أن تصنع لنفسها حضارات خاصة بها وعندما عثر في « ايف وبنين » على تماثيل نصفية لآدميين .. وعلى تماثيل لرؤوس آدمية قال الكثيرون ان هذه لا يمكن أن تكون أبدا نتاجا زنجيا .. وأنه لابد أن يكون صانعوها من الاغريق او المصريين القدماء أو حتى البرتغاليين .. لان الزنوج على حد قولهم .. لم يصنعوا قط شيئا كهذا .. ولكن اكتشافات في الصحراء أثبتت أن شعوبا زنجية خالصة عاشت في هذه الجهات قبل سنة ٣٠٠٠ ق م كانت قادرة على صنع تماثيل للرجال والنساء في أسلوب واقعي رائع وحساس وان هذه الشعوب ربما كانت من أول خالقي التصوير الانساني الطبيعي .. وهو أمر تؤكد أيضا الاكتشافات التي تمت في - نوك - فهذه الرؤوس الفخارية لآدميين كانت تشبه في أسلوبها الفني أساليب أيامنا هذه .. برغم أن عمرها أكثر من ثلاثة آلاف سنة .. وكل هذا يدل على أن مجتمع « نوك » كان حضارة انتقالية بين العصور الحجرية وعصور المعادن وصلت الى كامل نموها في قرنين أو ثلاثة قرون قبل الميلاد .

وربما كان في مقدورنا أن نخمن أي نوع من الاجناس صنعت هذه الرؤوس الفخارية .. فبعض هذه الرؤوس ته حى بأنهم كانوا الاسلاف المباشرين لبعض الشعوب التي تعيش الآن في وسط نيجيريا .. فطريقة تصنيف الشعر على شكل حلقات .. والتي تبدو في بعض هذه الرؤوس .. لا تزال تستخدمها شعوب تعيش الآن هضبة نيجيريا

٢ - من كوش الى قرطاجنة : -

هل كانت وهناك وحدة ثقافية ولغوية بين هذه الشعوب التي كانت تعيش في الغابات منذ زمن بعيد ؟ .. ربما كان هذا أمرا محتملا .

من واقع كتابات المسعودي عن أسطورة الهجرة .. وعن أبناء كوش العديدين الذين ساروا نحو الشمس الغاربة .. يبدو أن هؤلاء قد ساروا نحو شعوب كانت العرب تسمع عنها من قبل في « زغاو » وكانهم وكاوكاو وغانا » وبلاد أخرى للسود « والدمدم » .. وأنهم ساروا من النيل الاوسط حتى منتصف النيجر عبر طرق كانت معروفة عبر القارة الافريقية .. وكان العرب يعرفون وجودها حق المعرفة .. وليس هناك ما يدعونا الى الشك في أن مثل هذه الطرق كانت تستخدم بانتظام قبل ذلك بأزمان بعيدة . ولا زال آلاف الحجاج من نيجيريا يسلكونها الى البحر الاحمر في طريقهم الى الحج .. وجغرافية هذه المنطقة تدل على أن

المناخ كان أكثر ملاءمة بالنسبة للمسافرين عبر هذه الطرق مما هو عليه الآن .. ومن ثم يمكن القول بأن الناس قد عبروا هذه الطرق من أقدم الأزمنة يحملون معهم عقائدهم وأفكارهم واختراعاتهم .. والحق أن الامتزاج في غرب افريقية بين الشعوب الاصلية والشعوب الوافدة بالهجرة .. كان قويا وشديدا بحيث لا تكاد تجد في غرب افريقية اليوم شعبا لا تحفل أساطيره بقصص عن أصله الشرقي أو الشمال في الماضي البعيد .

وقد تحمل هذه الاساطير اشارات في بعض الأحيان تمكن الدارسين من الوصول الى تواريخ تقريبية وهم بصدد دراسة تاريخ شعوب هذه المنطقة .. وذلك من قبيل ما يعتقد « بياباكو » من أن مؤسسى حضارة « يوروبا » في جنوب نيجيريا قد وصلوا الى بلادهم بين القرنين السابع والثامن الميلاديين .. وأنهم أتوا أصلا من حوض النيل الاوسط .. وكيفما كان الامر فإن الاصل الشرقي واضح بالنسبة لحضارة « يوروبا » وبالنسبة لكثير من الشعوب المجاورة أيضا .. ومن ثم كانت الاساطير مصدرا ان لم يدل على الاصل الشرقي .. فهو على الاقل يدل على التأثير الشرقي ..

وقد بنى أعظم المعابد المصرية قاطبة في النوبة - ف الارض الجنوبية التي أصبحت فيما بعد مملكة كوش - أحد فراعنة الاسرة الثامنة عشر وهو امينوفيس الثالث (١٤٠٥ - ١٣٧٠ ق م) على الضفة الغربية للنيل .. وكان طريق الوصول اليه محروسا بالاسود والكباش ..

وقد نقل الفراعنة انكوشيون من الاسرة الخامسة والعشرين .. الكباش والاسود الى معابدهم بالقرب من « نباتا » على النيل .. والكوشيون هم الذين غزوا مصر من الجنوب .. ومنذ ذلك الحين أصبح الكباش - رمز آمون - أحد الرموز المقدمة العظيمة لكوش .. وحتى يومنا هذا قد نجد عددا من الكباش الجرانيتية في ميرو ونجع .. ملقاه فوق الرمال القاحلة .. ولكن هذا الكباش الذي انتقل من الشمال الى الجنوب .. وجد طريقه أيضا الى شاطئ الشمال الافريقي .. فقد أخذه الليبيون كما فعل الكوشيون .. وربما في الوقت نفسه تقريبا .. وأينما كان الاصل القديم « للكباش » .. فقد انتقل بعيدا داخل القارة الافريقية .. واحتفل كثير من شعوب غرب افريقيا بالوهيته .. فشعب « الماندينجو » في غرب السودان يعتقد أن آله العواصف والرعد يأخذ شكل الكباش على الارض .. كما أن الاله القومى لشعب اليوروبا والمسمى بشانجو يظهر بقناع كباش وهو أيضا اله العواصف والرعد .

ويمثل شعب « الباوول » بساحل العاج .. نياني انه السماء بقناع كباش .. كما أن اله البرق عند شعب الفون في داهومي - كباش أيضا .. ويستمر ظهور الكباش المقدسة بصورة ما في بلاد الكامبيرون وحوض الكونغو .. ولا يزال صانعو التماثيل الخشبية يصنعونها حتى اليوم . وهي آثار تدل كلها على تداخل في الثقافة الافريقية .. وهي أيضا براهين جديده على وحدة برغم التفرق .. تضيف على الثقافة الافريقية تجاوبها وتعقيدها وقدمها .

وقد أوضح وينرايت كيف أن الرقائق التي توضع على صور الكهنة فى يورزبا لاند بجنوب نيجيريا ٠٠ والتي ترجع للعصور الوسطى تذكرنا بنماذج مشابهة فى مصر الفرعونية ٠٠ وقد نبه أركل الى التشابه الشديد بين المصابيح البيزنطية التي عثر عليها فى مصر وبين أخرى عثر عليها فى قبر قديم بساحل الذهب من عدة سنين مضت ٠ كما أن الملكية الالهية لشعب « انجوكن » فى نهر « بينو » بنيجيريا تذكرنا بالملكية الالهية فى « كوش » وهى ليست الوحيدة فى هذا الصدد ٠

ويبدو ان اقتباسات ثقافية أخرى قدمت من الشمال ٠٠ ففى آخر دراسة لعقائد وأساطير شعب « آكان » فى غانا ٠٠ ترى « مسز ميرويتز » ان هناك علاقة بين العقائد القديمة فى شمال افريقيا وديانات اله القمر واله الشمس ٠٠ وبين آلهة أخرى لشعوب « آكان » فى غانا حتى أن فلسفة الاصول الانسانية فى الاولى تقترب بشكل ملحوظ من فلسفة الثانية وتأملاتها ٠٠ فان « ميلكارت » من صور بلبنان ورأس العائلة الملكية القرطاجية التى اسسها « ديدو » ميلكارت هذا تجسده الاساطير فى شكل ثور ٠٠

وكذلك فان الاساطير الافريقية لشعب آكان تجسد بوسومورور رأس عائلة بونو ، الملكية فى شكل ثور أيضا ٠ وتقول « مسز ميرويتز » انه كان يضحى بثور مرة فى السنة لدى شعب آكان ٠٠ وكانت هذه التضحية ترمز الى موته ومولده الالهى من جديد وهى تقول أيضا ان ارقم ثمانية يوجد أيضا كرمز دينى بين الاكان ٠٠ حيث يوحى بأن الموت والمولد يتتابعان من حديد بصورة متكررة تماما كما كان الامر بالنسبة لشعب قرطاجنه ٠٠ كما ان الالهة « تانيت » ، فى قرطاجنه « تشبه الاله الاكان ٠٠ « نيم » التى وهبت الحياة للعالم دون شريك ذكر ٠٠ ومثل الالهة ديدو « الاسطورى الذى أسس قرطاجنه فان الملكات الامهات عند ادكان ٠٠ كن يمارسن قوتهن منذ أزمان لاتعيبها ذاكرة ومهما تكن القيمة الحقيقية لهذه المقارنات ٠٠ فانها ولا شك تؤكد التعقيد الكبير للنمو الاجتماعى فى افريقيا القديمة ٠

ولم يكن هناك بطبيعة الحال نقل ذاتى أو آلى للافكار الموجه من الشعوب بعقائدها عن الاصل الانسانى أو الالهى ٠٠ ربما جابت انحاء القارة ٠٠ وربما جاءت هذه العقائد مباشرة من الشمال أو الشمال انشرقى ٠٠ وعلى أية حال فان الأثر الذى تركه المصريون أو الكوشيون أو القرطاجنيون بين شعوب الجنوب يشبه بالضبط الأثر الذى تركته حضارات شرق البحر الابيض المتوسط التى اندفعت شمالا فى أوروبا البربرية فى الوقت نفسه أو قبله بقليل ٠

ويمكننا أن نؤكد انه ليس ثمة حالة أخرى مماثلة نفترض بها وسيا لانتشار العقائد والافكار من وادى النيل الى جنوب ووسط افريقيا ٠٠ فمصر فى عهد الاسرات لم تولد من فراغ ولكنها ولدت من رحم افريقى ٠٠ فان فلاحي بحيرة الفيوم الذين ارسو أسس المجتمع المصرى القديم ٠٠ كانت لهم آراؤهم فى الحياة ٠٠ وكانت لهم عاداتهم وتقاليدهم ٠ والثابت ان هذه الآراء والعادات والتقاليد كانت افريقية أكثر منها آسيوية

.. فلم تكن « أرض الآلهة » بكل أرواح الاسلاف العظام .. بالنسبة
عصر الاسرات في مصر .. لم تكن هذه الارض تقع في الشرق أو في
الشمال وانما كانت تقع في الجنوب والغرب .. وليس هناك مما يثبت
أن أقدم عبادات الكباش والشمس .. وأن العقائد الأخرى التي اشتهرت
على ضفاف النيل .. لم تبدأ في « أرض الآلهة » الغامضة في افريقيا
العليا حيث نمت منذ ذلك الحين وربما كان من المعقول أن نعتقد ان تداخل
الآراء ودورانها واتقانها واعادة احكامها قد حدث في حين كانت الآراء
تنتقل شمالا وجنوبا - في كل اتجاه - أنها كانت جميعا تتعرض للتشكيل
تحت ضغط مختلف الازمنة .. ومختلف الشعوب .. وقد يكون هناك ظل
من الحقيقة في أسطورة شعوب غرب افريقيا التي تدعى أن لها أصولا
في الشمال أو الشرق .. الا أن عدة قرون من الاستقرار تعني امتزاجا
وانصهارا في الاصول المقيمة هناك .. وان كان هذا لا يعني بحال من
الاحوال ان الشعوب القديمة في افريقية .. التي عاشت قبيل موجة
الهجرات .. كانت شعوبا لا شكل لها .. طبعتم عليها وجوه أجنبية ..
فقد كانت هناك حقاق وجوه أجنبية .. ولكن هذه الوجوه تم استيعابها
وخضعت للتطور والتحويل في أفكارها وآرائها بحيث أصبحت جميعها
خاصة بغرب افريقية مثل عادات « الاكان » الدينية .. مثل تقاليد
« النورويا » في نيجيريا .. أو كما أصبحت المسيحية .. التي انبثقت
في فلسطين .. أوروبية .. أو كما حدث قبل ذلك بزمان بعيد .. عندما
أصبحت المساهمة الافريقية في حضارة النيل .. القديمة على ضفاف
بحيرة الفيوم .. مصرية خالصة ..

ولم يتجه علماء الانتروبولوجيا الى دراسة منظمة للبناء المتداخل في
الفكر والعقيدة والذي يظهر خلف البناء البسيط الذي كان يبدو للـ
القبلية في قلب القارة الافريقية .. ولم يفعل علماء الانتروبولوجيا ذلك
الا منذ سنين قليلة مضت .. ومنذ ذلك التاريخ أصبح الكثير مما كان
يبدو واضحا .. أصبح غامضا .. ومع هذه الدراسة الجديدة - ربما
أمكن تفسير أمور أخرى كثيرة .. وعلى أية حال فان هذه الدراسة تؤكد
بصورة تنزايد يوما بعد يوم .. ان افريقيا القبلية القديمة لم تعش أبدا
في « قرون راكدة » فهذا الزعم أصبح الآن مجرد وهم وخيال ..

٣ - اكتشاف الحديد :

« وماكيب فيرد » Capeverde انها ليست الا مكانا قدرا »
بهذه العبارة اعترض الملك شارل الثاني ملك إنجلترا .. عندما
ألحوا عليه في تكوين شركة من المغامرين الانجليز للتجارة في ساحل غينيا
.. لقد كان هذا الحكم الذي أصدره شارل الثاني يستند الى ما كانت
تعرفه أوروبا عن افريقيا في هذه الايام مستنقعات وأمطار لا تنقطع ..
زعماء غلاظ الثلب يتجرون في العبيد .. حمى وحرارة شديدة ..
سهولة في الغزو وصعوبة في الاحتفاظ به .. كان كل شيء ..
نظر الأوروبيين بدائيا لا فائدة ترجى من ورائه .. وكانت شعوب غني
مثلا .. تلك الشعوب التي أضنتها الاستجابة الدائمة لمطالب الأوروبيين
في الحصول على العبيد ..

كان يعرفها العرب في ذلك الوقت .. ويستنتج « هوني » من دراسة تفصيلية لهذا الموضوع أن استخدام النحاس والبرونز وصل الى الجنوب عبر الصحراء بعد حوالي سنة ١٢٠٠ ق م وهو التاريخ التقريبي لاستخدام المعادن في هذه الجهات .. وأن شعوب هذه الجهات قد استثمروا في صنع اسلحة من النحاس وفي استخدامها حتى سنة ٢٠٠ ق م على الأقل

والهم في هذا الموضوع هو تاريخ تصنيع الحديد .. ذلك انه لا يمكن القول بأن عصر المعادن بدأ في القارة افرريقية كفترة متميزة تفرض أنماطا جديدة للتنظيم الاجتماعي حتى أصبح تصنيع الحديد شائعا .. فبالا لات الحديدية النجيدة فقط .. تستطيع الشعوب افرريقية أن تتغلب على العوائق الطبيعية للمعيشة هناك وأن تنتشر هذه الشعوب في القارة وتزدهر وتنمو ... هذا ونم تصل عصور النحاس والبرونز من آسيا وافرريقية الى جنوبي الصحراء .. لهذا السبب نردد نقطة ذكرناها من قبل .. وهي ان دراسته عصر الحديد في افرريقية .. ذات أهمية حيوية لفهم الاصول افرريقية الحديثة .. وربما تكون الأدوات الحديدية قد وصلت الى كوش في شكل أدوات نادرة كانت تثير الدهشة منذ سنة ٦٠٠ ق م ولكن صهر الحديد لم يصبح شائعا هناك الا بعد ذلك بفترة طويلة .. وأصبح على درجة من الأهمية كحقيقة حضارية .. ولكن ذلك لم يكن قبل ٢٠٠ أو ٣٠٠ سنة قبل ظهور المسيح وعليه .. فان استخدام الحديد لم يصل الى غرب أو وسط افرريقية الا قبل المسيح بقرن واحد تقريبا .. أو ربما بعد ذلك بقليل .. والشئ الذي كان يقلل من سرعة انتشار المعرفة بصناعة الحديد من « مرو » هو صعوبة المواصلات عبر الاراضي شبه الصحراوية .. واحتمال اعتبار هذه الصناعة سرا ملكيا .. أو كهنوتيا خاصا (لاننا لم نعثر على أكوام خثارة الحديد في مرو الا على بعد مئات قليلة من الياردات من معبد الشمس) .. ويؤيد هذا الاحتمال أن البرتغاليين عندما وصلوا الى مصب نهر الكونغو في نهاية القرن الخامس عشر .. وجدوا أن ملك الكونغو كان عضوا بطائفة خاصة بالحدادين .. وأكدت المعلومات بعد ذلك أن تلك لم تكن الحالة الوحيدة في هذا الصدد ..

وبالرغم من هذا التأخر في انتشار صناعة الحديد .. فان المعرفة بهذه الصناعة ربما تكون قد وصلت الى غرب افرريقيا ووسطها في السنين الاخيرة قبل ظهور المسيح .. ويعتقد الدارسون الفرنسيون ان شعوب البربر الليبية نقلتها قبل ذلك الى الجنوب .. ويؤسسون اعتقادهم هذا على حقيقة وجود الحديد عموما في مقابر شمال افرريقيا انتي تقبوا فيها .. والتي تعود الى فترة تبدأ من سنة ٥٠٠ ق م وأن الحديد حل محل البرونز بشكل واضح في أدوات الاستعمال اليومي في شمال افرريقية منذ القرن الثالث ق م وهذا الوقت يتفق تقريبا مع وقت انتشار الحديد في كوش .. وهؤلاء الدارسون لا ينكرون انتشار الحديد في « كوش » ولا خثارة الحديد في « مرو » ولكنهم يرجحون ان شعوب البربر الليبية كانت تستطيع الوصول الى غرب افرريقيا بسهولة أكثر من أبناء كوش أو الشعوب التي كانت ترتبط بهم تجاريا .. ولكن سواء وصلت المعرفة بالحديد الى غرب افرريقية .. من ليبيا أو كوش .. أو كليهما معا ..

فان صناعته كانت (شائعة) في انسا فانا بالسودان في القرون الاخيرة قبل ظهور المسيح . . ثم انتشرت هذه الصناعة بعد ذلك بعيدا ناحية الجنوب الى ما وراء الغابات الاستوائية . . وهذه التواريخ لها أهمية بالغة لأنها تحدد بداية افريقية المعاصرة .

وبرغم أن هذه التواريخ كلها تقريبية وتخضع للاستنتاج . . فانها على أية حال تواريخ معقولة تؤيدها كثير من الشواهد التي أمكن الحصول عليها حتى الآن . . وفي نهاية القرن الثاني عشر بعد الميلاد . . كان الحديد يصدر بكميات ضخمة من الساحل الجنوبي الشرقي لافريقيا . . الى الهند . . وليس معنى ذلك انه لم تكن هناك معادن أخرى . . فقد وجد في الكونغو تمثال للآلهة المصرية « أوزوريس » من البرونز أو النحاس . . ويرجع تاريخه الى حوالي القرن السابع ق . م . كما وجد تمثال آخر صغير لأوزوريس يحمل اسم تحتمس الثالث (١٤٥٠ ق . م) في جنوب حوض الزامبيزي . . ووجدت عملات مصرية قديمة للأسرة الثالثة عشرة (١٧٨٠ - ١٥٨٠ ق . م) في مدغشقر .

ولقد انبثقت من صناعة الحديد . حضارتان لعصور حديثة في وسط وجنوب القارة الافريقية . . حضارتان كانتا ولا شك تسبقان زمنهما ومكانهما

٤ - التجارة مع ملك تمبوكتو : -

في سنة ١٧٧٢ كتب جيمس بروسي عن رحلته في اعالي النيل الازرق يقول : (الى جانب السور حيث تكنات الجنود . . كانت الخيول تدبر رءوسها وطعامها ملقى أمامها وفوق رأس كل جندي علقت على الحائط حربة طويلة ودرع بيضاوية الشكل وسيف عريض) . . وقد وصف جيمس بروسي . . هذا المنظر بقوله « انه واحد من أروع . . المشاهد التي وقعت عليها عيني . . ولم يصدق أحد في بريطانيا ما كتبه « بروسي » عندما عاد الى وطنه . . ولكن هؤلاء الفرسان كانوا ولا شك فرسان احدى ممالك السودان القديم ليس فقط سنة ١٧٧٢ ولكن لمئات مضت من السنين . . ولم تكن أوروبا تعلم شيئا عن هذه المناطق حتى القرن الرابع عشر . . أي بعد ألف سنة تقريبا من بداية الحياة الحقيقية للشعوب الاولى في أوروبا نفسها .

لقد كان التجار النورمانديون في صقلية في القرن الثاني عشر يتبادلون التجارة مع المدن المسلحة في شمالي افريقية . . وقد تبعهم في ذلك أهالي ييزا وجنوا وفينيسيا والبروفانس . فقد عقدت المعاهدات التجارية بين شاطئ البحر الابيض المتوسط في القرون الوسطى وكانت للدول المسيحية قناصل في الموانئ الجنوبية . . ولكنهم كانوا بعيدين عن الداخل فقد كانت الدول الاسلامية تسير تحت دوافع دينية وتجارية على مبدأ احتكار الاتصال بالقارة الافريقية فيما وراء شواطئ البحر الابيض المتوسط ولكن اليهود كان بمقدورهم أن يصلوا الى هذه الأماكن . . ففي القرن الرابع عشر الميلادي تأسست في « مايوركا » مدرسة شهيرة يهودية لرسم الخرائط وأشهر ما رسمت من خرائط تلك الخريطة التي رسمها « ابراهام كرسك » (خريطة قطلونيا سنة

(١٢٧٥) التي كان لها تأثير اشبه بتأثير اكتشافات كولبوس - منذ قرن قبل ذلك التاريخ وقد اوضحت هذه الخريطة جبال الاطلس يحترفها ممر تعود التجار ان يمروا خلاله « في طريقهم الى ارض الزنوج في غينيا » ثم انها حددت مكان تمبوكتو .. وبيوتات في مالي وجاو وتفازا .. وكلها اشياء اثارت مخيلة الاوروبيين حتى راوا هذه المناطق راي العين بعد قرون قليلة .

والواقع ان كثيرا من الخرائط القديمة في هذا الصدد كانت مفرطة في الخيال .. بل ان بعضها كان زائفا . وشيئا فشيئا بدأت تتحقق لهذه الخرائط الحقيقة والموضوعية وأولى هذه الخرائط خريطة « فراماورو » التي صنعت في سرية تامة في فينيسيا سنة ١٤٥٩ كي يستخدمها الامير هنري الشهير بهنري الملاح .

ولم تكن السفن تستطيع المرور حول افريقية الا عندما حقق لها هذه المحاولة « بارتولوميو دياز » بمروره برأس الرجاء الصالح .. وقد احتفظ الامير هنري بخريطة « فراماورو » سرا خاصا به .. وهنا نتساءل .. هل من المحتمل أن يكون دياز وديجاما .. قد رأيا هذه الخريطة قبل ان يبحرا في رحلاتهما الطويلة في الجنوب والشرق ؟ .. وهل كانت لدى ماجلان فكرة عن الطريق من الاطلنطي الى الباسيفيكي قبل ان يحقق محاولته عبر المضيق الذي يحمل اسمه الآن ؟ .

ان البحارة العرب كانت لديهم ولا شك .. خبرة بهذه البحار فقد كتب « الادريسي » عن رحلات في الاطلنطي .. يبدو انها وصلت حتى جزر كناريا على حين تحدث « أبو الفداء » (سنة ١٢٧٣ - ١٣٣٢) عن رحلات حول العالم ويتحدث « انعمري » في الفصل العاشر من كتابه مسالك الأبصار « عن رحلات في الاطلنطي قام بها بحارة من غرب افريقية في عهد الامبراطور « كانكان موسى » امبراطور مالي .. والتي تدل على ان اسلاف كانكان موسى نفسه قد سافروا في الاطلنطي (بألفى سفينة) وابتحروا غربا ثم اختفوا ويحكى « انعمري » على لسان « ابن امير الحاجب » انه قد سأل السلطان موسى .. كيف توصل الى تحقيق هذه الدرجة من القوة والعظمة فأجاب بأنه « من سلالة بيت توارث الملك جيلا بعد جيل .. وأن الملك الذي سبقه كان يعتقد انه من الممكن اكتشاف نهاية للبحر المجاور .. وانه قد صمم على اكتشاف هذه النهاية بنفسه فأمر باعداد مائتي سفينة ملاء منها بالرجال .. وملا السفن الباقية بالذهب والماء والطعام الذي يكفيهم عامين كاملين . ثم قال لقواد هذه السفن « لا تعودوا قبل ان تدركوا نهاية هذا المحيط .. أو عندما ينفذ طعامكم وماؤكم

ويتابع انعمري ، حكايته على لسان ابن امير « فيقول ان هؤلاء الرجال ذهبوا ولم يعودوا .. وان سفينة واحدة فقط هي التي عادت من هذه الرحلة حيث قرر قائدها انهم اببحروا حتى راوا ما يشبه نهرا شديدا التيار يصب في البحر .. اختفت فيه سفنهم ، اما هو فقد أحجم عن متابعة الإبحار في هذا النهر .. فعاد من حيث أتى .

ومن هذه القصة يمكن القول بأن الفضل لا يعود الى ما جلان في اكتشاف ما وراء البحار .. اذا كان قد استعان في هذا الصدد بخرائط

من شمال افريقية .. فقد بدأت مثل هذه المعلومات التي كانت محتكرة من قبل « تصبح معروفة للكثيرين مع بداية القرن السادس عشر .. ففي سنة ١٥٦٣ نشر « جيوفاني بابتيستار اميوزو » .. سلسلة من الوثائق السرية تتضمن تاريخ السودان الغربى .. ووصفا له على لسان أحد أبناء البربر الأسرى الذى يدعى « حسن بن محمد الوزان الزياتى » والذى عرّف بعد تنصره « باسم جيوفاني ليونى » أو « ليو الافريقى » .. وتضمن كذلك تقريرا عن رحلة الى ساحل غينيا قام بها « كاداموستو فى سنة ١٤٥٥ أى قبل نشر هذه المعلومات بمائة سنة تقريبا .

وقد كانت هذه المعلومات وغيرها سببا فى ان الأوروبيين بدأوا بحريون حظهم فى الاتجار مع ملوك تمبوكتووماني .. وبدأت أوروبا تهتم أكثر فأكثر بهذه المناطق من السودان الغربى .. كما بدأت أسماء مثل سونفهورى ومالى تحدد على الخرائط الأوروبية فقد أثارت أحلام الأوروبيين تلك الثروات التي كانوا يسمعون عنها فى هذه المناطق كما أثارتها من قبل الحكايات عن الهند .

والحق يقال ان تمبوكتو كان لها نصيب من الحضارة لا يقل عن حضارة المدن الأوربية التي ازدهرت فى القرون الوسطى .. وقد كتب كثير من المؤرخين الغرب والبربر .. ومن جغرافيينهم .. الكثير عن المناطق التي تقع على انحناء نهر النيجر .. مما اضاف الكثير من المعلومات على ماكان معروفا من قبل عن مناطق السودان الغربى .. وتبدأ هذه المعلومات بكتاب وهب بن مينه « سنة ٧٣٨ م وتنتهى بكتابات « ليو الافريقى » سنة ١٥٢٦ » ثم كتاب « عبد الرحمن الصاوى » الذي ابناء « تمبوكتو » المولودين بها عام ١٥٩٦ عن تاريخ السودان . الذى استفاد من معلوماته فى القرن التاسع عشر « هينريش بارث » فى دراساته حول السودان الغربى وفى سنة ١٩١١ ظهر الى الوجود كتاب باللغة العربية عن تاريخ السودان . فيه معلومات كثيرة عن دولة سنغورى وصاحب هذا الكتاب هو « محمود كاتى » أحدا أبناء تمبوكتو أيضا .. الذى صاحب حاكم سونفهورى « محمد أسكيا العظيم عندما حج الى بيت الله الحرام وشهد غزو المرابطين الذى قضى على دولة سونفهورى فى نهاية القرن السادس عشر . وكان كثير من علماء المسلمين يسافرون الى انحاء السودان الغربى .. منهم ابن بطوطة الذى قدم الى هناك بعد جولاته فى البلاد العربية والهند والصين .. وكتب فى اعجاب شديد عن دولة مالى .. حيث يصف انبائها بالعدل وكرامية الظلم أكثر من أى شعب آخر .. وبأن ملكهم يضرب بشدة على ابدى الاشرار . كما ان ابن بطوطة .. اشاد بالامن الذى يسود البلاد ، حيث لا يخشى المسافر من قطاع الطرق أو اللصوص ، وإذا نم تكن لدول السودان الغربى القديمة روابط مع أوروبا . فقد كانت لها الكثير من الروابط مع شمال افريقية وحوض النيل والشرق الادنى .

وقد ظهرت فى السودان الغربى أربع دول كبيرة ترتبط بعضها البعض وذلك بعد صراع استمر فترة طويلة من الزمن .. بلغت حوالى ألف عام بين الاسر الحاكمة فى السودان الغربى .. وكل هذه الدول لها

سماتها المميزة .. وكلها تنتمي لحضارات « السفانا » وتعتمد على التجارة والزراعة وادعى في اقتصادياتها وفي هذه الحضارات لعبت انهار غرب افريقية العظيمة ، دورا كان له تأثيره البالغ على طبيعة تشكيلها .. وأولى هذه الحضارات حضارة « غانا » التي كانت بالفعل دولة لها حكومتها المركزية عندما ورد ذكرها لأول مرة في كتابات العرب سنة ٨٠٠ ميلادية . والدولة اشانية دولة « مالي » التي برزت في القرن الثالث عشر واستمرت حتى القرن السابع عشر . والثالثة دولة « كانم » التي اصبحت فيما بعد دولة « بورنو » .. والرابعة دولة « سونغهاي » التي ظلت محتفظة بقوتها ومكانتها خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ...

وقد كانت بعض هذه الدول معاصرة لبداية العصر الوسيط في أوروبا وكانت تفوق هذه حضارة في بعض الاحيان .. ويعلق « بالمر » على هذا .. عندما يتحدث عن دولة « غانا » التي عاصرت صلاح الدين (فيقول : ...) ان الغرب ظل حتى ذلك الوقت جاهلا بدائها متوحشا .

٥ - دولة غانا :

لقد اثبت انحديد في كل مكان من العالم القديم . ان قد كان له تأثير قوى مكن من بناء مجتمعات جديدة أكثر تعقيدا .. والأمر في هذا الصدد لم يكن مختلفا بالنسبة لافريقية .. فمنذ عرفت صناعة الحديد في افريقية .. امكن الحصول عليه بسهولة اكثر من النحاس او البرونز وكان اكثر قيمة من ناحية استخدامه وتصنيعه .. ولهذا السبب قامت شعوب « غانا » كما يذكر الزهري بحملات ضد جيرانها في وقت ما بعد سنة ١١٥٠ م ذلك أن الشعوب الأخرى لم تكن تعرف صناعة الحديد .. وكانت تحارب بقبضان من الأبنوس .. على حين كان أبناء « غانا » يحاربون بسيف ورمح حديدية وبهذا يعتبر قيام الممالك بالسودان الغربى نتيجة للتفوق في استخدام الحديد .. وإذا كانت هذه الممالك بصورتها المنظمة لم تبرز الى الوجود حتى القرن الثامن الميلادي .. فان بدايتها ولا شك كانت بداية انتشار الحديد وصناعته في هذه المناطق : قبل ظهور المسيح بشماتة سنة على الأقل .. وقد صاحب هذه التطورات تأثير آخر لا يقل اهمية عن انتشار صناعة الحديد .. الا وهو تأثير التجارة على نطاق عالمي بين هذه المناطق وبين اجزاء كثيرة من العالم المعروف آن ذاك .. وذلك لان امتلاك هذه الدول للحديد قد مكنها من الغزو والانتصار .. اما التجارة فقد أتاحت لها بناء مجتمع غنى .. حيث ان هذه الدول كانت تسيطر على طرق تجارة الذهب من قلب القارة الى الاجزاء الشمالية منها وقد ازدهرت في هذه الممالك المدن التجارية التي كانت تجر في كثير من السلع مع وسطاء في الصحراء .. كانوا يبيعونها بدورهم الى دول البحر الأبيض وأوروبا .. وكان أبناء هذه الممالك الافريقية يشترون من هذه الدول بضائع أوروبا والبحر الأبيض .. وكانت تجارة الذهب هذه .. هي التي شيدت قوة « غانا » وامبراطورية « ماندينجو »

ودولة غانا هذه .. كانت تقع شمالي وشمال غربي حوض

النيجر الأعلى أى على طرق تجارة الذهب القادمة من قلب افريقية الى الشمال منها . وقد حدد الحوارزمي موقع هذه الدولة فى سنة ٨٣٣ على خريطة كانت نسخة من الخريطة التى رسمها بطيموس منذ عدة قرون سابقة . . وبعد ذلك بمائتى عام كتب . . « عبد الله بن عبد العزيز » المعروف « بابى عبيد » أو « البكرى » عن دولة غانا وكانت كتاباته هذه تجميعا وتمحيصا لمعلومات حصل عليها ونقلها من السجلات الرسمية للحكام الامويين فى قرطبة جنوبى اسبانيا . . وقد اتم البكرى عمله هذا سنة ١٠٦٧ بعد حوالى ثلاثة عشر عاما من زحف حاكم شمال افريقيا (من المرابطين) جنوبا لغزو هذه الاراضى . . ومن اسرة « اودغشت » احدى المدن التابعة لدولة غانا . . وقد قرب هذا الغزو بين غرب السودان والبحر الأبيض واسبانيا ويقول البكرى فى تاريخ يعود الى سنة واحدة فقط بعد غزو الملك النورماندى « وليام » لانجلترا . . ان ملك غانا يستطيع ان يستدعى مائتى الف مقاتل الى ارض المعركة . . ينهم أكثر من أربعين ألفا مسلحين بالاقواس والسهام ترى ماذا كان يمكن ان يقوله النورمانديون عن غانا لو راوها فى هذا الوقت ؟

ولم يكن غزو المرابطين لدولة غانا عملا سهلا اشبه بنزعه المسافر فقد كرس المرابطون الذين احرزوا انتصارات كثيرة فى اماكن أخرى . . اربعة عشر عاما لكى يتموا غزو غانا ويستولوا على عاصمتهم . . فقد زحف « ابن ياسين » وهو احد دعاة المسلمين المتحمسين - جنوبا من المغرب فى سنة ١٠٥٤ وتمكن من الاستيلاء على مدينة « اودغشت » فى السنة التى تلتها . . ويقول البكرى ان هذه المدينة كانت احدى المدن الكبيرة المليئة بالأسواق والنخيل وأشجار الزيتون . . وكانت ايضا احدى المدن التجارية الهامة على الطرف الجنوبي لطرق القوافل عبر الصحراء هذا ولم يتمكن المرابطون من الاستيلاء على مدينة « غانا » نفسها الا سنة ١٠٧٦ وكانت هذه المدينة كما يصفها « البكرى » وتتكون من جزئين تفصلهما مسافة ستة اميال زاخرة بالعمران فى الجزء الاول نها كان يقوم قصر الملك وهو قلعة تحيط بها عدة أكواخ سقوفها مستديرة يضمها سور ضخيم . . اما الجزء الثانى فقد كان مدينة تجارية . . للمسلمين بها اثنا عشر مسجدا . . ويصف البكرى بلاط ملك غانا الوثنى فيقول انه كان يجلس لرد المظالم والتحقيق فى الشكاوى فى شرفة عالية تحيط بها حرسه الخاص وفرسانه . . وخلفهم يقف غلمان يحملون الدروع الموشاة بالذهب . . وعلى يمينه يقف ابناؤه وباقي الامراء يرتدون ملابس فاخرة . . ويحلون شعورهم برقائق الذهب . . بينما يجلس حاكم المدينة على الارض أمام الملك نفسه كمدى يجلس حوله الوزراء . . وكان المقصود بهذا الوصف ابراز مدى ما وصلت اليه دولة غانا من حضارة وغنى . .

فاين كانت تقع هذه العاصمة ؟

فى سنة ١٩١٤ نقب احد الضباط الفرنسيين (بونيل ميزير) فى احدى المناطق القريبة من الساحل وهى منطقة رملية فى أعالي حوض النيجر . . وقد وجد ميزير فى تنقيبهِ عن الشواهد ما جعله يعتقد ان تلك

المنطقة بالذات كانت تقع فيها عاصمة « غانا » التي وصفها البكري ٠٠٠ وقد أثبتت الأدلة بعد ذلك احتمال صدق هذا الاعتقاد ٠٠٠ فقد بذات أعمال الحشف في منطقته « كومبي صالح » التي تقع على بعد ٢٠٥ من الأميال شمالي مدينه « بامالو » في سنه ١٦٢٦ تم بوفت هذه الاعمال لتبدأ مرة اخرى بعد عشر سنوات على يد « توماسي ومايوني » وفي سنه ١٦٥١ عثر الاتان على اثار لمدينه اسلاميه بيره تمتد على مساحة ميل مربع ٠٠ وربما بلغ عدد سكانها حوالي ثلاثين الف نسمة ٠٠ وقد استطاع بعد التحقيق الدقيق ان يرجع هده المدينه الى ثمانمئة عام او تسعمائة عام مضت ٠٠ ويسود الاعتقاد بأن مدينه غانا التجارية التي اشار اليها البكري ٠٠ لابد أن تكون قريبة من هذه المنطقة ٠٠ لا « كومبي صالح » هذه كانت تعتبر عاصمه « غانا » في الايام الاخيرة لوجود « غانا » كدولة ذات كيان ٠٠ ويقول « محمود كاتى » في كتابه عن تاريخ اسودان الغربى ٠٠ ان « كومبي سده كانت عاصمة لامباطور » « كاياما جا » و « كاياما جا » كما يذكر « محمود كاتى » كان اسم « اول ملك حكم غانا (التي حكمها مالا يعل عن ثلاثة واربعين ملكا) وبرغم ان هناك أكثر من « كومبي » واحدة في منطقة « كومبي صالح » فليست هناك دلائل حضريه مقنعة تثبت وجود مدينه اخرى في هذه المنطقة يمكن أن تحتل المكانة الاولى من الاهميه بين مدن « غانا » وان كان هذا لا ينفي أهمية الاثار التي عثر عليها في حفريات كومبي صالح .

ولقد كانت التجارة هي مصدر ازدهار غانا ٠٠ فهي تقع بين مصادر الملح في الشمال ومصادر الذهب في الجنوب ٠ وقد استفادت غانا ايا استفادته من تبادل هاتين المادتين ٠٠ فقد بلغت حاجة الجنوبيين الى الملح ٠٠ الى درجة ان بعض منتجي الذهب ويدعون بالفراوين كانوا يشترونه كما يقول البكري بما يعادل وزنه ذهبا على حين كان الذهب يمثل حاجة أساسية بالنسبة لقاطني الشمال ٠ ومن تم كان من الطبيعي ان تهدف دول السودان الغربى الى السيطرة على مصادر الذهب في الجنوب ٠٠ ومصادر الملح في الشمال ٠٠ وخاصة الموجودة منها في تغازا في الصحراء الشمالية والى السيطرة أيضا على طرق القوافل ٠٠ وقد استطاعت « غانا » ان تحقق الهدف الاول ولم تنجح في تحقيق الهدف الثانى ٠ على حين استطاعت دولة مالى بعدها تحقيق الهدفين معا ٠٠ الى مدى بعيد ٠٠

والى جانب الذهب الذى كانت دولة غانا تحصل عليه فقد كانت تفرض ضريبة مقدارها دينار من الذهب على كل حمولة حمار من الملح تدخل غانا ٠ وديناران من الذهب على نفس الحمولة اذا خرجت من « غانا » ولم يكن الذهب وحده مصدر ثروة دولة غانا ٠٠ فقد كانت تجارة النحاس تمثل جانبا من هذا المصدر ٠٠ كانت الدولة تتقاضى ضريبة قدرها خمسة مثاقيل من الذهب مقابل كل حمولة من النحاس وعشرة مثقالات مثلها على كل حمولة من البضائع الاخرى (ويبلغ المثقال حوال ١/٨ أوقية من الذهب) وهنا نلمح مظهرا آخر للحكومة المركزية التي مارست فرض الضرائب مما يقوم شاهدا على الاستقرار وحسن الادارة ٠٠ وفي سنة ١٠٥٤ اتجه المرابطون جنوبا لنشر الدعوة الاسلامية فى هذه المناطق.

بين الوثنيين .. ولكنهم كانوا ينشدون أيضا المغانم التي قد تعود من وراء هذا الغزو .. كانت مصادر الملح - تحت سيطرتهم في ذلك الوقت .. فسعوا الى السيطرة أيضا على مصادر الذهب وكان قدومهم سريعا .. وادى الى انهيار دولة غانا ..

وقد أشار ابن خلدون .. بعد مائة عام من كتابات البكري .. هذه الغزوات فقال ان المرابطين بسطوا سلطانهم على زنج غانا وخرّبوا أرضهم ونهبوا ممتلكاتهم وبعد أن فرضوا الجزية عليهم نشروا الاسلام بين كثير منهم غير ان هذا الغزو لم يؤد الى انهيار أساليب التجارة والإدارة التي جعلت من غانا دولة قوية خلال عدة قرون .. فقد ظهرت دول أخرى مع دولة غانا .. وبعدها ولم يكن الغزو من الشمال أكثر من حالة عارضة .. ثم عادت التجارة في الصحراء الى سابق عهدها في أمن وسلام لم يهددها الاوسطاء التجارة في الصحراء .. مثل قبائل الطوارق المتنقلة .. ولم تتعرض هذه التجارة لتهديد العرب أو المرابطين بالشمال الافريقي ..

وفي سنة ١٢١٣ تمكن «الأكوي كيتا» من تأسيس دولة «ماندينجو» التي عرفت في التاريخ باسم امبراطورية «مالى» وبعد خمس وعشرين سنة تمكن خليفته «سوندياتا» من التغلب على حكام «سوسى» الذين أقاموا من أنفسهم حكاما في غانا ، قبل ذلك بزمن قصير «كما استخلص عاصمة غانا من أيديهم سنة ١٢٤٠ وأقام عاصمة له في الجنوب ... واستطاع هو وخلفاؤه من بعده ان يسيطروا على كثير من أجزاء السودان الغربى طيلة قرن من الزمان ..

ولقد كانت الدول في السودان الغربى تتبع احداها الاخرى فامبراطورية ماندينجو في «مالى» تبعت امبراطورية غانا .. كما ان سنهوى تبعت دولة مالى وجاءت دولة «بورنو» بعد دولة «كانم» وكان النمو في المنطقة كلها نموا في وسائل الحكم تتخلله منافسة بين مختلف الاسر الحاكمة والغزوات الاجنبى وعواضل التاريخ .. وهو الشيء نفسه الذى كان يحدث في أوروبا التي عاصرت هذه الحقبة من التاريخ .. تطور نحو حكومات مركزية واعتماد على الزراعة والرعى .. وتوسع في استخدام المعادن من الناحية الاقتصادية .. ودور تؤديه التجارة في دفع عجلة التطور ..

٦ - مالى :

وبرغم ان «تمبوكتو» و «دجينه» .. قد برزتا الى مسرح الشهرة في العالم الاسلامى منذ القرن الثانى عشر لاحتلالهما مركزا تجاريا ممتازا فإن عظمتهم الحقيقية قد بدأت مع سيطرة ماندينجو وامبراطور «مالى» ..

وفي سنة ١٣٠٧ تولى العرش «كانكان موسى» أشهر ملوك السودان الغربى وأخذ ييسط سلطانه على المناطق المجاورة فأحرز نجاحا كبيرا في هذا الميدان وكذلك في ميدان العلاقات السياسية .. وقد توجه مع اتباعه الى مكة لأداء فريضة الحج فكان هذا دليلا يقدمه للعالم على سعة

انتشار الاسلام .. وعلى قيمة الحضارة السودانية الغربية .. ولقد ظل سكان القاهرة القديمة يتحدثون عن موكب الفخم طيلة مائة عام بعد مروره بها في طريقه الى مكة عن خلعهم وزوجاتهم وهداياهم وفرسانه وبر مظاهر العظمة التي تمتع بها ملك يمتد سلطانه ليشمل بلادا تعادل في مساحتها مساحة غرب أوروبا كلها مجتمعة .. وتتمتع دولته بالقدر نفسه من الحضارة .. وبرغم ان « العمري » كتب عن هذا الموضوع بعد ذلك بمدة طويلة الا أنه استطاع ان يجمع معلومات عن دولة « مالي » من رجال رأوا بأعينهم موكب امبراطور « ماندينجو » في طريقه الى مكة .. وقد سأل أحد قضاة القاهرة السلطان « كانكان موسى » عن مساحة مملكته فقال « انها مسيرة عام » .

ويضيف العمري انه سمع هذا القول من مصدر آخر .. ولكن كاتباً عربياً آخر يعتقد أن اتساعها يساوي مسيرة أربعة أشهر طولاً وعرضاً .. ونحن نعلم ان امبراطورية « مالي » في عهد كانكان موسى « أو بعده بقليل كانت تضم مصادر الملح في « نغازا » على أطراف الصحراء شمالاً .. ومصادر الذهب في أقصى الجنوب على أطراف السفانا .. على حين كانت تمتد غرباً حتى الاطلنطي .. وشرقاً حتى مناجم النحاس ومراكز القوافل في « تخذه » والبلاد التي تليها ..

وفي سنة ١٣٢٥ استولى قائد جيش « كانكان موسى » المدعو « ساجامان دير » على « جاو » عاصمة دولة سونغهوى في منتصف حوض النيجر .. وبذلك وضعت « مالي » يدها على الارض انواسعة للتجارة .. التي كانت امبراطورية « سونغهوى » قد استولت عليها ناحية الشمال .. ومن ثم أصبحت امبراطورية « مالي » من أعظم دول العالم في ذلك العصر ..

وفي « تمبوكتو » أمر كانكان موسى (ببناء المساجد) التي ظلت شهرتها واسعة لفترة طويلة في السودان الغربي .. وقد قيل انها من تصميم أحد شعراء غرناطة في جنوبي إسبانيا .. ويدعى « أبو اسحاق الساحلي » الذي تعرف عليه الامبراطور في مكة ، وأغراه بالعودة معه « ويقول ابن بطوطة » الذي زار « تمبوكتو » بعد عشرين عاماً من هذا التاريخ انه رأى ضريح هذا الشاعر . وقد بدأ مع زيارة كانكان موسى « لتمبوكتو » بناء المنازل ذات الأسطح المستوية .. ومما لا شك فيه ان ازدهار هاتين المدينتين قد امتد فترة طويلة بعد هذا التاريخ لان « دولة مالي » قد استطاعت أن تسيطر على أرضها شمالاً وجنوباً أكثر مما استطاعت امبراطورية غانا . من قبلها . حيث وضعت يدها على كثير من مصادر النحاس والملح والذهب الى جانب طرق القوافل التي كانت تخترق نطاق هذه الامبراطورية .. ولم تكن هاتان المدينتان مركزاً للتجارة والعقيدة فقط .. بل كانتا مركزاً للثقافة والعلم فقد ظلت « تمبوكتو » مركزاً للثقافة والحضارة بالسودان الغربي طيلة ما يقرب من مائة عام .. في الفترة التي كانت أوروبا فيها تحترق بحرب « المائة عام » .

ويصف « ليو الافريقي » تمبوكتو فيقول : « ان في تمبوكتو عدداً كبيراً من القضاة والاطباء والكتبة يتقاضون مرتبات عالية من الملك

الذى يحترم رجال العلم .. وهناك طلب متزايد على المخطوطات التى كانوا يطلبونها من باربارى .. وكانت التجارة فى الكتب تعود باربارى تفوق تلك التى تأتى نتيجة أى عمل تجارى آخر ، .. ورغم أن « ليو الافريقى » كان يتحدث عن « محمد اسكيا » فى دولة سونغهوى .. الا أنه من الواضح ان الاحوال لم تكن لتتغير كثيرا عن أعوام الرخاء التى أعقبت انتصارات « كانكان موسى » .

وقد ترك لنا « ابن بطوطه » معلومات شائقة عن رحلاته فى دولة « مالى » فتحدث عن جمال نسائها وكيف انهن يلقين احتراماً أكثر من الرجال .. وتحدث أيضا عن شئون الحكم فى مقاطعة « والاتا » وهى المقاطعة الشمالية « لبلاد الزنج » (كما كان يدعوها) فوصفها بانثوق والتقدم .. وحين تحدث عن ابنائها وصفهم بأنهم لا يصرفون الحقن وأنهم ينتمون الى أخوالهم بدلا من آبائهم .. وأنهم يرثون هؤلاء الأخوال ولا يرثون آبائهم .. وذلك برغم أنهم مسلمون متمسكون بأداء الصلوات فى أوقاتها وبدراسة كتب القانون وحفظ القرآن ..

وقد ازداد تطور نظم الحكم مع ازدهار امبراطورية كانكان موسى .. وكانت المدن تزدهر رخاء بازدياد سيطرتها على طرق القوافل وباحتكاكها لأهم المنتجات التى يجرى الاتجار فيها .. ولعل مدينة « جينه » كانت أعظمها على الإطلاق فى هذا الصدد . فقد كانت القوافل تأتى الى « تمبوكتو » من جميع الانحاء مخترقة الصحراء نحو الجنوب ومتجهة الى الشمال بصورة تبدو رائعة اذا ما قورنت بحركة التجارة فى أوروبا نفسها فى القرن التاسع عشر

ولعل من المهم هنا لكى نوضح مدى الرخاء الذى كانت تعيش فيه مدن السودان الغربى فى هذه الأيام .. ان نذكر ما قاله « هينريش بارث » من أن ملك « أغاديس » كان فى مقدوره أن يدفع ١٥٠ ألفا من الدوكات الى امبراطور سونغهوى الذى كان يتقاضى الضرائب المختلفة على قوافل التجارة ومحطات هذه القوافل وكل ما تحمله من البضائع .. وهو أمر لم يكن يختلف بطبيعة الحال عما كانت تفعله امبراطورية مالى .. ومما كنه « غانا » منذ زمن طويل قبل قيام دولة سونغهوى ..

ويقرر البكرى - قبل بارث بمدة طويلة أن ملك غانا كان لديه عمود من الذهب الخالص على درجة من الضخامة بحيث كان يستطيع أن يربط فرسه اليه وهى أمور كانت سائدة فى مالى أيضا - وان كانت الروايات عنها قد اتخذت طابعا أقرب الى الأساطير .. فقد قيل مثلا ان « كانكان موسى » قد اصطحب معه خمسمائة من العبيد خلال زيارته لأداء فريضة الحج .. كل منهم يحمل عصا ذهبية يبلغ وزنها ستة أرطال .. وان أمتعته كانت تحتوى على ثمانين أو مائة جمل من الذهب كل جمل منها يزن ثلثمائة رطل .. وقد زادت الصلات التجارية فى غرب افريقية واضطرد نموها .. ففى سنة ١٤٠٠ يقول « ابن خلدون » ان قبائل سنوية كانت تخترق الصحراء عن طريق جبال « هجار » تضم ما لا يقل عن اثنى عشر ألفا من الجمال وهو طريق واحد من بين ست طرق على الأقل - كلها كانت صالحة لاستخدام القوافل وان هذه القوافل كانت تنجس الى مختلف الانحاء .. وتوجه شمالا الى البحر

الابيض المتوسط وجنوبا من البحر الابيض الى قلب السودان الغربى . . كانت « بورنو » مثلا (فى الشمال الشرقى « نيجيريا ») بتناع النحاس من « وادى » جارتها فى الاتجاه الشرقى . . وكانت « وادى » تستورد هذا النحاس بدورها من دارفور . . وهى أيضا فى أقصى الشرق . . وكانت مالى تستورد بضائع من البحر الابيض المتوسط وكذلك من مصر . سواء بالطرق الشرقية أو بالطرق الشمالية . وكانت هذه البضائع تضم فيما تضم الحرير والسيوف الدمشقية والخيول فى أعداد كبيرة . . وكان علماء المسلمين . . يروحون ويعيثون . . وكان الحجاج يسافرون سيرا على الاقدام حتى مكة . . وظهرت عملات من الذهب فى غرب السودان . . وكذلك عملات من النحاس أو الاصداف . . أو على صورة أثقال من الملح أو القطع المعدنية الأخرى هكذا كانت عظمة هذه الدولة حتى ان « بوفيل » يقول : « انه عندما مات كانكان موسى سنة ١٣٥٢ ترك وراءه امبراطورية كانت تمثل فى تاريخ الدول الافريقية الاصلية نموذجا رائعا لسعتها ورخائها وكانت تمثل أيضا نموذجا رائعا لدى قدرة الزنوج على التنظيم السياسى » .

٧ - سونغهوى :

برزت امبراطورية « سونغهوى » فى اواسط النيجر على مسرح القوة بعد أن أدت مالى رسالتها ودفعت بحضارة السودان الغربى خطوات ابعد نحو الاكتمال وحتى يومنا هذا لا تزال شعوب السونغهوى من الزنوج . . والتي ربما يصل عددها الى ٦٥٠.٠٠٠ نسمة . . تعيش على طول النيجر فى أرضها القديمة بين « تمبوكتو » . . وحدود نيجيريا الآن . . وهم لا يزالون يزاوون زراعة الأرض وتربية الماشية . .

فلقد أقامت هذه الشعوب طيلة الف عام تقريبا فى هذه المنطقة نفسها من حوض النيجر . . وكانت لها سيطرتها الكاملة عليها . . وكانت مدينة جاو تمثل شعوب السونغهوى . . ما كانت تمثله كل من « تمبوكتو » و « دجينه » لغيرها من دول السودان الغربى فى نواحي الثقافة والتجارة والادارة الحكومية . . وقد تم العثور سنة ١٩٣٩ فى بلدة « ساني » على بعد جوالى اربعة اميال من قلب مدينة « جاو » الحانية . . على شواهد لقبور ملكية يعود تاريخها الى الجزء الأول من القرن الثانى عشر . . وقد كتب عليها : « هنا جثمان الملك الذى دافع عن دين الله ويرقد الآن فى رعايته » . . وقد كتب تحت هذه العبارة سنة ٩٤٤ بعد الهجرة . . أى سنة ١١٠٠ ميلادية . . وهو امر يدل على اسم « أبو عبد الله محمد » ثم أضيف اليها مايدل على أن الملك مات انتشار الإسلام فى « جاو » فى زمن متقدم .

ونحن لا نعرف على وجه التحديد أصل شعوب السونغهوى الزنجية . . . وان كان الاعتقاد يسود بأن هذه المنطقة كانت تسكنها قبائل زنجية انقسمت لتقليديا قسمين : سادة الأرض . . وسادة للمياه . . وأن هذه القبائل تعود بأصولها الى عائلات قديمة فى غرب افريقيا . . امتزجت بمهاجرين تذكر الروايات المحلية هناك . . انهم كانوا من قبائل « السوركو » وهم من الصيادين القادمين من الشرق . . وربما من منطقة

بحيرة تشاد ونهر (بنو) ومن قبائل « الجو » من الصيادين ٠٠ وكانت نتيجة هذا الامتزاج هي شعوب سونفهي . . وكانت أهم أماكن إقامتهم هي « كوكينا » و « جونجوي » بالقرب من شلالات لاينزجا في أراضي « الدندي » على الحدود الشمالية القريبة لما يعرف الآن « نيجيريا » وفي روايات أخرى ان مجموعات من البربر المهاجرين قد وصلت الى « كوكينا » في القرن السابع الميلادي تقريبا يعود أصلها الى قبائل « ليما » في « ليبيريا » ثم فرضت نفسها على شعوب السونفهي مما دفع شعوب « السوركو » الى الهجرة بعيدا عن « كوكيا » والاقامة في مكان أصبح فيما بعد مدينة « جاو » ولكن فلول البربر الوافدين تبعهم الى هناك . . ففي سنة ١٠١٠ ميلادية استولى « ضياء كوسوى » على « جاو » واستخلصها من شعوب السوركو وأسس هناك عاصمة سونفهي . . ومنذ ذلك التاريخ بدأت امبراطورية « جاو » تبرز الى الوجود وقد قيل ان الملك ضياء كوسوى « اعتنق الاسلام سنة ١٠٠٩ هذا في الفترة التي سبقت غزوات المرابطين . . ولا شك انه قد سبق غزوات المرابطين لهذه المناطق من غرب أفريقيا . . قدوم بعض رجال المرابطين من الطلائع . . سواء أكانوا من التجار أم من دعاة الدين .

وبذكر « محمود كاني » في هذا الصدد ان مملكة « سونفهي » قد تحولت الى الاسلام بتأثير تجار « جاو » الذين أتاح لهم وجودهم على طرق التجارة الى الشمال مركزا تجاريا ممتازا وقدرة على اجراء هذا التغيير في عقائد شعوب سونفهي . .

وقد كان من نتائج دخول هذه الشعوب الى حظيرة الاسلام ان اختفت الانهة القبلية والمعتقدات البدائية تماما مثلما فعلت المسيحية في أوروبا . . وقد أتاح الاسلام في هذا الصدد ميدانا جديدا لبناء ممالك عدة تتميز بالقوة والسيطرة . . وليس غريبا اذن . . ان البعثات الاوربية في القرن التاسع عشر قد وجدت (في المسيحية والتجارة) وسيلة لنشر الحضارة وتوحيد القبائل مثل ما فعل الاسلام تماما بهذه المناطق . . . وهو امر يدلنا ولا شك على ان ملوكا مثل « ضياء كوسوى » وكانكم موسى . . قد استطاعوا ان يدركوا مدى أهمية الاسلام والتجارة في تدعيم ملكهم .

المهم ان هذه الشعوب (السونفهي) قد ازدادت قوة يوما بعد يوم وبدأ أبناءها يخرجون من حالتهم القبلية الى تنظيمات أكثر تعقيدا . . (بدأوا يدفعون الضرائب لامبراطورية مالي منذ سنة ١٣٢٥ لمدة خمسين سنة او تزيد وقد تعرضوا لغزوات قبائل « الموسى » السودانية . . والى غزوات الطوارق بالصحراء خلال القرن الرابع عشر وبرغم ذلك فقد استمرت دولتهم قائمة حتى جاء ملكهم « سني على » الى الحكم في سنة ١٤٦٤ وهو يعتبر ملكهم الثامن عشر منذ أسس « ضياء كوسوى » دولة سونفهي . . وقد جعل « سني على » هذا من دولة « سونفهي » أقوى دولة في السودان الغربي في ذلك الوقت . . فيما عدا دولة « بورنو » الى الشرق منها وقد استطاع « سني على » ان يمد سلطانه الى الممالك المجاورة . . فاستولى على تمبوكتو ودجينه من أيدي حكام امبراطورية ماندينجو (مالي) وجعلها ضمن دولته كما تمكن من السيطرة على أرجاء هذه الدولة بقوة . . لما كان يتمتع من

صفات الحاكم القوى الحذر الطموح .. الذى يعرف كيف يدبر أموره فى مملكة واسعة كهذه وقد خلفه على كرسي المملكة محمد اسكيا فى سنة ١٤٩٣ وهو الذى يعرف باسم « محمد تورى » أو ياسكيا العظيم .. وقد استمر حكمه تسعة عشر عاما دفع بحدود دولته فيها حتى مناطق « السيجو » فى الغرب .. والى المناطق شبه الصحراوية فى الشمال الشرقى أى الى أبعد مما استطاع كانكان موسى أن يحققه لدولة « مالى » الا أن من أعظم ما قام به محمد اسكيا من أعمال أنه طور النظام الادارى فى سونغهوى بحيث دفع الدولة دفعة قوية نحو الحكم المركزى القوى .. وقد ظلت هذه الدولة مزدهرة حتى دهمتها جيوش المراكشيين سنة ١٥٩١ بقيادة المنصور فاستولت على جاو وتمبوكتو وشتمت شمل جيوش سونغهوى التى كان يحكمها فى هذا الوقت « اسكيا اسحق » وحطمت ملكه ومع عام ١٦٠٠ كان من الواضح أن الأيام العظيمة للسودان الغربى .. قد انتهت .

٨ - الساو .. وكانيم :

لا يستند تاريخ غانا ومالى كل تاريخ السودان الغربى فى قرون التطور والنمو فقد ظهرت دول ومدن أخرى .. ومرت بالتحول نفسه من مجموعات قبلية الى قبائل عدة تجمعت وأصبحت بعد ذلك دولا تحكمها حكومات مركزية .. ثم تحولت بعد ذلك الى امبراطوريات .. لقد ظهرت شعوب أخرى كثيرة وقوية غير الماندينجو والسونغهوى .. استطاعت أن تحسن طرق معيشتها وأن تحقق آمال أسلافها ففي الوقت الذى أسس فيها « ضياء كوسوى » جاو عاصمة سونغهوى فى بداية القرن الحادى عشر .. ظهرت ولايات « الهوسا » فى شمال نيجيريا ... واتحدت هذه الولايات بعد ذلك فى دولة كبيرة هى « دولة كيبى » واستطاعت هذه الدولة بعد وصولها الى القوة أن تصمد أمام « محمد تورى » حتى بعد أن استولت جيوش سونغهوى على « كانيم » وبعد ذلك بمائتى عام .. استطاعت شعوب سودانية أخرى هى شعوب « الفولانية » أن تبسط سيطرتها على بلاد « الهوسا » والى الشرق كانت « كانيم » أكبر دولة نشأت فى منطقة المراعى بين النيجر والنيل .. ثم جاء بعدها يورنو التى عمرت أكثر من كل ولايات السودان الاخرى . وترجع أصولها فى التاريخ الى الفترة نفسها التى بدأت فيها سونغهوى . كما أنها تتداخل معها فى الشعوب المهاجرة . التى وصلت من الشرق ومن الشمال الشرقى .

وتقول الروايات ان الطرق القديمة من وادى النيل شهدت كثيرا من الهاربين من الحروب والغزوات بعد انهيار « كوش » وانتصار الأحباش فى « اكسوم » وقدوم العرب الى مصر .. ان موجات كبيرة من المهاجرين قد وصلت دفعة تلو أخرى الى منطقة بحيرة « تشاد » مكونة جميعا .. أساس امبراطورية كانيم التى بدأت مع بداية القرن الثامن الميلادى .. واستمرت حتى القرن السابع عشر ومع ظهور « ساو » فى المنطقة المجاورة لحدود بحيرة تشاد ، تنتهى الموجة الحضارية التى قدمت من وادى النيل وتبدأ حضارة جديدة .

وقد حاول البعض أن يفسر الأعمال التي حققتها الشعوب في قلب القارة الأفريقية بأنها لم تصدر عن شعوب أفريقية أصيلة .. وحاولوا أن يوحوا بأن شعوب « ساو » كانت ترجع إلى الهكسوس الذين غزوا مصر القديمة .. ولكن « ليبوف » نفى هذه الأسطورة وحدد تاريخ وصول الساو إلى بحيرة تشاد بمدة لا تزيد على القرن العاشر الميلادي على حين يؤيد « ايرفوي » وصولهم للمنطقة واستقرارهم على الشاطئ الشرقي للهجرة وفي منطقة السعاف شمال تشاد بالقرن الثامن الميلادي ومن القليل الذي تعرفه عن استقرار « الساو » شرقي وغربي بحيرة تشاد وعن ظهور دولة « كانيم » . تبعى ثغرة كبيرة .. هل يمكن انقول بأن شعوب الساو ، تمكنت من انشاء دولة في هذا الماضي البعيد على حين كانت تعاني من موجات الشعوب المهاجرة إلى أرضها ؟ .. ربما لم يتمكنوا من ذلك ولكن بفضل النظر عن هذه الشعوب المهاجرة فقد قدمت شعوب أخرى استطاعت في يوم ما أن تنشئ دولة « كانيم » . وأثبتت أنها تستطيع أن تكون ذات تأثير حضارى بعيد وهام في توحيد هذه الشعوب المختلفة شرقي حوض النيجر . كما فعلت « مالى » إلى انقرب منها وهنا أيضا كان الدافع نحو التركيز السياسي والعسكري .. فان حكام امبراطورية كانيم . القديمة التي قامت في القرن الثامن واستمرت حتى الثالث عشر . لتتبعها في حدود الامبراطورية نفسها حكومات مركزية أخرى ظلت قائمة حتى القرن السابع عشر .. هؤلاء الحكام استحدثوا نظاما جديدة في الحكم المركزي وفي أساليب الحرب والغزو .. وهنا تكمن العوامل التي ربطت بين انمو الحضارى المتصل واستخذام الحديد .. والاستفادة من التجارة الدولية .

وبالرغم من أنهم لم يكونوا يملكون مناجم الذهب مثل غانا ومالى .. إلا أنهم كانوا يسيطرون على القوافل المتجهة شمالا إلى فزان والبحر المتوسط .. وشرقا إلى حوض النيل .

ويرتبط تاريخ كانيم بحكم أسرة « سيفوا » التي قامت على أسس خاصة بها من الاقطاع القبلى .. حيث يتولى الحكم « مجلس عظيم » من اثني عشر عضوا من كبار ضباط الامبراطورية الذين كانوا يناقشون أمور الحكم ويبحثون بقراراتهم إلى السلطان .. ولم يكن هذا الأمر يبدو في البداية أكثر من « مجلس عائلى » ثم تطورت الأمور بعد ذلك .. ونشبت حروب بين الأسر المختلفة على « حقوقها » التي كانت تتمتع بها في وقت ما . كمنحة من السلطان .. ولكن .. بالرغم من هذه الحروب والمنازعات بين الجيران .. وبالرغم من الكوارث التي حلت بهم فقد ظلت شخصية كانيم . و « بورنو من بعدها » متميزة وثابتة حتى القرن السادس عشر والسابع عشر . ومازال بناؤها متماسكا من بعض الوجوه .. حتى يومنا هذا .

٩ - في دارفور :

يبدو أن امبراطورية كانيم القديمة قد وسعت حدودها تحت قيادة سلطانها «دوناماديالينمي» الذي حكم فيما بين عامي ١٢١٠ ، ١٢٢٤ . وذلك بعد توسع مضطرد استمر أكثر من خمسمائة سنة .. فانه يقال

ان « دوناما » هذا قد دفع حدود بلاده الى النيل الاوسط . . وبسط سلطانه على طرق التجارة شمالا الى فزان وعلى طرق التجارة التي كانت تصل دولة « مالى » وبقية دول السودان الغربى بالشرق الاوسط . . ثم بدأت الدولة فى الانهيار والتفكك حتى لم يعد هناك نظام يربطها . . فقد اندلعت فى عهد «دوناما» نفسه حرب أهلية نتيجة جشع أبناؤه الذين استقل بعضهم بالمناطق التي كانوا يحكمونها . واندلعت بينهم الحروب ولكن «دوناما» استطاع أن ينتصر فى النهاية لكى يسود الهدوء طيلة حكم سلطانه أو ثلاثة من بعده . ليظهر التنافس مرة أخرى وتندلع الحروب طيلة قرنين من الزمان هذا بالإضافة الى الحرب التي قامت نتيجة محاولة «الساو» الاستقرار حول بحيرة تشاد . . فقد أدت كل هذه الامور الى انهيار الامبراطورية القديمة والى تعرضها لغزوات شعوب « البولالا » التي بدأت من الربع الثالث من القرن الخامس عشر لكى تظهر الى الوجود امبراطورية «كانيم» جديدة . أو امبراطورية «بورنو» التي انبثقت عن سلطنة «بورنو» الى الشمال الشرقى من نيجيريا .

ومن العسير أن نحدد تاريخ هذه الفترة الذى يزخر بالروايات عن الصراع بين الأسر المختلفة . . الا أنه يمكننا على أية حال أن نستخلص أن الحياة فى هذه المنطقة ما بين النيل الاوسط ، والنيجر ، قد اعترتها اضطرابات وحوادث أثرت فى حياة الأهالى بالدرجة نفسها التي أثرت بها حرب «الوردتين» فى حياة الانجليز . . وان التجارة وتبادل الافكار لم ينقطعا برغم هذه الاحداث والاضطرابات . . فقد كانت قوافل التجارة تسير فى طريقها بين النيل والنيجر طيلة ثلاثة قرون قبل القرن السادس عشر وبعده أيضا ، وربما بين حوض النيجر والصومال وساحل المحيط الهندى . . فلم تؤثر فيها الحروب والمنازعات تأثيرا كبيرا . . والى الداخل من الداخل للمحيط الهندى كانت مملكة أو سلطنة «عدال» التي حطمتها الحروب مع جيرانها فى القرن السادس عشر . ولكنها كانت من القوة والغنى بحيث استطاعت أن تبني المدن التى لاتزال أسوارها قائمة حتى الآن . وكانت ثروة هذه السلطنة ترجع الى مآثره التجارة من أرباح لانها كانت تقع فى نهاية طريق طويل محفوف بالمصاعب عبر القارة الافريقية يودى غربا الى مملكة «بورنو» ومدن النيجر الشمالية . . ويربط المحيط الهندى بدولة مالى وسونغهوى والدول الاخرى الأقل شأنًا منهما فى السودان الغربى . . ولكن هل كانت كانيم ترتبط بالشمال الشرقى أى بحوض النيل الادنى والاوسط . . أى بمصر والشرق الادنى وسيناء ؟

للإجابة عن هذا السؤال يحسن بنا أن نلقى أضواء على الممالك المسيحية فى منتصف وادى النيل التي وجدت من الممالك التي كانت تتبع كوش ، وازدهرت فيها الصناعات الفنية . . ونمت القوة السياسية . .

هذه الممالك التي تحولت الى المسيحية فى القرن الثالث بفضل بعثات التبشير القادمة من شرق البحر المتوسط والتي استمر أبناؤها على مسيحياتهم حتى الفتح الاسلامى بعد ألف سنة تقريبا . . والتي تركت حضارتهم أثرا واضحا فى شرقى السودان يتجلى فى اللغة النوبية وفى بقايا قليلة لكنائس كانت هناك . . والى الغرب . . أو فى تلال دارفور . .

وفي هذه المنطقة شبه الصحراوية . . وفي منتصف الطريق الموصل بين النيل والنيجر ، تدلنا اطلال هناك على مدى الصلة بين الشرق والغرب من القارة الافريقية عبر قرون عدة . . سواء اكان تأثيرها مسيحيا أو اسلاميا .

وأهم هذه الاطلال هي اطلال مدينة «جبل أوري» ومقابرها . . وقاعة الاجتماعات التي تبدو فيها وكنيسة أودير لاتزال آثارها موجودة . . وقد بنيت هذه المدينة من الحجارة داخل سور يحيط بها لأبد وانه حوى عددا كبيرا من السكان عاشوا هناك فترة طويلة من الزمن ربما بلغت حوالي ثلاثة أو أربعة قرون . . ومن واقع ماعثر عليه من اطلال . . اتضح أن هذه الابنية كانت مبنية من الحجارة التي لاتتخلل قوالبها أية مادة من مواد «المونة» وأن بعض هذه الابنية لاتزال سليمة ، ويصل ارتفاعها الى نحو عشر أقدام أو اثنتى عشرة قدما . . ويعتقد البروفسور «آركل» أن مدينة «جبل أوري» هذه اما أن تكون مركزا يتبع امبراطورية «كانيم» فى ادارة دارفور أثناء التوسع الشامل لها تحت حكم «دوناما» فى القرن الثالث عشر ، أو أنها كانت عاصمة للبولالا وقت سيادتهم لهذه المنطقة فى القرن الرابع عشر أو الخامس عشر . . على أنه من الجدير بالذكر أن قيام هذه المدينة ورخاءها فى كلتا الحالتين انما يعود ولا شك الى نظام التجارة فى امبراطورية كانيم وهو أمر يثبت وجود الصلة التى تساءلنا عنها فى بداية هذا الجزء من الفصل . . الامر الذى يؤكد أن اهالى مدينة «جبل أوري» كانوا بمثابة وسطاء للتجارة التى كانت تعبر القارة بين النيجر والمحيط الهندي ، والشواهد كثيرة على أن قوافل التجارة كانت تمر فى هذا الطريق قادمة من الشرق الى الغرب أو بالعكس منذ عصور بعيدة . . وهنا يتبادر الى الازهان سؤال . . هل وصل الرواد المصريون بقيادة «حاركوف» أثناء حكم الأسرة السادسة الى تلال دارفور ؟ أن آركل يؤكد هذا الرأى . . فما زال «درب الأربعين» يربط حتى يومنا هذا بين دارفور ومصر العليا . . ثم ان هناك نقوشا هيروغليفية ترجع الى أصول مصرية قديمة ويرى آركل . . أن الاسرة المألقة فى ميرو ربما تكون قد هربت غربا بعد هزيمتها فى اكسوم وكونت مملكة فى دارفور بعد سقوط دولة كوش ولو أن هذا حدث فعلا ، فانه يكون قد حدث سنة ٣٥٠ ميلادية . . وبعد حوالى خمسمائة عام من هذا التاريخ أو قبل ذلك بكثير . . كان عمالقة الساو يصنعون البرونز والحديد على بعد ستمائة ميل الى الغرب . . أى فى التاريخ نفسه الذى يحدده بعض الباحثين لبداية امبراطورية الساو فهل من الممكن أن نقول أن هؤلاء الساو يرجعون بأصولهم التى نزلت من أرضها واستوطنت شواطئ بحيرة تشاذ الى مهاجرين من دارفور . . وربما كان بعضهم من ميرو .

الواقع أن هناك آراء كثيرة تحاول أن تثبت وجود صلة ما بين النيل والنيجر وسواء اكان هذا صحيحا أم لا . . فان آثار «جبل أوري» تذكرنا باختفاء ميرو . . وقيام دولة وسط الصحراء أثرت فى تاريخ أفريقيا فى العصر الوسيط . . وهى تعكس كثيرا من أوجه الشبه برغم بعد المسافة لكثير من حضارات المجتمعات الافريقية التى يمكن ارجاعها الى مانسميه بالعصر الحديدي فى أفريقيا .

والى الجنوب من «أورى» بنحو عشرين ميلا توجد اطلال شهيرة أخرى فى دارفور فى «عين فاره» وقد عثر الباحثون سنة ١٩٥٢ بعد التنقيب على آثار قصر ودير مسيحي نوبى . ولم يكن أحد يعتقد أن المسيحية قد بلغت الى نصف المسافة بين النيل والنيجر . أو أن الممالك النوبية بسطت سلطانها غربا الى هذه المسافة كما تم العثور أيضا على آثار مسجد وعلى كنيسة تحولت فيما بعد الى مسجد .

ولقد كان الاعتقاد السائد من قبل أن بناء آثار - عين فاره - كانوا من دولة كانيم أو بورنو على حين تدل الآثار المسيحية المكتشفة على أن المسيحية قد وصلت الى أماكن لم تبلغها من قبل ، وأن أصحاب هذه الآثار قد اتبعوا فى بنائها نمطا مسيحيا نوبيا كان شائعا فى النيل الاوسط . ويبدو ذلك أيضا فى اختيار مواقعها على قمم التلال . ولقد خضعت المسيحية النوبية للإسلام فى القرن الرابع عشر والخامس عشر . ولقيت مراكز المسيحية المتقدمة فى دارفور المصير نفسه . ومن ثم تحولت الكنائس الى مساجد . والآديرة الى قصور أو مراكز للحكام ، وذلك على يد أحد سلاطين بورنو . ربما كان السلطان « ادريس الوما » أو غيره الذى حكم الامبراطورية الجديدة «لكانم» وبورنو (١٥٧١-١٦٠٣) ومهما يكن الأمر فقد أصبحت دارفور مملكة مستقلة بعد موت السلطان ادريس ، وأتى من بعده سلاطين من أسرة «كير» من شعوب الفور التى تقطن دارفور . وقاموا ببناء القصور والمساجد واستمر حكمهم حتى ١٩١٦ .

هذه خلاصة للحضارات الافريقية الاصلية فى السودان الغربى فى العصور القديمة من التاريخ . بيد أن هذه الحضارات قد أصابها الانحلال ثم اندثرت وهذا هو الفرق بين أفريقيا أو أوروبا فى القرون التى تلت ذلك . وفى فترة التطور الصناعى التى عمت أوروبا وأوصلتها الى ما همى عليه الآن ، شهدت أفريقيا بداية انحلالها وانكماش حضاراتها . ولو أن حضاراتها كانت قد استمرت لكنت قد تطورت لتصبح حضارات افريقية جديدة أكثر تقدما .

١٠ - نكسة وبقاء :

لماذا ظلت هذه الحضارات الافريقية القديمة على المستوى نفسه الذى وصلت اليه ولم تتطور الى مستوى آخر حديث مع تطور التاريخ .

هناك جانب من الرد على هذا السؤال واضح كل الوضوح . فمن قبيل المصادقات الحسنة أن لدينا ما كتبه «ليو الافريقى» المولود فى غرناطة باسبانيا حول سونفهيى وبعض دول السودان الغربى الأخرى فى السنة نفسها التى هزم فيها أسكيا العظيم خليفة «سنى على» فليو الافريقى يعتبر فى هذا الصدد شاهد عيان على درجة كبيرة من الثقافة حصل عليها من مدارس ومكتبات «فز» وقد قام ليو الافريقى هذا برحلات عدة فى المغرب والسودان الغربى . وقد أسره القراصنة المسيحيون فى سنة ١٥١٨ حينما كان فى طريقه من استانبول الى تونس وبدلا من أن يبيعه ضمن الأسرى

من البربر في موانئ إيطاليا أخذوه إلى روما حيث قدموه إلى البابا ليو العاشر ابن «لورنزو» مديشي» وأحد أبناء أسرة المريتشي الشهيرة بعلاقاتها بالشئون التجارية العالمية وبالحكومة «فلورنس» .

ولقد كانت رغبة أغنياء وتجار أوروبا في ذلك الوقت عارمة في معرفة ما يجري في قلب القارة الأفريقية فيما وراء الحواجز الإسلامية في شمالي أفريقيا . ومن ثم وجد البابا ليو العاشر . . بغيته في ليو الأفريقي الذي تنصر فيما بعد تحت اسم «جيوفاثي ليوني» والذي أخرج كتاباً عن أفريقيا أتمه سنة ١٥٢٥ وطبعة «رامبوزو» لأول مرة سنة ١٥٦٣ وظهرت أول طبعة له بالإنجليزية سنة ١٦٠٠ وقد تحدث ليو الأفريقي عن المجتمعات الأفريقية المتحضرة ومراكز التجارة المزدهرة فوصفها مثلاً بأنها أعجوبة الإعاجيب بما فيها من بضائع تجلب إليها كل يوم . وعن الذهب الذي يفيض على حاجة الأسواق هناك . . وقد أثارت هذه الملاحظات أوروبا كلها . ولكن بربر شمالي أفريقيا . . كانوا أشد اهتماماً بها . . ومن ثم بدأت جيوشهم تزحف نحو الجنوب لكي تقضي على «اسكيا العظيم» أو «محمد توري» سنة ١٥٢٩ وفي سنة ١٥٨٥ استطاع مولاى المنصور سلطان مراکش أن ينتزع مصادر الملح في «تغازا» من أيدي دولة سونفهي ومن ثم خطا الخطوة الأولى نحو مصادر الذهب السودانية التي كان المراكشيون يعتقدون إمكان الاستحواذ عليها تماماً كما اعتقدت دولة المرابطين قبلهم بزمان طويل . . وبعد سنوات قليلة غزا المراكشيون دولة سونفهي نفسها . . حيث استطاعوا القضاء عليها بقوة مراكشية اخترقت الصحراء تحت قيادة قائد إسباني يدعى «جودار» استطاع أن يتغلب بأسلحته النارية الحديثة على جيوش سونفهي التي تفوق قواته عدداً ولكنها لا تملك مثل هذه الأسلحة النارية ومن ثم سقطت سونفهي واستطاع جودار أن يحتل تمبكتو وجاوه .

وعندما عاد جودار هذا - أو جودار باشا كما يعرفه التاريخ - بثلاثين جملاً محملة بالتبر تبلغ قيمة حمولتها كما يقول جاسياري تومسون سنة ١٥٩٩ (٦٠٤٨٠٠ جنيه) كما عاد بحمولات ضخمة من الفلفل وقرون التوابل بأشكال متنوعة من خشب الصبغة على أظهر مائة وعشرين جملاً أهداها كلها للملك مع خمسين حصاناً وأعداد كبيرة من الخصى والأقزام والعبيد من الرجال والنساء وخمس عشرة عذراء . . هن بنات ملك «جاو» لكي يصيبن عشيقات الملك . . وقد قيل أن غزو سونفهي قد كلف المراكشيين ثلاثة وعشرين ألف قتيل . . وبزعم انتصارهم في النهاية فإنهم لم يستطيعوا أن يضعوا أيديهم على مصادر الذهب التي كانوا يتطلعون إليها ووجدوا كما وجد غيرهم في أجزاء أخرى من أفريقيا أن الذهب كان يختفي مع كل غزو . . وبعد خمس وعشرين سنة من المتاعب تخلى السلطان مولاى زيدان «عن سونفهي» ومنذ ذلك الغزو المراكشي لهذه الدولة من دول السودان الغربي . . تغير كل شيء وانهارت التجارة . . وحل الخطر محل الأمن والفقر محل الغنى . . والتعاسة محل السلام . . وبقيت ولاية واحدة من دول سونفهي مصرة على الاحتفاظ باستقلالها . . وهي ولاية «انزورو» على الضفة اليسرى من النيجر . حتى بدأت أوروبا

ندخل الى الميدان ٠٠ ففي سنة ١٨٨٤ هاجمت فرنسا النيجر من الغرب واستولت على « تمبوكتو » سنة ١٨٩٤ على « جا » سنة ١٨٩٨ وتغلبت سنة ١٩٠٠ على الطوارق الذين كانوا قد استولوا على بعض اجزاء دولة سونغهوى السابقة ٠٠ وفي نهاية المطاف ٠٠ اى فى سنة ١٩٥٩ ٠ بدأ السودان الغربى الذى كان جزء منه يعرف باسم افريقية الغربية الفرنسية ٠٠ يتهيا لوضع سياسى جديد ٠٠ وبعد ٨٥٠ عاما من الاستعمار والاستعباد ٠٠ بدأ هذا الاقليم الواسع يستعد لحياة جديدة ٠

وخلاصة القول ان الغزوات المراكشية تفسر الى حد بعيد كسوف شمس السودان الغربى ٠٠ على أن هناك أسبابا أخرى لهذا الكسوف ٠٠ منها انهيار هذه الحضارة المراكشية نفسها فى بداية القرن السابع عشر وعزل القوى العربية وقوى السودان الغربى عن العالم الذى تلا العصور الوسطى فى أوروبا العالم المزود بالتقدم التكتيكي السائر فى طريق الثورة الصناعية ٠٠ ومنها أيضا الاكتشافات البحرية التى قام بها البرتغاليون والاسبانيون والايطياليون التى فتحت طرقا بحرية جديدة للتجارة ٠٠ أدت الى اضعاف أهمية الطرق التجارية القديمة فى القارة الافريقية ٠٠ فقد عاد سير فرانسيس دريك ٠ مثلا من رحلة حول العالم ٠٠ ومعه أكثر من مليون ونصف مليون من الجنيهات مما أطفا يريق ذهب السودان وشهرته ٠٠ على أن هناك الى جانب هذا كله أسبابا تتعلق بالبشر انفسهم فى هذه المنطقة من العالم ٠٠ وتفسح الحياة الاجتماعية بينهم فلم يكن مجتمع السودان الغربى على أية حال مجتمعا مثاليا يقول هينريش بارث فى وصفه لهذا المجتمع ٠٠ أن فرعا على جانب كبير من الأهمية فى ميدان التجارة بمدينة «كانو» فى نيجيريا كان تجارة العبيد ولا أعتقد أن عدد العبيد الذين يصدرون من «كانو» كل عام يمكن أن يقل بحال من الاحوال عن خمسة آلاف عبد كل عام ٠٠ هذا الى جانب عدد آخر كبير يباع داخل البلاد نفسها ٠

الفصل الرابع

بين النيجر والكونغو

١ - ماوراء السفانا :

ترى ما الذى كان يحدث فى هذه الحقبة من التاريخ فى الاراضى التى تقع وراء حافة الغابات .

لقد كان هذا بمثابة حاجز أخضر ضخيم أمام شعوب السفانا كما كانت الصحراء فى الشمال . وكان الاتجار مع أهالى الغابات يتركز فى تجارة الذهب والعييد وثمار الكولا . ولكن لم تستطع شعوب السفانا أن تنفذ خلال هذه الغابات حتى كان موسى أو «أسكيا العظيم» أو أدريس ألوما . . . هم يتمكنوا من التوغل هناك لمسافات بعيدة على حين كانت التجارة وبعثات الاسلام لا تفتأ تفتح لنفسها طريقا هناك ومجالا للعمل . . . غير أن موجات الهجرة الاولى تمكنت من التوغل جنوبا إلى ماوراء حاجز الغابات حتى أن كثيرا من شعوب غرب أفريقيا الاستوائية تعتقد أن أصولهم ترجع إلى الشمال والشمالي الشرقي . . . فشعوب آكان فى غينيا الحالية تعتقد أن أجدادها قدموا من الشمال فى القرن الحادى عشر . . . وتبدأ قائمة ملوكهم فى نهاية القرن الثالث عشر عند تأسيس عاصمتهم القديمة بونومانسو التى تقع اطلالها شمالى كوماسى فى بلاد أشانتى بنحو مائة ميل . . . ومن الواضح أن هذه الشعوب القوية النشيطة على حافة الغابات لم تتكون فقط نتيجة الهجرة من الشمال . . . لقد أخذت هذه الشعوب حقا كثيرا من الشمال . . . واستقبلت هذه الاماكن كثيرين من الوافدين من هناك . . . ولكن هؤلاء الوافدين لم يعكسوا اشكال الحضارة السودانية الغربية أو أنماطها بأكثر مما عكست الحضارة السودانية اشكال وأنماط حضارات شمالى أفريقيا . . . أو حضارة كوش التى كانت لها بهم صلات مختلفة كما أسلفنا . . . لقد أخذوا فنونهم وآراءهم من الشمال ولكنهم أعادوا نسجها كى تلائم ظروفهم .

وإذا نحن بحثنا فى تاريخ الحزام المحيط بالغابات وفى تاريخ شعوبه المختلفة فلن نجد ما يعيننا فى بحثنا هذا بين كتابات المؤلفين العرب فى العصور الوسطى . . . كعلماء تمبوكتوودجيني .

ولكن ظهرت وثائق من مصدر آخر فى منتصف القرن الخامس عشر وفى سنة ١٤٧٥ ارتاد القواد البرتغاليون الساحل حتى «بنين» ، وبيافرا

على الساحل الغربي والجنوبي الغربي لأفريقيا ٠٠ ويسدو أن روى ده سكورا البرتغالي قد نزل على شاطئ بنين سنة ١٤٧٢ . ولكن يبدو أن التاريخ المدون لنزول الاوربيين في هذه المنطقة يزخر بقصص عن الاوربيين أنفسهم أكثر مما يحكي قصة الافريقين ٠ فقد كان أكثر هؤلاء الاوربيين من القراصنة ولم يتصلوا كثيرا بالداخل ٠ فقد كان اهتمامهم محصورا في الحصول على الذهب والعبيد والغفل وكل مايملا خزائن ملوكهم في غرب أوروبا ٠ وأنشأوا محطات تجارية وقلاعاً لحماية تجارتهم ٠

ومن المفارقات أن رئيس وزراء غانا يعيش اليوم في إحدى هذه القلاع ٠ وحتى البعثات المسيحية التبشيرية لم تضيف إلى معلوماتنا كثيرا في هذا الصدد ٠ وقد تظهر لنا الايام القليلة القادمة مزيدا من المعلومات في هذا الميدان حيث أن الغاتيكان (حتى كتابة هذه السطور) يقوم بطبع أكثر من خمس عشر ألف وثيقة مكتوبة لم تنشر من قبل جمعت من مكتبات جاو ولشبونة ٠

٢ - الاضطراب العظيم :

فاقت تجارة العبيد كل ماعرف من قبل في مدى تأثيرها سواء خارج القارة أو النابع من الدول الافريقية نفسها خلال عصر الاقطاع واستخدام الحديد ٠ فقد كانت هذه التجارة استنزافا لحيوية الشعب وكانت تختلف اختلافا تاما عن مجرد اخضاع شعوب مغلوبة على أمرها ٠ حتى انها كانت أسوأ تأثيرا من الموت الاسود الذي يقال أنه قضى على ثلث سكان أوروبا ٠ ذلك لأن تجارة العبيد امتدت آثارها فشملت النواحي الاجتماعية وحطت من قدر الحياة الانسانية نفسها بالنسبة للافريقين وللأوربيين الذين تعاملوا بها ٠

وقد بدأ طلب أوروبا للعبيد يتزايد منذ عام ١٤٤٤ حين وصلت شحنة منهم من شمالي السنغال الى لشبونة واستمر الطلب عدة مئات من السنين بعد ذلك على حين كان البرتغاليون وغيرهم يتنافسون في ميدان هسله التجارة حتى قيل أن عدد العبيد الزوج الذين اختطفوا من أفريقيا فاق عدد سكان البرازيل بأكملهم ٠ غير أن الاقبال على شراء العبيد كان أشد كثيرا في البرازيل ومنطقة البحر الكاريبي ٠ فقد امتصت هذه المناطق أكبر جانب من هذه التجارة ٠ وقد جلب تجار العبيد من أفريقية اعدادا بالملايين مات الكثير منهم نتيجة الحروب أو أثناء شحنهم على ظهر السفن ٠

وقد قدر مؤرخ برتغالي أخيرا أن نحو ١٣٨٩٠٠٠ عبد قد تم جلبهم من ساحل انجولا وحدها ما بين سنة ١٤٨٦ وسنة ١٦٤١ بمعنى أن نحو ١٠٠٠٠٠ من تسعة آلاف عبد في السنة الواحدة كانوا يختطفون من منطقة لم تكن قط كثيفة السكان ٠ وقد ورد في تقرير للملك فيليب الاول لعدد العبيد الذين أخذوا من انجولا ونقلوا الى البرازيل ما بين سنوات ١٥٧٥ - ١٥٩١ بأنهم ٥٣٠٥٣ بمعدل ألفي عبد كل عام ٠ وقدر كادورينجا العدد الكلي للعبيد الذين نقلوا الى البرازيل وأكثرهم من انجولا وموزمبيق بين عامي ١٥٨٠ ، ١٦٨٠ بحوالى مليون ، بمعدل عشرة آلاف كل عام ويبدو

انه حين تتوافر المعلومات فى هذا الصدد فسوف ترتفع الارقام كثيرا عن ذلك .

ويجدر بنا أن نلاحظ أن أكثر هذه الاعداد وردت من انجولا وموزمبيق فقط .

ونعيد تقارير ليفربول بعد ذلك بقرن ففى خلال احدى عشرة سنة من سنة ١٧٨٣ الى سنة ١٧٩٣ قامت من ليفربول نحو حوالى ٩٠٠ رحلة بحرية لتجارة العبيد حملت أكثر من ٣٠٠٠٠٠٠ عبد وكانت تبلغ قيمتهم فى هذه الايام ١٥٠٠٠٠٠٠٠ مليون جنيه ، وبلغ مافى هذه الرحلات التسعمائة ١٢٠٠٠٠٠٠٠ مليون جنيه بمعدل مليون جنيه كل عام . ولم يشك «بارث» فى كتاباته فى منتصف القرن التاسع عشر من تجارة العبيد داخل السودان الغربى والتى كان مركزها «كانسو» بنيجريا ، ولكنه شكأ أيضا من تجارة العبيد على ظهر سفن أمريكية ، فى خليج « بنين » وهكذا بلغت تجارة العبيد حتى أنه ساد الاعتقاد أحيانا بصعوبة القضاء عليها .

وبينما كانت حروب العبيد مستمرة أصبح التجار أكثر جشعا وأصبح انحلال الافريقيين موازيا لفهم الاوربيين فى الحصول على العبيد ولقد كانت تقوم ثورات وحشية مفاجئة يائسة بين السود للتخلص من هذه العبودية ولكنها كانت تزيد من بؤسهم وتؤدى الى مزيد من سفك الدماء .

وقد جاء فى تقرير سنة ١٧٨٨ (أن المشقة التى يتحملها العبيد تدفع بهم الى اليأس فيتلتمسون أى وسيلة للهروب من وجه غاصبيهم . فيحدث العصيان وتراق الدماء وأحيانا كانت تنجح مثل هذه المحاولات فيحصل عبيد السفينة على حريتهم وكثيرا ماكان العبيد يلجأون الى أعمال يائسة ليتخلصوا من حياتهم البائسة . بل ان ثورة العبيد قد امتدت الى الأمريكيين فناروا فى سان دمنجو ، وكانت هذه واحدة من ثوراتهم التى حررتهم فى البحر الكاريبى واراض أمريكا نفسها . ولقد كان مألوفاً أن يتمكن تجار العبيد من افساد بعض زعماء القبائل على الساحل واقناعهم بمعاونتهم فى بيع العبيد لهم بالجملة .

ولم يكن هذا العمل الا مرحلة تلت بيعهم للعبيد داخل البلاد نفسها كل هذا كان يحدث وللأساقفة الاوربيون فى هذه الاماكن يجلسون فى أبراجهم العاجية على رصيف الميناء فى لواندا بأنجولا يمدون أيديهم الرحيمة . لتعميد العبيد بالآلاف وهم يساقون مكبلين بالاغلال فى طريقهم الى البرازيل .

ونخطئ خطأ بالغا اذا نحن اعتقدنا أن المجتمع الافريقى تحمل قرونا من هذه التجارة الجشعة فى طاعة عمياء . أو كما يقول البعض أن المجتمع الافريقى كان منحطاً بطبيعته . ذلك أن هذا المجتمع كان مجتمعاً مسالماً كريماً لطيف المعشر . ثم أُلقت به الاقدار الى الموت والرعب . فكان

الاقوياء منهم يشورون وكان الضعفاء يستسلمون لمصائرهم .. وان لم يكن فى استسلامهم هذا معنى للقبول والرضا بأى حال من الاحوال .

ويمكن أن نتصور مدى التفكك الذى أصاب أفريقية نتيجة لاصطياد العبيد بالجملة .. ومدى الخراب الذى لحق المجتمع الافريقى وقضى على كل المعانى الطيبة فى أرض هذه القارة .. اذا نحن بحثنا أيضا حالة المجتمعات الافريقية التى أصابتها لعنة الاتجار فى العبيد بالجملة .

كتب «ايهلى» عن الكونغو يقول : انحلت الروابط الاجتماعية وتحطم البناء كله .. لقد كانت تجارة العبيد قائمة فى الكونغو قبل مجيء الرجل الابيض اليها وكانت تكون جزءا من الاطار الاجتماعى هناك ، ولكن بعد نمو هذه التجارة تحول امتلاك العبيد الى عملية صيد متوحشة .. وما يقال عن الكونغو يمكن أن ينطبق على أماكن أخرى فى أفريقية .. ومن ثم نستطيع أن ندرك مدى الخراب والانهيار الذى أصاب بعض مناطق أفريقية التى تعرضت للعنة تجارة العبيد .. بمقارنتها بمناطق أفريقية أخرى لم تتعرض لهذه اللعنة .. او بمقارنة الروايات الأوروبية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر .. عندما كانت هذه التجارة فى بدايتها بالروايات الأوروبية نفسها بعد حوالى ثلثمائة أو اربعمائة سنة .

عندما دخل البريطانيون بحبوسهم الى بنين سنة ١٨٩٧ كتب قائدهم الكوماندر بيكون يقول : ان وصف مدينة بنين بأنها مدينة الدماء وصف ينطبق عليها كل الانطباق ، فتاريخها ليس الا سفرا ضحكا لعبودية هى أشجع أنواع العبودية .. كانت الدماء فى كل مكان وعلى يمين مقر الملك كانت هناك شجرة تستخدم فى الصلب ربط عليها اثنان من الضحايا وجهاهما الى الناحية الغربية وأيديهما مقيدة من الوسط . وتحت هذه الشجرة انتشرت جماجم وعظام بشرية تدل على آثار ضحايا آخرين . وعلى طول الطريق الرئيسى كانت هناك آثار ضحايا بشرية أخرى .

وربما يظن القارئ عندما يقرأ هذه الروايات أن لعنة تجارة العبيد انما ترجع الى الافريقين أنفسهم . فقد دأب الاستعمار الاوروبى على أن يثبت ذلك فى أذهان الافريقين وأن يشعرهم بالذنب تجاه هذه المأساة ولكن الحق يقال أن الذنب ليس ذنب الافريقين وحدهم فليسوا هم الذين بدأوا المأساة وانما بدأها ناس غرباء عنهم . ويزيد من عمق المأساة ما نقرؤه فى كتابات الكثيرين من الاوربيين الذين كتبوا عن مشاهداتهم فى هذه المناطق - يقول باشيكو فى نهاية القرن الخامس عشر : لقد كنت هناك أربع مرات وكنا نبتاع العبيد فى مقابل اثنى عشرة أو خمس عشرة قطعة من الأساور النحاسية لكل عبد . وبرغم كل هذه الروايات فقد كانت هناك دول يسودها النظام مثل دولة بنين . ففي سنة ١٤٨٦ قام «أفونسو دافيريو» برحلة قصيرة للتجارة فى بلاد بنين لصالح ملك البرتغال ومات هناك ولكنه استطاع قبل موته أن يبعث بحمولة من الفلفل كانت أول حمولة من نوعها تصل الى أوروبا من ساحل غينيا ويقول تقرير بورتغالى وقد أرسلت منها عينات الى الفلاندرز وأماكن أخرى فى أوروبا فليقت اقبالا كبيرا وبيعت بأسعار مرتفعة .

وفي هذا الوقت نفسه أرسل ملك بنين سفيرا الى البرتغال
لانه كان يرغب في معرفة المزيد عن هذه الارض التي كان يرى في وصول
بعض أبنائها الى بلاده شيئا فريدا في نوعه . وعندما عاد هذا السفير الى
بنين أحضر معه هدايا من ملك البرتغال هي عدد من المبشرين الكاثوليك
ووكلاء جدد لملك البرتغال كان عليهم أن يبقوا في بنين لنقل الفلفل وغير
ذلك من الاشياء . . وكانت تجارة العبيد لاتزال على قدر ضئيل من
الأهمية .

ويتحدث تقرير برتغالي عن نجاح هؤلاء الوكلاء والمبشرين في بنين
فيقول : في سنة ١٥١٦ على لسان ديواراتي بيرس عن هؤلاء الوكلاء أن
ماحوظنا به ملك بنين من رعاية انما يعود الى حبه لجلالتكم وكل أرضه
مفتوحة أمامنا . ومن واقع التقرير نجد نموذجا للمسألة الافريقية
والكرم وحسن الضيافة الذي أضفاه ملك بنين الافريقي على الوكلاء
والمبشرين البرتغاليين لدرجة أنه وهب أبناءه وكثيرا من نبلاء مملكته
للكنيسة المسيحية وأمر ببناء كنيسة في بنين .

ومن الاهمية بمكان أن نقول أن هذه الروايات جميعا تبين أنه كانت
هناك قوى قبلية كثيرة في هذه المناطق يتحد بعضها مع بعض بصورة
ما وتشغل بصناعة المعادن وعلى قدر من الادراك الديني . ففي ممالك
الكونغو استطاع الاوروبيون أن يقنعوا كثيرا من الملوك باعتناق المسيحية
باغرائهم ببعض الألقاب التي لايمكن أن تضيف عليهم شيئا حقيقيا من
النبله بمثل ماتمله بالنسبة للأوروبيين . .

أما بالنسبة للتعميد فقد آمنت هذه الشعوب الافريقية دائما بقوة
البيئة الواحدة تحكم مصائر العالم . . فلم يكن «الاله المسيحي» من هذه
الناحية يختلف كثيرا عن الهمم :

وكان نظام هذه الشعوب في عمومها اقطاعيا . . الا أنه كان في
الحقيقة والجوهر قبليا ولم يكن معنى ذلك أنه كان بدائيا . . ويجدر بنا
ألا نخلط بين المجتمعات القبلية التي لاتزال تعيش في أفريقيا حتى اليوم
- ونعني البدائية من الناحية التكنولوجية - بالمجتمعات الافريقية القديمة
التي وصل اليها البرتغاليون وكانت قد تطورت في عصر حديدى وكونت
لنفسها تنظيمات اجتماعية وشقت طريقها الخاص بها نحو التطور . . ولا
تعنى كلمة «البدائية» بالنسبة لهم أكثر مما كانت تعنيه هذه الكلمة
بالنسبة لاوروبا في هذا الزمن .

٣ - بنين :

عندما عادت بعثة الكشف في بنين سنة ١٨٩٧ أحضرت معها كثيرا
من الآثار الغريبة والطريفة « عدة مئات من التماثيل البرونزية تكاد تكون
مصرية في تصميمها » وقد تم لعثور بعد ذلك على كثير من هذه الآثار . .
عشر عليها العالم الالمانى ليو فريبنوس ونسبها الى تراث القارة المفقودة
اتلاتيس في حين أن بعض الاوروبيين كان يعتقد أن لها صلة بتراث الاغريق
أو التراث الاوربي الذي وصل مع الاوروبيين الاوائل الذين قدموا الى بنين .

وقد نسبها آخرون لعصر النهضة فى أوربا أو تأثيرات برتغالية . ولكن اكتشافات ١٩٣٨ ، ١٩٣٩ والاكتشافات التى لا تزال تجرى حتى اليوم أيدت جميعها ان هذه الآثار افريقية خالصه تم صنعها بين القرنين الثالث عشر والثامن عشر وهى نتاج عصر ناتج لصناعة الحديد فى دول افريقية الغربية قبل قدوم الأوربيين . . . وقد اكتشفت بعثة جودوين (سنة ١٩٥٧) انواعا كثيرة من الآنية الفخارية وعثر ويلييت فى السهه نفسها على نحو ثلاثين ألف قطعه فخارية فى موقع بالقرب من يوروبا « ولكن دراستها لم تتم بعد حتى نستطيع أن نستخلص أساليب الحياة التى كانت سائدة فى وقت صنعها . . . ويبدو أن المجتمعات التى تعيش الآن فى نيجيريا الجنوبية والتي تتميز بغناها وعقائدها تقف فى منتصف الطريق بين تأثيرات افريقيا الغربية وتأثيرات أخرى قادمة من الشمال والشرق . . . ولقد كان الاعتقاد سائدا بأن هذه الآثار والاعمال الفنية ليست الا شيئا عارضا ، ولكن يبدو الآن خطأ هذا الرأى . . . وتأكيد أنها كانت نتيجة للتقدم الحضارى فى هذه المناطق . . . وأيد هذا الرأى اكتشافات برنارد فاج فى هذه المناطق فى ابيرى التى تبعد عشرة أميال عن آيف حيث عثر على رهوس من الفخار على جانب كبير من دقة الصنع . . . بيد أننا لا نعرف الكثير حتى الآن عن الروابط - أن وجدت - بين فن نوك وفن « جفى » كما أننا لا نعرف الكثير عن التأثيرات الخارجية الأخرى . . .

ويقول شعب يوروبا . . . وما يجاوره من الشعوب الزنجية ان أسلافهم قدموا من الشرق . . . بل أن بيوباكو يعتقد انهم قدموا من منطقة كانت تحت تأثير المصريين القدماء . . . أو من شعوب فى الشرق الأدنى . . . وحدد هجراتهم من هناك بأنها حدثت بين عامى ٦٠٠ ، ١٠٠٠ بعد الميلاد .

والحق يقال انه لا يمكن أن نفعل التأثير الشرقى فى حضارة يوروبا . . . فقد كتب أحد البحارة البرتغاليين سنة ١٥٤٠ عن ساحل غينيا . . . وبوجه خاص عن بنين والكونغو فقال « ان الرعايا يعبدون ملوكهم ويعتقدون انهم جاءوا من السماء . . . وهم يعبدون الشمس ويعتقدون أن الارواح خالدة وانها تعود الى الشمس بعد الموت » وبالرغم من أن آلهة المصريين القدماء وآلهه كوش كانت تتعرض للتغيير فى افريقية القديمة جنوبى النيل وغريبه الا أن أصداء الملكية الكوشية الالهية تبدو واضحة هنا وضوحا كافيا .

يضاف الى ذلك ان اله يوروبا القومى ويسمى شانجو كان يرتدى قناع الكبش وهذا يذكرنا بأصل مصرى أو كوشى قديم .

ولا نستطيع أن ننكر ان الفن فى آيف « وبنين » كما هو فى مراكز الحضارة المبكرة فى افريقيا - كان يستخدم البرونز والنحاس بكثرة - وبوسائل كانت تستخدم فى وادى النيل . . . وتبدو هذه الآثار المكتشفة بكامل رونقها كما لو كانت قد استوردت فجأة . . . الا أنه يبدو أن فن آيف قد وصل الى قمته فى القرن الثالث عشر بعد ألف سنه من انهيار ميرو . . . وبذلك يرجع الغموض فى تفسيرها الى عدم اكتشاف آثار أخرى سابقة عليها . . . وقد كانت هذه الفنون - كما كانت مجتمعاتها - قادرة ومعقدة ولها تراثها الخاص الذى نما وتطور مع حضارة عصر الحديد فى هذه الاراضى التى تقع بعد الغابات . . . وبعد الاطراف الجنوبية لسهول

السفانا ٠٠ ورغم ان لها مكانتها المتميزة ٠٠ الا انه لا يمكن فصلها عن أصولها التي رعتها في البداية ٠

٤ - الوحدة خلف التفرق :

ما زلنا في بدايه محاولتنا لتفهم ما تعنيه حضارة « نوك » فمن سنوات قلائل فقط بدأت الابحاث عن شعوب ساو في منطقته بحيرة تشاد وقد تم العثور على انقناع الذهبى الشهير لأحد ملوك الاشانتى وهو الموجود حاليا بلندن ضمن مجموعة والاس ٠٠ وهذا القناع ليس الا نموذجا آخر لصناعة معدنية غاية فى الدقه لابد أنها تنتمى الى تراث حضارى متنوع وقوى ٠ واذا أضفنا الى هذا القناع أقنعة أخرى عثر عليها فى بادولى وصناعات الخشب المحفور فى افريقيه الاستوائية والصناعات الخشبية والمعدنية فى بامبارا بأعلى النيجر أدركنا أنها جميعا نتاج أفريقى يعكس طبيعة الحياة التى يعيش فيها هذا الفن والذى يجعل من هذه الاماكن عالما خاصا بأصحابها ٠

صحيح أن أصحاب هذه الآثار الفنية استخدموا كثيرا من فنون غيرهم ولكن الصحيح أيضا انهم استحدثوا جانبيا كبيرا من هذه الفنون فكثير من آثار نوك تكشف عن اصالة افريقية خالصة لا دخل فيها لآتى تأثير أجنبى ٠ نذكر منها على سبيل المثال الرأس الغريب الذى عثر عليه فى « جما » وصور سناو وكوتوكو وصورة الرجل والمرأة الجالسين والمرسومة على الصخور فى « سفار » بجبال تاسيلي والتى يعود تاريخها الى زمن بعيد جدا قبل أن يظهر الى الوجود أول ملك مصرى قديم ٠

على أن هناك كثيرا من العادات التى كانت سائدة فى هذه المنطقة نرى مثلها فى مناطق أخرى من اتقارة الإفريقية ٠ وان كنا لا نستطيع بحال من الاحوال أن نعرف أصل هذه العادات ولا طريقة انتقالها اذا كانت قد انتقلت ٠ فهناك مثلا ذلك الشعاع المميز على الجبهة والذى يعتبره أهالى شمال أثيوبيا علامة على النبالة ٠ هذا التقليد نفسه نراه فى شعوب آيف وبنين ٠ وهنا نتساءل هل سار كل من الشعبين على هذا التقليد دون أن يتأثر بالآخر ؟ أو أن هذا التقليد انتقل الى كلا الشعبين عن طريق ملوك مرو ، هذا سؤال لا يمكن الاجابة عنه بصورة مؤكدة ٠ وان كان هذا فلا يعنى بحال من الاحوال أن حضارة نوك كانت حضارة غير أصيلة ٠

الفصل الخامس

نحو الجنوب

١ - زنج الجنوب

في سنة ٩١٢ أخذ البحارة العمانيون الذين كانوا يبحرون في « الامواج العمياء » لبحار شرق افريقيا في القرون الوسطى ٠٠ أخذوا معهم مسافرا على قدر كبير من الاهمية كانت رحلاته المتعددة في هذه المنطقة من البحار ، حيث الخلجان العميقة بين الجبال الشاهقة ، رحلات ذات صدى بعيد في هذه الايام .

سافر هذا الرجل مع العمانيين على طول الساحل الشرقي لافريقيا . . وربما سافر على ظهر سفينة من سفن التجارة الى مدغشقر . ثم عاد مرة أخرى الى عمان آخذاً الطريق نفسه الذي سلكه في سفره بعد ثلاثة أعوام من بدء رحلته . . ولكنه قام برحلات أخرى متعددة قبل أن يستقر به المقام في الفسطاط (القاهرة القديمة) ليضع كتبه الشهيرة التي كتب آخرها سنة ٩٥٥ ثم توفي بعد ذلك بسنة واحدة . . هذا الرجل هو عبد المحسن بن حسين بن علي المسعودي . . الذي يعتبر بحق أشهر رحالة في عالم القرون الوسطى . . والذي قال عنه ابن خلدون بعد موته بأربعة قرون انه كان نموذجا رائعا للمؤرخين والثقات الذين اعتمدوا عليه في ميدان عملهم .

ولد المسعودي في بغداد من احدى أسر الحجاز في نهاية القرن التاسع الميلادي وظل يدرس ويقوم برحلاته الشهيرة طيلة أربعين عاما قبل أن يضع كتابه الخالد « مروج الذهب » الذي أتم كتابته سنة ٩٤٧ والذي ترجم الى اللغة الفرنسية في سنة ١٨٦٤ والى الانجليزية في سنة ١٨٤١ . .

ويعتبر « مروج الذهب » أروع كتب الرحلات في القرون الوسطى فقد كتب المسعودي تفصيلات رائعة لرحلاته التي قام بها في ساحل افريقية الشرقية . . مثلما فعل البكري بعده بثلاثمائة سنة حين كتب عن رحلاته الى ممالك السودان القديم في منتصف القرن الحادي عشر . . وفي هذا الكتاب « مروج الذهب » يكشف المسعودي تاريخ شرق افريقية في تفصيلات رائعة متماسكة في السنين نفسها التي بلغت فيها دولة غانا في السودان الغربي أوج عظمتها . . والتي شهدت كذلك بداية ظهور امبراطورية مالي ودولة مدينة آيف . . في هذه السنين نفسها كان العرب يعرفون سكان ساحل افريقية الشرقية . . بأنهم « الزنج » . . الذين يعيشون فيما وراء أرض الاحباش والذين وصفهم المسعودي نفسه بأنهم قبائل عدة من السود تضم فيما تضم قبائل من « البرابرة » وهو لفظ يدل على أن

.. وانهم كانوا شديدي السواد غليظي الشفاء يقدرون الحديد اكثر من الذهب ويعتمدون في طعامهم على نباتي الدريورا (وهو نبات يشبه القمح) والكاللازى (وهو نوع من الدرنات) ويأكلون الموز والعسل واللحوم وجوز الهند الذي كان ينمو عندهم بكثرة .. وأنهم كانوا خطباء ممتازين لهم عقائدهم الدينية الخاصة ... فكل هذا يؤكد اقامتهم الطويلة في هذه المناطق التي مارسوا فيها الزراعة ورعى الماشية والتجارة وعرفوا صهر المعادن وصناعتها . ويعتبر في الوقت نفسه اشارة مقنعة لعصر الحديد المتقدم في شرقي وجنوب شرق افريقيا وهي حضارة بدأت الحفريات تكشف عنها الستار بعد حوالي ألف سنة ..

ولكن هناك شيئا أهم من ذلك بكثير .. ان التفصيلات التي ذكرها المسعودى عن هذه المناطق تكشف عن حياة مادية وروحية لشعوبها .. انتقلت معهم حيث انتقلوا هم داخل القارة .. وتكشف عن أفكار وأساليب في الحياة كان مثلها موجودا هنا وهناك في مناطق أخرى من العالم ... انها حضارة انتشرت مع انتشار الهجرات ... ولا بد أن نجص فيها البحث لأنها تعتبر ولا شك مفتاحا لتفهم التاريخ الافريقى ..

لنقارن مثلا بين ما كتبه المسعودى عن القيم التي كانت سائدة لدى « زنج » الجنوب وبين ما كتبه أحد علماء الاجناس عن شعوب السودان الجنوبي اليوم ، ويقول المسعودى عن زنج جنوب شرقي افريقيا انه ليس لديهم عقائد ثابتة وان كل واحد منهم يستطيع أن يعبد ما يشاء سواء كان نباتا أو حيوانا أو معدنا .. وانهم كانوا يؤمنون بالملكية المقدسة .. فكلمة واكيليمى كانت تعنى لديهم .. ابن الاله الاعظم .. وهم انما أطلقوا على ملكهم هذا الاسم لكى يحكمهم بالعدل فقد كانوا يقتلونه اذا جار عليهم في حكمه .

تعالوا بنا الآن نقرأ ما كتبه البروفيسور ايفانس ريتشارد عن « الشيلوك » في السودان الجنوبي بعد ذلك بألف عام والشيلوك هم من بين هذه الشعوب السوداء التي أطلق عليها العرب لفظة « الزنج » وبلغ عددهم مائة وعشرة آلاف يسكنون الضفة الغربية من النيل الابيض بالقرب من مدينة الملاكال .. ويختارون عليهم ملكا يعتقدون انه ملك مقدس ولا يفترون في ذلك عما كان يعتقد « زنج » المسعودى في ملكهم .. ويذكر البروفيسور ايفانس أن هؤلاء الشيلوك يعتقدون انهم ينتمون الى « ناييكانج » زعيمهم في عصورهم الخالدة التي قادهم الى ارضهم الحالية ... والذي تنتقل روحه من ملك الى ملك .. كما يذكر أيضا أن الشيلوك يقتلون ملكهم اذا ساء الحكم فيهم .. ومثلا يقول المسعودى أن الزنج يختارون ملكهم لكى يحكمهم بالعدل .. يقول ايفانس أن الشيلوك ينتخبون ملكهم « لأن المملكة تخص الشعب كله .. ولا تخص الفرع الملكى وحده » ..

ولا ينبغي أن يفهم من هذه المقارنة « أن هناك صلة ما بين « زنج » المسعودى وشيلوك ايفانس .. فهؤلاء الشيلوك ليسوا الا شعبا حديثا .. لا يمكن أن يعود الى أولئك الزنج ..

ولكن هذه المقارنة انما تعنى ولا شك أن انتشار الشعوب الافريقية

فى المناطق الجنوبية فى افريقية كان تطورا عضويا له قوانينه وافكاره وحركته الذاتية . . . وقدرته البالغة على التمددين . . . وأن كل هذا لا يزال باقيا قويا بما يكفى لان يمكننا من دراسة الماضى الافريقى - على الاقل لدرجة ما - من خلال الحاضر الافريقى . . .

٢ - اكتشافات كالامبوز :

ان تطور افريقية الجنوبية من العصر الحجرى القديم الى العصر الحجرى الحديث الى عصر الحديد ليس واضحا كل الوضوح . فاذا كانت هناك معلومات وأفره عن الشعوب التى كانت تعيش على القنص وصيد الاسماك وجمع طعامها من هنا أو هناك فالمعلومات قليلة للغاية عن الشعوب التى مارست الزراعة قبل أن تعرف طريقة استخدام المعادن . . . ربما عاد عصر الزراعة فى هذه الشعوب الى ألف عام قبل الميلاد . ولدينا اشارات ضئيلة عن حضارات انتقالية قبل هذا العصر . وأقدم ما عرفنا من هذه الحضارات الانتقالية ما أثبتته اكتشافات الزوجين « ليكى » فى تل هيراكليس بكينيا التى ترجع الى ٣٠٠٠ عام قبل الميلاد . ويبدو أن حضارات انتقالية كهذه وجدت فيما يعرف الآن بروديسيا والتى أثبت اختبار آثارها بالوسائل الراديو كربونية انها تعود الى ٤٠٠٠ عام قبل الميلاد . حضارات عرف أصحابها تلوين الحجارة واستخدام العصى الثقيلة والادوات الحجرية أو المصنوعة من العظام المصقولة .

وقد كان الاعتقاد سائدا حتى عام أو أكثر قليلا أن عصر تصنيع الحديد فى افريقية الجنوبية لم يبدأ الا مع القرون الاولى لانتشار المسيحية . . . ولكن العالم « كلارك » عثر فى بادوتسلاند بروديسيا الجنوبية الغربية على أدوات مصنوعة من الحديد عادت تحت الكشف الراديو كربونى الى ٩٠ عاما فقط بعد الميلاد . وعندما بدأ كلارك أبحاثه فى الطرف الجنوبى لبحيرة تنجانيقا عند شلالات كالامبو . اتضح أن ما عثر عليه هناك من آثار حديدية تعود الى ١٥٠٠ سنة مضت . وأن العصر الحجرى لهذه المناطق يعود الى ٣٦٠٠ سنة مضت . ومن الطبيعى اذن والامر كما نرى . . . أن الشعوب فى منطقة كالامبو قد تابعت حياتها هناك وهى تنتقل من مستوى لا آخر حتى استخدمت الحديد مما يجعلنا نؤكد أن ظهور الحديد فى افريقية الجنوبية الوسطى كان مشابها فى تاريخه لظهوره فى حزام الغابات بغربى افريقية وليس بعده بكثير . فنحن نرى من كتابات المسعودى عن الشعوب التى تسكن أدنى حوض الزامبيرى أنها كانت شعوبا نامية تأخذ بأسباب حضارة عصر الحديد . . . وهو نفس ما يصدق من واقع الاكتشافات الأخرى على غيرها من شعوب الداخل . . . وهذا أمر يثبت بالضرورة ان هذه الشعوب جميعا قد صادفتها الثورة الاجتماعية والاقتصادية التى خرجت بها من العصور الحجرية . . . وانها لم تعرف معدنا آخر قبل الحديد . . . الذهب أو النحاس مثلا . . . وأنها تختلف فى ذلك عن كثير من الشعوب التى عرفت صناعات معدنية أخرى مثل صناعة الحديد . . . وان كان البعض يعتقد أن بعض شعوب هذه المنطقة . . . كالهوتنتوت قد عرفت صناعة الذهب والنحاس على نطاق ضيق قبل عصرها الحيدى . . . وان كان هذا لم يؤد الى أية تغييرات

اجتماعية أو اقتصادية مثل تلك التي أحدثها استخدام الحديد . . . والتي ندلنا عليها كتابات المسعودي .

٣ - أسس الحضارة الجنوبية :

كتب الإدريسي وصفه لساحل افريقية الشرقية حوالى سنة ١١٥٤ بعد كتابات المسعودي بنحو مائتى عام . . . واهم ما ينبغى ان نلاحظه فى وصف الإدريسي هو انه ركن اهتمامه الديبر . . . ليس على الذهب او العاج اللذين نانا بعض تجارة هذه الاقاليم . . . ولكنه ركزه على الحديد حيث نلاحظ ان عنصره على جانب كبير من الاهمية بالنسبة للتجارة وازدهارها فهو مصدر الثروة هناك مما شئت أن التجارة فى المحيط الهندى كانت ولاشك عاملا هاما فى تطور ساحل افريقية الشرقية . . . برغم ان الإدريسي لم يشير الى مالندى او مدينة « الزنج » فقد كانت هذه المدينة مركزا لتجارة خام الحديد . . . ومركزا لمناجمه . . . ودان أهلوها يربحون ارباحا وافرة من وراء تجارتهم فيها ولدى الإدريسي يشير الى « ممباسا » باعتبارها مركزا آخر لتجارة الحديد وهى اشارة واضحة الى أن شعوب الساحل الافريقى الشرقى كانوا من قبل ايام الإدريسي على صلات تجارية وثيقة بشعوب الداخل فيما بعد الساحل ويشير الإدريسي الى انه برغم شهرة الاجزاء الجنوبية من أرض سوفالا بالذهب الا أن التجار لا يهتمون به هناك قدر اهتمامهم بالحديد . . . بل ان الناس فى مدينتى « دندمة وشنتمة » (ربما كويليمان وشندى ؟) يعتمدون فى حياتهم اعتمادا كليا على تجارة الحديد كما يشير أيضا الى أن هناك كثيرا من مناجم الحديد فى جبال سوفالا والى ان التجار كانوا يأتون من مناطق بعيدة لشراء حديد هذه المنطقة . . . من الهند مثلا حيث كان الهنود يصنعون من حديد سوفالا أجود أنواع السيوف فى العالم . . . والتي كانت مادتها من انصلب فى العصور الوسطى تصدر الى دمشق حيث كان صناع دمشق من العرب المهرة يصوغون فيها أجمل سيوف العالم وأسلحة التي قابلوا بها الصليبيين يوما ما .

ولقد أدى عصر الحديد بهذه الاجزاء الجنوبية الشرقية من القارة الافريقية الى نوع جديد من المجتمعات والمدنية على طول الساحل والى الداخل منه وهو ما سنفسره فيما بعد على أساس ما تم من حفريات مجتمعات كانت التجارة سببا فى قيامها وتطورها ونهوضها وهنا يجدر بنا أن نقول انه مثلما كانت تجارة غرب افريقيا مع كوش وقرطاجنة والشمال الافريقى عموما سببا فى تطوره فان الصلات التجارية لافريقيا الجنوبية - مع كوش أيضا - وربما مع غرب افريقيا نفسها وبالاخص مع تجارة المحيط الهندى كانت من أهم عوامل تطورها ونماها .

الفصل السادس

تجار المحيط الهندي

١ - مدن سبأ :

حوالى سنة ١٥٠٠ كتب « دورات باربوذا » الذى رافق واحدا من اول الاساطيل البرتغالية الى الهند يقول ان شعوب الشاطئ الشرقى لافريقيا كانوا يبيعون الذهب والعاج والشمع ، لتجار مملكة كامباى الذين يجنون من وراء هذه التجارة أرباحا عظيمة . وقد اسالت هذه الارياح فى هذه الاوقات لعاب البرتغاليين وجعلوا الاستحواذ عليها هدفا من اهداف الملاحه البرتغالية . .

كانت هذه التجارة بالنسبة للبرتغاليين شيئا جديدا ومثيرا . ولكنها كانت فى الواقع شيئا قديما يمتد الى أعماق التاريخ . . . فقد كانت بعثات المصريين القدماء فى عصور الاسر الوسيطة تذهب الى هذه المناطق من اجل هذه الاصناف نفسها التى كان يجرى الاتجار فيها أيام البرتغاليين . وقبل باربوذا بنحو خمسة قرون كان تجار مملكة حيرام يعوض البحر الابيض يجلبون الذهب من « أوفير » (الطرف الجنوبي من شبه جزيرة العرب) والتى كانت تعتبر فى الواقع امتدادا لهذه المناطق التجارية . . . وكانت أساطيل الملك سليمان تفد الى هذه الاسواق التجارية فتعود بالذهب والفضة والعاج والقروود والطواويس . بحيث فاق سليمان كل ملوك الارض فى الغنى والحكمة والتاريخ يقص لنا حمولات الذهب والاحجار الكريمة التى بعثت بها بلقيس ملكة سبأ للملك سليمان والتى تشير الى الثروات الطائلة التى كان يجنيها تجار أوفير من وراء اتجارهم فى تلك المناطق الساحلية من افريقيا .

وقد ذكر اجافيدس السكندرى فى سنة ١٥٠ قبل الميلاد ، انه ليس هناك فى العالم من هو أغنى من أبناء الدولتين « جيرهاين وسبأ » لانهما كانتا على حد قوله « فى مركز التقاء كل التجارة العابرة بين آسيا وافريقيا .

وقد ازداد العرب رخاء طيلة الفى سنة كاملة . وظلت شهرة هذا الرخاء قائمة حتى القرن العاشر الميلادى فيما كتبه الحمداى احد كتاب مدينة صنعاء العاصمة القديمة لسبأ . . فى وصف بلاده التى يعرفها الناس جميعا كأحد جنات الارض . . . والتى تزخر بالقصور والحصون والخضر والفاكهة . . . والننى تظل جماعات بيوتها ودورات مياهها نظيفة من قرن لآخر

وفد كتب ابن بطوطة بعد ذلك بأربعة قرون يصف مدينة زبير بأنها ثمانية المدن المزدهرة الغنية في اليمن بعد صنعاء وبأن سكانها كانوا طوال القامة على جانب من الوسامه وأن نساءها على قدر بالغ من الجمال وأنهم جميعا ذوو أخلاق كريمة .

ثم تمضي السنون ... وتختفي هذه الحضارة . وتظلل اليمن في التاريخ مثالا لأعظم دول العالم حضارة في العصر القديم .

هذه التجارة التي ازدهرت بسببها المناطق الشرقية للساحل الافريقي لم تكن تجارة همجية ولكنها كانت تجارة منظمة ناجحة منذ أيام ملكة سبا وربما قبل أيامها بكثير . . ومع بداية القرن الأول الميلادي عرف ملاحو البحر الاحمر هذه المناطق الساحلية التي تضم مايعرف الآن بالصومال وكينيا وتنجانيقا بأنها مناطق الساحل الاوزاني «نسبة الى دولة اوزان العربية التي انتهت قبل الميلاد بستة قرون والتي تلتها دولة قضبان ثم دولة سبا والحميريون قبل أن يسيطر عليها بطالمة مصر والرومان بعدهم . مما جعل تجارة جنوب البحر الاحمر تقع تحت سيطرة أكسوم حتى بدء السيطرة عليها التي استمرت الى عام ١٤٩٨ حين بدا البرتغاليون يحلون محلهم في هذه السيطرة .

وهنا يجدر بنا أن نقرر أن تاريخ شرقي وجنوب شرقي افريقيا قد تأثر بعاملين هامين : الاول نمو ولايات الهند الغربية وسيلان واندونيسيا والصين والآخر ، هو التقدم الفني المطرد في وسائل الملاحة .

٢ - الملاحة ٠٠٠ الى داخل افريقيا :

يقال أن اول ملاح عبر المحيط الهندي هو ملاح اغريقي سكيلاكس ابهر لياه البحر الاحمر سنة ٥١٠ قبل الميلاد من مياه جزر الهند . ثم تبعه آخرون من بينهم نيرخوس ملاح الاسكندر الشهير الذي ابهر من المنطقة نفسها الى البحر الاحمر ثم عاد من الطريق نفسه سنة ٣٢٧ - ٢٦ قبل الميلاد . ولا بد أن كثيرين غيرهم ومن امم مختلفة قد سلكوا هذا الطريق نفسه متتبعين الساحل ومتنقلين في بطء من ميناء لميناء حتى بدءوا يتعلمون اجتياز الركن الجنوبي من المحيط مستعينين بسفن أكثر جودة عابرين المياه التي تقع بين غربي الهند وجنوبي الجزيرة العربية آخذين طريقهم في الوقت نفسه الى شواطئ افريقيا . ومن ثم بدأت الاسكندرية وروما تعرف مزيدا من المعلومات عن الساحل الافريقي . وقد كتب احد ملاحى الاسكندرية في هذا الصدد الكتاب المشهور بيريبلوس يصف فيه طرق التجارة التي لابد ان يكون الكثيرون من قبله قد استخدموها .

ويتحدث عن التجارة في الساحل الافريقي فيقول :

« ان هذه البلاد لا يحكمها حاكم معين فكل مدينة من مدن التجارة هناك يحكمها رئيس خاص بها .

وقد كان بعض هؤلاء الرؤساء مستقلين وغير خاضعين لسيطرة

أحد في حين كان بعضهم الآخر خاضعا لسيطرة الحميريين في جنوب الجزيرة العربية .

وكانوا يستوردون الآلات والأسلحة الحديدية المصنوعة في ميوزا على ساحل البحر الأحمر . ترى هل كانوا هم أنفسهم على دراية بصناعة الأسلحة ؟ إن كتاب بيريلوس لا يعطينا إجابة شافية عن هذا السؤال . وأن كان من المعتقد أن ذلك لم يكن في متناولهم على أيام صاحب هذا الكتاب . فلم تبدأ صناعة الحديد في « كالامبو » مثلا (بقرب روديسيا) إلا مع بداية الستين سنة التي سبقت مولد المسيح

ويتابع بيريلوس حديثه قائلا « في هذه الأسواق (أسواق كينيا وتنجانيقا) كانت تباع الحراب والخناجر والمطارق والفؤوس الحديدية والآنية الزجاجية والنيذ والشعر . وكانت تصدر العاج والقرون والأصواف وزيت النخيل . . . »

ولابد أن هذه التجارة كانت تمتد إلى ما وراء منطقة الساحل . . إلى الداخل ناحية الجنوب . فإلى أي مدى كان يصل هذا الامتداد ؟ . .

ربما استطعنا الإجابة عن هذا السؤال إذا بحثنا اكتشافات العالم الأثرى البريطاني جيرفاس ماثيو في تنجانيقا سنة ١٩٥٠ .

فقد وجد جيرفاس آثارا تدل على أنه كان هناك مركز من مراكز التجارة الداخلية بالقرب من « كيلوا » وفي « سنجومفارا » استطاع مايفو أن يكشف آفاقا رائعة لهذه التجارة التي كانت تنمو على نطاق واسع . فقد عثر هناك على مصنوعات زجاجية لا بد أنها من سيمام وقطع من الخزف الصيني يرجع تاريخها من أواخر عصر سسونج إلى أوائل عهد مينج ، ١٤٥٠/١١٢٧ وعثر على عملات نقدية في هذه المجموعة نفسها من الجزء صكت في العراق وفارس وعلى بعض الأحجار الهندية الكريمة ، وعلى قطع أخرى من العنبر والكريستال والتويان . ولقد كانت هذه المدن القديمة قبل « كيلوا » و « كيسيواني » و « سنجومفارا » و « سانجيه ياكاتي » و « كوا » في طي النسيان لعهد قريب جدا حتى أثبتت هذه الاكتشافات أنها كانت على درجة كبيرة جدا من الأهمية التجارية في العصور الوسطى .

٣ - طبيعة هذه التجارة :

يقول كتاب « بيريلوس » أن أبناء موانى « قارة آزانيا » - كينيا وتنجانيقا - كانوا أشبه بالقراصنة في عاداتهم - أقوياء البنية ينضمون تحت ألوية رؤساء مختلفين في أماكن مختلفة - وأن الساحل نفسه كان يخضع لسيطرة بعض الأجزاء الجنوبية للجزيرة العربية استنادا لبعض الحقوق القديمة التي تخول لهم استعمار هذه الجهات - هذه الأجزاء التي كانت مقرا لامراء الأوزان وقطبان وسبأ وحمير .

وفي العصر الذي ظهر فيه بيريلوس كان الحميريون هم الذين

يسيطرون على هذه الجهات من الساحل الافريقى . ومن ثم كان تجار ميوزا الحميريون « يبعثون بسفنهم الضخمة التى يقودها قباطنة من العرب وسماسرة يعرفهم أهالى هذه الجهات ويعرفون كل شبر فى هذا الساحل ويجيدون لغة إنائه . وهذا كله يثبت ان صلات موغلة فى القدم نمتها التجارة وربطت بين العرب والافريقيين فى هذه المناطق الساحلية الشرقية من افريقيا . وعندما جاء الاوربيون لاول مرة الى هذه المناطق الساحلية منذ حوالى خمسة قرون مضت وجدوا ان الحضارة التى نشأت عن هذه الصلات كانت لاتزال موجودة واضحة فى لغة السواحلى - التى تعنى باللغة العربية - الشاطيء

وهذه اللغة السواحلية مثل الثقافة السواحلية ليست نتاجا عربيا متافرقا ولكنها كانت ولا تزال نتاجا افريقيا مستعربا .

فأنسبها وعناصرها تتصل اتصالا مباشرا بلغات البانتو الافريقية
وان كان قد لحقها تأثير عربى كبير نتيجة قرون طويلة من التجارة
والاستقرار .

ولقد نشأ عن هذا التأثير الحروب الدينية فالقبلية في جزيرة العرب خلال القرن السابع والثامن حيث زحرت مدن التجارة بسواحل الصومال وبكينيا بل وبتجانيقا نفسها بالآلاف المهاجرين العرب - مما أدى بمرور الزمن الى اصطبغ هذه الثقافة الافريقية بالصيغة الاسلامية .

وفي القرن العاشر - كما يؤكد لنا ماكتبه المسعودي - كان العرب قد فرضوا أنفسهم بعيدا حتى الشمال الى سوفا لا بمملكة واكيليمي في الوقت نفسه الذي فرضوا فيه أنفسهم في أماكن أخرى بآسيا مثل جنوبى الصين والملايو وبعض موانئ الهند وسيلان . ومن ثم كانت السفن المحملة ببحر ما بين الصين وافريقيا متنقلة من ميناء الى ميناء يتلقف صناعتها قوم اثر آخرين من اصحاب التجارة حتى أصبح المحيط بالجملة مرتبطا بشبكة متداخلة من الخطوط البحرية التجارية ومن ثم ايضا لا يستغرب ان تكون « سنجومنارا » ، « كيلوا » قد عرفتا الخزف الصينى من شكيانج والحجارة الكريمة من سيام كما اثبتت اكتشافات ماثيو .

ولكن الهند - في الواقع - هي التي ظلت بالنسبة لشرق افريقيا تمثل أهم سوق للتجارة - فقد عرفت ولاشك - المنسوجات الهندية وغيرها من البضائع في سواحل افريقية الشرقية وظلت الحضارة النامية لغربي وجنوبي الهند تؤثر في هذه المناطق الإفريقية لمئات من السنين وربما أوضحت لنا الاكتشافات المتوقعة في المستقبل مدى هذا التأثير .

وقد أوضح الادريسي الى اى مدى كان اهتمام الهند باستيراد الحديد الافريقى . كما أوضح ايضا ان الهنود كانوا يستوردون العاج وأن هذه الاصناف من التجارة كانت تذهب أولا الى عمان ومن ثم الى الصين والهند . وقد كان أباطرة الصين ونبلاؤها وقوادها يستعملون

المقاعد العاجية . وكذلك كانت الحال في الهند حيث الهنود يستخدمون العاج في صنع مقابض السيوف والخناجر وقطع الشطرنج . وكان الذهب أيضا يمثل جانبا هاما من هذه التجارة . الى جانب اصناف السلاحف وتجارة العبيد الذين كان اكثرهم يباعون في العراق . والتـر يذكر لنا ان هؤلاء العبيد قاموا بثورات متعددة في هذه المنطقة استمرت أكثر من مائتى عام وهى التى تعرف بثورات الزنج .

٤ - الصين وافريقيا :

كانت السفن الصينية التى تبحر من بحر الصين جنوبا متجهة الى افريقية نتيجة خبرة قرون عدة استـستـمرت أكثر من ألف عام . فالتاريخ يروى أن حاجا صينيا يدعى « فاهسين » وكان يسافر لزيارة أحد الأضرحة البوذية بالهند قد قام برحلته هذه سنة ٤١٣ وأنه وصل الى الهند عبر التركستان مخترقا الجبال الثلجية الكثيرة في الشمال ولكنه قرر ان يعود الى الصين عن طريق البحر . فظل في عودته أربعة عشر يوما لكى يصل الى سيلان قادما من جانجـز وبقي هناك فترة من الزمن لكى يرى « سن بوذا » وغير ذلك من العجائب التى كانت ذائعة الصيت في هذه البلاد ثم تابع رحلته بعد ذلك على ظهر سفينة تجارية كبيرة كانت متجهة الى جاوا تحمل على ظهرها مائتى شخص وتقطر خلفها سفينة أصغر منها لدواعى السلامة

وتابعت السفينة رحلتها طيلة ثلاثة عشر يوما وليلة حتى وصلت شاطئ جزيرة في مكان ملئ بالقراصنة ، ثم تابعت سيرها بعد ذلك تحت ستار ظلام الليل . ولم يكن فاهسين يرى شيئا سوى الامواج المتلاطمة والسلاحف البحرية الضخمة وطحالين البحر واسماك اخرى كبيرة الحجم حتى فقد التجار الامل ولم يعودوا يعرفون الى اين توجه الافئدة سفينتهم . ولكنه وصل اخيرا الى جاوا حيث بقي هناك خمسة شهور لكى يستقل سفينة اخرى متجهة الى كانتون في رحلة استغرقت خمسين يوما .

هكذا تمت رحلة فاهسين في هذه البحار في مناطق لم يعرفها الاوربيون الا بعد ذلك بألف عام تقريبا . ولا بد ان السفينة الاولى التى أتمت الرحلة من سيلان الى جاوا كانت سفينة سيلانية او جاوية وربما كانت الاخرى صينية .

والواقع أن الصلات البحرية بين الصين والبحر الاحمر ترجع الى أواخر عهد أسرة « هان » (٢٥ - ٢٢٠ ميلادية) وثبتت الكتابات التى نشرت عن عصر الممالك الثلاثة (٦٥ - ٢٢١ ميلادية) ان حديثا جرى عن أربع او سبع سفن ذات صواري كبيرة استخدمها الصينيون بين كانتون وأنام . بالرغم من أن عهد ارتيـسـاد البحار وصل الى مداه خلال العصور الوسطى الا انه لم يتم بشكل واضح الا في عهد اسرتى سونج (٩٦٠ - ١٢٧٩ ميلادية) حيث بنى أحد المهندسين البحريين واسمه « نانج سو » سفينة ضخمة يبلغ طولها أكثر من مائة قدم . وخلال فترة حكم أباطرة « نانج » (١١٨ - ٩٠٦ م) نمت التجارة

البحرية بسرعة وكانت الثروة التي تأتي بها هذه التجارة والمسافات الطويلة التي تقطعها السفن تستدعي تحسينات مستمرة في السفن ووسائل الملاحة . وكان البحارة الشرقيون منذ زمن طويل كما تروى قصة فاهسين يستخدمون البوصلة المغناطيسية . ولا يعرف على وجه التحديد تاريخ استخدام البوصلة المغناطيسية في ارتياد البحار بعد أن كان البحارة يسرون بحذاء الشاطئ ولكنه حدث في وقت ما بين القرن العاشر الميلادي - وهو أكثر الاحتمالات ترجيحاً ومن المؤكد أن استخدامها سنة ١٠٨٦ كان يسبق استخدامها في البحر الأبيض المتوسط بنحو قرن من الزمان .

فقد أعجب ماركو بولو بعد ذلك في نهاية القرن الثالث عشر باحكام صناعة السفن وباستخدام نوع جديد من الدفة الخلفية ظهر في أثناء حكم أسرة تانج في القرن الثامن . وكان البحارة في هذه الأسرة يعرفون كيف يقودون سفنهم وسط الرياح .

وفي القرن الثاني عشر كانت السفن الصينية من الناحية الفنية تستطيع أن تبحر الى أى مكان في العالم المعروف آن ذاك ولو أن الاميرال الصينى الشهير « تشينج هو » لم يصل الى شرقى افريقيا الا في القرن الخامس عشر .

وعلى الرغم من تفوق الصينيين في النواحي البحرية فهم لم يتوغلوا بعد في مياه المحيط الهندى مع أن تجهيز سفنهم كان يسمح لهم بالملاحة مسافات أكثر من ذلك . ومن المؤكد أن البضائع الصينية كانت تصل الى البحر الأحمر والبحر المتوسط بطرق بحرية منذ بداية العصر المسيحى - (فالآنية البرونزية التي تعود الى عهد أسرة مرو نقلها الصناع في هذه الاسرة من نماذج صينية جاءت على الأرجح عن طريق البحر) .

وكان هناك تبادل بين الصينيين والرومان . ولكن هذا التبادل كان يتم عن طريق سفن أخرى غير صينية ومع التوسع الذى حدث في عهد أسرة شونج « في القرن الثانى عشر كان الصينيون قد ثبتوا مراكزهم كتجار في جنوبى الهند . وكان ميناء كويلون محطتهم لتجارة الرئيسية »

وقد كتب المسعودى سنة ٩٤٧ يقول : « ان سفن الصين اعتادت ان تذهب الى عمان وسيراف والبصرة في حين كانت سفن هذه الدول تبحر بدورها الى الصين . وروى الادريسي سنة ١٠٥٤ أن أبناء الصين قد سحبوا تجارتهم للجزر الكبيرة جنوبى شرقى آسيا بعد الاضطرابات التي كانت سائدة في الهند في ذلك الوقت .

وفي سجلات أسرة « سونج » سنة ١٠٨٣ ما يشير الى زيارة ثانية لـ « سفير أجنبي من بلاد تدعى بلاد « الزنج » وهى بلاد بعيدة جدا حتى أن الامبراطور « شون تسونج » منحه هدايا مماثلة لتلك التي أهداها اليه في رحلته الاولى . بل أضاف اليها مائتى أوقية من الفضة وإذا لم تذهب الاكتشافات المتوقعة في المستقبل أكثر من هذا ، فإننا

نعرف على وجه اليقين ان هذا المبعوث الافريقى هو الوحيد الذى تسجله الوثائق الصينية حتى سنة ١٤١٤ ، حيث أرسلت مدينة « ماليندى » سفراء للامبراطور ومعهم زرافة كهديّة له .

وبرغم ان جماعة فى بلاد الصين كانت تعارض الاختلاط والاتجار مع البرابرة .. خارج الصين ، وتجد التجارة الداخلية ، الا ان التجارة البحرية فى عهد أسرة « تانج » كانت من الاهمية بحيث لا يمكن تجاهلها .. ويقول التاجر سليمان قبل سنة ٨٥٠ « ان هذه التجارة كانت تشمل العاج والبخور والنحاس والاصداف والكافور وقرون الوعول . وكل بضائع تفرض عليها ضرائب عالية .. وعندما كانت السفن التجارية تصل الى كانتون كانت تسلم حمولتها لموظفى الامبراطور ليضعوها فى المخازن حتى تصل آخر سفينة فى الموسم التجارى حيث يحتفظون بثلاثة اعشار هذه البضائع المستوردة باعتبارها ضريبة رسمية . ثم تسلم باقى البضائع لأصحابها . بيد أن هذا الربح لم يرض الاباطرة . وفى سنة ٩٧١ فى عهد أسرة يونج أعيد تنظيم التجارة البحرية لضمان الحصول على ربح اكثر من الاستيراد والتصدير . وفى سنة ٩٨٣ تقريبا . أعلن أن التجارة البحرية مع الاجانب اصبحت حكرا للدولة .

وكان مخالفا هذا القانون الجديد يعاقبون بوشم وجوهم او النفى للجزر البعيدة .

وقد استمرت هذه التجارة فى نمو مطرد . وتروى سنوات اسرة سونج « ان الوارد من العاج وقرون الوعول والآلء والبخور والبضائع الاخرى زادت الى أكثر من ٥٣ ألف وحدة . وفى سنة ١١١٥ زادت هذه الكمية أيضا الى ٥٠٠ ألف وحدة . وخلال مائة عام من ذلك التاريخ بدأ الخزف الصينى يصل الى الموانى القريبة للمحيط الهندى بكميات كبيرة . وبدأ أمراء وتجار المدن الافريقية مثل « سونجومارا » يزينوك منازلهم بها ويستمتعون بالشئ الوارد لهم من الصين . ويرجع هذا التوسع فى التجارة الى اسباب عدة : فقد كانت صناعة الخزف الصينى فى هذه الازمنة تخطو خطوات مطردة فى التحسن من الناحية الفنية . وكانت التجارة الافريقية تخطو أيضا خطوات واسعة نتيجة الاسلام والاتصال بالعرب واستقرار بعض هؤلاء العرب على سواحل افريقيا .. ثم نتيجة للتطور الاجتماعى فى افريقية نفسها .. والتوسع الصينى فى التجارة .

وفى القرن الثالث عشر أى بعد أسرة سونج اعيد اباطرة المغول فتح الطرق البرية للتجارة التى تمر خلال تركستان « واصبحت التجارة البحرية اقل أهمية عن ذى قبل . ووصلت التجارة تحت حكم اباطرة « مينج » اقصى اتساع لها . وكان اعظم مبعوث للتجارة الصينية هو « تشينج هو » الذى كان مسلما من « يون » بلغ منصبا رئيسيا كبيرا فى البلاط الامبراطورى وقام بسبع رحلات عظيمة الى الشرق الاقصى يذكرها التاريخ الصينى .

وبرغم ان التجارة الصينية مع ساحل شرق افريقيا هى جزء

من تاريخ هذا الساحل .. وما يليه الى الداخل .. فان الصينيين لم يسيروا الى ذلك كثيرا . فالاشارة الاولى في هذا الصدد ترد الى سنة ٨٦٣ وتحكى عن بلد يدعى « بوبالى » ومن الواضح أنهم كانوا يقصدون بها مقاطعة « بربرة » والساحل الذى يليها على القرن الأفريقى (الصومال تقريبا) . وترد اشارة أخرى أكثر تفصيلا عن « بوباتى » هذه فى سجلات « تشاوجوكوا » عن الشعوب الأجنبية التى انتهى من تدوينها عام ١٢٢٦ . تشير الى بلاد « تسونج با » وهى ترجمة صينية لكلمة ساحل الزنج . وتذكر السجلات « أن هذه البلاد تمتد حتى تصل الى جبل عظيم لا بد وأنه جبل كليمنجارو وأن سكانها من التاشى (وهم العرب) ويتبعون ديانة العرب ويلبسون ملابس قطنية زرقاء وأحذية من الجلد الأحمر . وطعامهم من الخبز والفطائر ولحم الضأن وأن هناك قرى عدة وتلالا متتابعة تغطيها الغابات وتنتج سن الفيل والذهب وخشب الصندل »

وكانت هذه الرحلات هى قمة التجارة البحرية الصينية . ولكنها بدأت بعد ذلك فى الانهيار . ولقد بلغت هذه التجارة فى يوم ما من الأهمية بحيث كان لها إدارة خاصة بالهندسة البحرية .. وفى سنة ١٥٠٠ أغلقت أحواض السفن الضخمة ومنع بناء السفن التى لها أكثر من صاريين .

وصدر فى سنة ١٥٢٥ قانون يمنع ضباط الشواطئ سلطة تحطيم هذه السفن اذا وجدت والقبض على بحارتها . وأسباب هذا التدهور ترجع أولا الى الصين نفسها وليس الى إفريقيا . وهى كما ترجع الى المنافسات فى البلاط الصينى وبين طبقة من الموظفين كانت تخشى هذه الاكتشافات البحرية والثروة التى جلبتها لطبقة أخرى من الطواشى (الخصى) نمت فى قصور الصين . وكان هؤلاء الموظفون يكرهون هذه التجارة التى كانوا يعتبرونها مسرفة ووثيقة الاتصال بالبرابرة وهذا أمر لم يكن بعضهم يبذره كما أسلفنا القول .

الفصل السابع

مدن جميلة من الحجارة

١ - حضارة منسية :

بين سنة ١٤٨٨ و ١٤٨٩ اتجهت اربع سفن برتغالية صغيرة يقودها فاسكو دي جاما مارة جنوبا برأس الرجاء الصالح ومتجهة بعد ذلك في شجاعة نحو الشمال ، وذلك بعد رحلة طويلة قاسية عبر المحيط الاطلنطي ولكن هذه السفن لم تدرك ان كل ما صادفها من متاعب في رحلتها هذه الطويلة كانت شيئا هينا بالنسبة لما سوف يعترضها من مصاعب وهي في طريقها للشمال ، وبعد أن تجاوزت هذه السفن «سوقالا» على الشاطئ الشرقي لافريقيا بدأت تخرج من مفاجأة لأخرى ، فقد أصابت أصحابها الدهشة وهم يرون مدنا ساحلية مزدهرة عامرة بالسكان ، وبحارة يعرفون جيدا طرق الملاحة الى الهند وما وراءها ممن اعتادوا القيام برحلاتهم مستخدمين الخرائط والبوصلات وأجهزة لقياس خطوط الطول والعرض مما يماثل ما كان في حوزتهم هم أنفسهم - وربما تفوقها دقة فهم بحارة كانوا على معرفة أكثر منهم بالعالم الخارجي - هذا في الوقت الذي كانت فيه الاكتشافات الاوربية لا تزال في بدايتها .

ألقت هذه السفن مراسيها في خضم تجارة المحيطات، ونزل بحارتها الى المدن الموجودة آن ذلك ، والتي كانت تماثل في روعتها قليلا من المدن الاوربية في هذه الايام . ولقد كان واضحا أن هؤلاء البحارة الاوربيين في السنوات الاخيرة من القرن الخامس عشر لا يمكن أن يفوقوا ، في مدينتهم هؤلاء الذين كانوا يعيشون في سواحل شرقي أفريقيا فهؤلاء كانوا على قدر كبير من المعرفة بالعالم وعلى قدر كبير من التمدن . وكانت موانئهم ومدنهم مؤسسة على أحسن طراز . حتى أن هؤلاء الاوربيين وجدوا أنفسهم أشبه بالغرباء عن هذا العالم الجديد .

ويقول مسجل سفينة فاسكو دي جاما «ساو جابريل» حضرا الينا اثنان من سادة هذه البلاد . . كانا على جانب كبير من التعالي ونظرا الى اقدمناه لهما نظرة الترفع واعتبراها أشياء لاقيمة لها . وكان أحدهما يضع على رأسه قبعة حافتها مطرزة بالحرير ويضع الآخر قبعة من الحرير الاخضر - وبصحبتهم شاب صغير - وقد فهمنا من اشاراتهم أنهم قدموا من بلد بعيد وأنهم رأوا من قبل سفنا كبيرة كسفننا .

وللحق يقال ان هؤلاء لابد ان يكونوا قد رأوا سفنا أكبر من سفن البرتغاليين من التي كانت تعبر المحيط الهندي فى هذه الايام .

وتتحدث وثائق هذه السفن عن «برمسترجون» شخصية افريقية أسطورية قيل انه كان ملكا أفريقيا بالغ القوة والعظمة أراد انشاء امبراطورية موحدة تضم كثيرا من الدول الافريقية وتقول : انه قيل لنساء ان برمسترجون لا يبعد كثيرا عن هذا المكان وأنه يسيطر على مدن كثيرة على طول الشاطئ وعرفنا أيضا أن سكان هذه المدن كانوا من كبار التجار الذين يملكون سفنا ضخمة وقد تابعت هذه السفن سيرها شمالا ومرت بمدن «كيلوا» ومبابسا ، ومالينين» ثم تابعت سيرها بعد ذلك متجهة الى الهند حيث ألقت مراسيها فى خليج كامباى قريبا من مدينة كلكتا حيث قابل بحارتها تونسيا كان يتحدث بلغة أبناء «قسطلة وجنوا» استقبلهم باللغات وسألهم عما اتى بهم الى هذا المكان .

كانت هذه احدى لحظات التاريخ المضيئة وبعد قرن من الزمان بدأ الباحثون عن الثروة يشقون طريقهم اليها . وفى ظرف ٢٥ سنة أنزل البرتغاليون ٢٤٧ سفينة فى اساطيل صغيرة كانت تبهر الى الهند كل سنة تقريبا وتعكس مقدره شعب البرتغال ، قليل العدد ، الفقير الذى كان يتحدى البحار والذى استطاع «بجراة متحديا الاخطار» السيطرة على تجارة المحيط الهندي واختراق طرق التجارة العقدة بين موانئها وشعوب الشرق : فحطموا بذلك التجارة الشرقية وخلفوا وراءهم الفوضى والحطام بعد ما انهارت قوتهم .

ولقد اقتحم البرتغاليون المحيط الهندي والحضارة الهندية بوحشية وعنف لم تشهده هذه البلاد من قبل ، وكانوا يضربون بذلك مثالا متعمدا فى اثاره الرعب الذى شمل رعائهم وزعماءهم قبل « فاسكردي جاما » و « الميدا » و «البوكيرك» فقد عذب دى جاما الصيادين العزل وانتزع المبدعيون الالهالى من محاجرها وكان البوكيرك يقطع أنوف النساء وأيدي الرجال على ساحل جزيرة العرب . وفى هذه الأزمات نفسها من التاريخ كانت العرب تسود الهند . واستمرت فترة طويلة وأصبحت أمرا مألوقا حتى أن «هيرايتوى» عندما يتحدث عن هذه الحروب فانما يذكرها كأمر تقليدى ويقول مثلا ان كل المعارك كانت تدور حينما تشرق الشمس وكان جنود الجيوش المتنازعة يختلط بعضهم ببعض ويتحدثون . وعندما تدق الطبول كان كل جانب منهم يصطف ويبدأ القتال بعد ذلك . وانتصرت أوروبا على الهند واستولت على ثرواتها . واصبح الاوربيون يعتقدون انهم كانوا يتمتعون دائما بحضارة تفوق حضارة الهنود والافريقيين .

ونسوا الماضي الذى كان يروى قصصا مختلفة عما يعتقدون ، بيد انهم لم يستطيعوا أن يمحوا حضارات الهندلان آثارها المتعددة كانت لاتزال باقية . وكانت مكانتهم لاتزال مرموقة . وكان العالم أجمع يعرفهم ، فقد نجحوا فى تحطيم تجارة المحيط الهندي ولكنهم فشلوا فى تحطيم تجارة الهند .

اما الحضارة فى شرقي أفريقيا فقد كان أمرها مختلفا . كانت أقل

استرعاء للنظر من الحضارة الهنديه وأقل ثروة منها • وكانت جذورها
أجل عمقا في الداخل ولهذا كان مصيرها مختلفا •

لقد كانت المدن الساحلية في شرقي أفريقيا لا تختلف عن مثيلاتها
في معظم الدول البحرية في أوروبا والهند في القرون الوسطى • كانت
تقع على المحيط المتلألئ وكانت منازلها العالية تحيط بها أسوار متينة
تعلوها القلاع والقصور • وكان أهلوها على درجة من الشجاعة تساعدهم
على الاحتفاظ بمدنهم غير أنه لم يبق من هذه المدن الا شهرتها لانها اختفت
بأكملها تقريبا • ولقد فقد بعض هذه المدن تماما • ولكن البعض الآخر
منها لا يزال باقيا اطلاقا على الشاطئ أو تلالا من الحطام المطمور •

وخلال رحلة «دي جاما» الاولى على ساحل موزمبيق أطلقت النيران
على الاهالي وقد عاد «دي جاما» مرة أخرى الى الشاطئ ومعه مجموعة من
السفن وهدد باحراق «كيلوا» اذا لم يعترف حاكمها بسيادة البرتغال
واذا لم يدفع له ضريبة سنوية •

وقام «دافازيو» بالعمل نفسه في زنجبار وبرافا وعندما قاوم الاهالي
«الميدا» عصف بمدينتي «كيلوا» ومباسا • وأحرقهما وحطمهما تماما
• نهب «سالدانها» مقاطعة بربرة على القرن الافريقي ، وحطم سواريز
مدينة زيبلا وهاجم «داكونها» مدينة برافا •

ويعلق على ذلك «باربوزا» الذي ذهب في أول أسطول لهذه الجهات
فيقول ان البرتغاليين حطموا برافا وذبحوا أهلها وأسروا منهم الكثير ونهبوا
كثيرا من الذهب والفضة والبضائع • ويذكر التاريخ خطايا بعث به حاكم
مباسا بعد غزو «الميدا» المخرب الى حاكم مدينة «ماليندي» يقول فيه : ان
شعب السواحل والعرب في مباسا عندما عادوا الى مدينتهم لم يجدوا أثرا
للحياة هناك • فقد قبض البرتغاليون على كل من لم يتمكن من الهرب من
النساء والرجال والاطفال وأحرقوهم أحياء وكان كل ذلك سهلا يسيرا
بالنسبة للبرتغاليين وللسبب نفسه الذي حدث في الهند ، ذلك أنهم كانوا
يميلون للقسوة والوحشية والتدمير عندما يقاومهم الاهالي • وكانوا أحسن
تسلحا وتدريباً ولم يكونوا يريدون احتكار التجارة فحسب ، ولكنهم
كانوا ينشدون تدمير المدن الساحلية والنهب • وكانت طرق الحرب
الافريقية تميل لتقليل الخسائر في حين لم يكن البرتغاليون يأبهون
بالتدمير والقتل •

ومن الغريب بعد ذلك أن نجد الاوربيين يعتقدون أنهم وجدوا
الافريقين كشعوب متوحشة قبل قدوم الحضارة الافريقية الراقية التي
أعملت فيهم القتل والنهب وقد كتب ايفانس برتشارد وهو يصف طريقة
الحرب التي كان يتبعها شعب «الآندي» الذين وصفهم بعد ذلك الاوربيون
بالرغبة في الحرب والميل لسفك الدماء فقال : كانوا يتجنبون الاحاطة
التامة لاعدائهم لأن الغرض الرئيسي من الحرب هو اجبار العدو على
الانسحاب حتى يتم احراز النصر بأقل خسارة والاحاطة التامة بالعدو
تجبرهم على القتال بوحشية حتى النهاية لانه لا أمل لهم في الفرار فكانوا
يتركون ثغرة في المؤخرة وكان القتال يبدأ في الرابعه صباحا حتى
يستطيع المنسحبون أن يهربوا تحت جناح الظلام •

وما حطمه البرتغاليون أسدل عليه ستار من النسيان بعد ذلك ولم يذكر البرتغاليون الذين أشاعوا الخراب في أفريقيا عن هذه القارة الا أنها أرض الذهب وملكته سبأ والغنى الفاحش للمغامرين . وكان لخراب التجارة في المحيط الهندي وتحطيم السواحل الأفريقية وتجارة العبيد والغزو الاستعماري والانحلال الذي تبع ذلك مآدى الى جعل تاريخ القارة غامضا

٢ - عرب أم أفريقيون ؟

قبل الاكتشافات الأثرية الأخيرة كان من المسلم به أن مدن الساحل في شرقي أفريقيا التي اختفت الآن ، لم تكن أفريقية بل عربية حتى أن سير « رجنالد كوبلند » الذي كتب تاريخ ساحل شرق أفريقيا أطلق عليها : المستعمرات العربية . وقد أشاع الى تأثير الفرس في هذه المستعمرات ولكنه اعتقد أن التأثير الأفريقي كان ضئيلا أو لا وجود له ، وأيد كثيرون هذا الرأي . وقد أشار باربوزا البرتغالي في أول عهدهم بغزو الساحل الشرقي لأفريقيا الى أن هذه المدن كانت دولية بمعنى أنها كانت تضم خليطا من الهنود والفرس والعرب والأفريقيين من قلب القارة ، ألا أن اللهجة العربية كانت هي الغالبة ، وقد وصف باربوزا طريقة تجارتهم فقال : كانوا يتنقلون في سفن صغيرة يسمونها « زامبوكس » من ممالك « كلو ومباسا ومالندي » يحملون الملابس القطنية والحراير كانت تأتي اليهم من ممالك كومي العظيمة في سفن كبيرة .

وكانوا يتاجرون - وهو يقصد هنا عدن وجنوب الجزيرة العربية - في القطن والادوية والصمغ واللؤلؤ والنحاس والفضة بكميات كبيرة ، والسجاجيد الملونة من مكة والارز والسكر وجوز الهند وخشب الصندل حتى انه اعتبر هذه المنطقة أعظم منطقة تجارية في العالم ، وبرغم أن هذه المدن التجارية قد اختفت الآن ، الا انها كانت تثير الإعجاب : وتدل اطلال كوى التي وصل اليها سير مورتيمر ويلر سنة ١٩٥٥ على أنها كانت تمتد مالا يقل عن خمسة وثلاثين هكتارا وانها كانت تضم قصرا ومتازل من الحجارة وسبعة مساجد . وكانت هناك مدن كثيرة كهذه . وفي « جنجومنارا » التي ترجع للقرن الثالث عشر وجد مايتو قبأبا على أعمدة وقاعات فسيحة وفي مثل هذه المدن كانت تصل تجارة الشرق القديمة ، ويصف بالابوذا مدينة رنبال فيقول : ان سكانها أغنياء ومتميزون وكانوا يستعملون حجرة الاستقبال في منازلهم التي تقع في مقدمة المنزل وكانوا يضطعون على الأرفف انواعا جديدة وجميلة من الخزف . وكانت المنازل والقصور في « كيلوا ، وكوى ، وجينجو ، ومنارا ، ومباسا ، ومالندي » على هذا النمط مليئة بالتحف المستوردة من كل مكان من فارس ونيسابور والصين والهند ومكة والشرق الاوسط . ويفسر كثرة الاحتكاك البحري في هذه المنطقة تناقض الآراء حول سكانها عندما شاهدتهم الاوروبيون .

وكان اول القادمين الى هذه المنطقة من غير الأفريقيين ، الأمراء العرب في جنوب الجزيرة من سلالة ملكة سبأ . وكانوا يأتون للتجارة لا للغزو ، وكانوا قلة ولكنهم كانوا يداومون في تجارتهم واختلطوا بأهل الساحل وتزوجوا منهم وأقاموا محطات تجارية . وفي منتصف الألف سنة التي

سبقت ميلاد المسيح بدأ الطابع العربي يظهر على الشاطئ ، ولم يفقد هؤلاء العرب شخصيتهم المميزة تماما ، وكانوا يدعمون بالوافدين من جزيرة العرب والخليج الفارسي وانبثقت عن وجودهم الثقافة السواحلية وهي تتابع أصيل لآراء ومعتقدات غير أفريقية ، ظلت أساسا وبصفة دائمة ورغم ذلك أفريقية تنتمي للدول التي تتحدث بالبانسو في أفريقيا . وقد استمدت هذه الحضارة أصولها من مصادر عدة ولكنها بقيت بعد ذلك أفريقية في مجموعها . وإذا أردنا أن نوضح هذه الصورة قليلا فاننا نقول أن الحياة انبثقت في هذه المدن وكانت أصولها الواضحة ترجع للهنود والفرس والعرب والأندونيسيين والملاويين والأفريقيين .

في سنة ١٣٣١ يصف ابن بطوطة « كلوا » بعد أن زارها فقال انها واحدة من أجمل المدن وأحسنها بناء . وان أغلبية سكانها من الزنج ذوي اللون الأسود وعلى وجوههم علامات الوشم ، وإذا كان هذا صحيحا بالنسبة « لكلوا » فانه لا شك ينطبق على المدن الداخلية ، هو ماتويده الشواهد ويصف باربوزا حاكم مالندي مثلا بأنه أسمر اللون . بيد أن الشواهد تثبت بعد ذلك أنه سواحلي وهو يجد في برافا سنة ١٥٠١ مدينة عظيمة للسمر . بيد أن نجد حتى الآن أن اللغة انسانية في المدينة هي السواحلية وليست العربية .

لقد كانت الثقافة العالمية في المدن الساحلية ثقافة أفريقية دائما . وتثبت هذه الحقيقة الحضارة السواحلية التي لم تلق الاهتمام الكافي خارج شرقي أفريقيا . والشعراء هناك كانوا يكتبون قصائد الشعر التي تسمى « بالمشاييري » أو القصائد الغنائية حتى سنة ١٦٥٥ تقريبا وكانوا يكتبونها باللغة السواحلية ، وهي لغة أفريقية أصيلة ورغم كتابتها بحروف عربية . واستمر الشعراء يكتبون « المشاييري » والتيندي لقرون عدة بعد ذلك وما زالوا يكتبونها حتى اليوم وربما صاغوها على أسس أجنبية ، وشاكسير نفسه فعل ذلك . وقد وضعت كتب كثيرة في شرق أفريقيا باللغة السواحلية في ممباسا ، وبثيت ، وكيلا « وفي سنة ١٨٢٤ كتب امري يقول : انه وجد أن اللغة السواحلية تستخدم عادة في ممباسا كل ذلك بطبيعة الحال ورغم الإقامة العربية الطويلة في هذه المناطق .

ليس هذا فحسب ، بل ان فن المعمار في هذه المناطق من الساحل الأفريقي كان فنا أفريقيا خالصا ، كما يقرر ماثيو . بعد اكتشافاته الأثرية هناك كل ما يمكن أن يقال خلاف ذلك أنه كان فنا أفريقيا تأثر تدريجيا بالفن الإسلامي ويقول ماثيو أيضا في هذا الصدد : ورغم أن حضارة الساحل في القرنين الثالث عشر والرابع عشر أصبحت حضارة إسلامية في كل أوجهها ، إلا أن هذه الحضارة ظلت تبدو فيها الآثار الزنجية القديمة .

٣ - خطوات الى الداخل :

إذا كانت تجارة المحيط قد ساعدت على تطوير الحضارة الأفريقية الساحل أفريقيا الشرقي في القرون الوسطى ، فماذا فعلت بمن وراءهم الى

الداخل هل من الممكن تتبع تاريخ هذه المناطق الداخلية في القرون الوسطى . أسئلة تصعب الاجابة عنها اجابة شافية لقللة الابحاث الاثرية ولاسباب أخرى كثيرة .

اننا في الجزء الباقي من هذا الكتاب سنحاول جهدنا أن نجيب عن هذه الاسئلة وهي محاولة جديرة بالجهد لان الطابع الافريقي سوف يكون هو الغالب في هذه المناطق الداخلية الى الجنوب والوسط من أفريقيا ولحسن الحظ أن هناك حفائر جديدة قد سهلت بحثنا ، مثل تلك التي قام بها «كلارك» عند شلالات كالامبو التي وضعت أسس عصر الحديد بأفريقيا أفريقيا الجنوبية في اطار جديد يمكن تفهمه . ومثل غيرها من الابحاث التي ألفت مزيدا من الضوء على هذا الموضوع .

الفصل الثامن

مابعد آكسوم

١ - عظمة أثيوبيا :

فى سنة ١٥٤١ كان «مويتو جينيتلوم» الابن الرابع لغاسكودى جاما الذى عرفه التاريخ باسم « كريسستوفر » على رأس حملة برتغالية الى أثيوبيا . تضم ٤٥٠ جنديا برتغاليا . وذلك بدعوة من امبراطور الحبشة . لمساعدته فى التغلب على غارات المسلمين فى أرض الصومال . وقد نجحت الحملة فى تحقيق هذا الهدف لامبراطور الحبشة وان كان هذا العمل قد كلفها حياة كريسستوفر نفسه وحياة كثير من أفرادها . ولم يكن انتصار هذه البعثة على المغيرين على أرض الصومال . الا بفضل ما كانت تحمله من أسلحة نارية لم تكن موجودة لدى المسلمين فى تلك الايام .

وقد كتب « كاستنهورزا » أحد أفراد هذه الحملة وصفا مفصلا لما رآه خلال اقامته بالحبشة . لعله أمتع ما ذكر فى هذا الصدد ويمكن أن يقدم لنا أساسا للتاريخ الاثيوبى ، تاريخ هذه الأرض التى تحول أبنائها الى المسيحية منذ أكثر من ألف ومائتى عام . والحق أن تاريخ أثيوبيا تاريخ حافل يدعو الى الدهشة . ان التاريخ يذكر اسم الامبراطور « نيجوس » امبراطور أثيوبيا فى القرن الثالث أو الرابع الميلادى حيث تشير آثار « حميرية » الى معاهدة بين دولة « حمير » فى جنوب الجزيرة العربية ومن النجاشى ملك الحبشة وآكسوم .

أما الاحباش أنفسهم فقد وردت أول اشارة عنهم فى فترة حكم الاسرة الثامنة عشرة المصرية القديمة (١٥٨٠ - ١٣٥٠) قبل الميلاد حيث تشير آثارها الى التجارة مع بلاد بنت . وأرض الحبشة هذه كانت جزءا من بلاد بنت فى الايام التى كانت فيها سفن « حيرام » ملك « صور » (بالشرق الادنى) تجوب البحر الاحمر ذهابا وايابا . تحمل معها ثروات بلاد الدوفير الى دولة اسرائيل القديمة وبالرغم من هذه الصلات التاريخية كلها فقد ظلت الحضارة الاثيوبية . . شيئا خاصا بأثيوبيا . . وقد ظلت أثيوبيا كذلك تحسب لها كل حساب فى ميزان القوى العالمية ، مثلما كن الامر بالنسبة للكوش . وان ظلت فى هذا المضمار زمنا أطول مما أتيح لامبراطورية كوش .

ولا شك أن أثيوبيا ظلت كذلك تؤدى دورا هاما فى هذا الجزء الساحلى من افريقيا حتى أيام الغزو الفارسى لجنوب الجزيرة العربية ولا شك أيضا أنها ظلت تقوم بهذا الدور نفسه حتى انتشار الاسلام الذى أغلق البحر

الاحمر فى وجه أى سفن غير اسلامية ، ثم جاءت بعد ذلك أيام انهيارها حيث تختفى أثيوبيا المسيحية من وقائع التاريخ منذ القرن السادس الى الرابع عشر الميلادى . وحيث تختفى أكسوم ليحل الامهريون شعب الجبال الوسطى ومنطقة اليتجرى - محلهم فى أثيوبيا حتى اليوم ومن اعبت أن نحاول تتبع تاريخ أثيوبيا فى هذه الفترة الغامضة التى لا تغنينا فيها الوثائق ، فلم تبدأ البحوث الاثرية الا فى هذه الايام فقط . وان كانت هذه البحوث قد ألفت شيئا من الضوء فى هذا الصدد وربما استطعنا أن نقرر استنادا الى بعض ما كشفت عنه الابحاث الاخيرة أن أكسوم والشعب الامهرى كانتا جميعا القناة التى عبرت خلالها الافكار والخبرات الى داخل افريقيا ، حتى وصلت بعيدا الى الجنوب وربما كان من الممكن أيضا أن نعتقد أن المهارة فى اقامة الابنية الحجرية التى ميزت حضارة القرون الوسطى فى افريقيا الشرقية الوسطى والتى أسست « زمبابوى » العظمى قد مرت خلال هذه المنطقة من جنوب الجزيرة العربية الى جنوبى افريقيا . وربما كانت عادة تخطيط الجبهة باندبات واضحة حتى اليوم فى جنوبى أثيوبيا ، شيئا يعود بأصوله الى ما كان معروفا فى غربى افريقيا وقد تكون الابنية الحجرية العالية فى « سيداما » ذات صلة وثيقة بمبيلاتا فى غربى افريقيا وشرقها ، فى المنطقة التى تعرف حاليا بروديسيا . كل هذه أمور محتملة وليست مؤكدة ، وتعود بنا مرة أخرى عند مناقشتها الى الماضى البعيد .

لقد غزت الشعوب السامية فى جنوب الجزيرة العربية أراضي أثيوبيا قبل عدة مئات من السنين من بدء المسيحية وكونت حضارة أثيوبية جديدة تعكس مقومات حضارات البلاد التى وفدت منها . وتبدو معالم من هذه الحضارة فى « ييها » وتعود الى القرن الرابع الميلادى وتكشف عن تحول الى عبادة الالهة الوثنية « ناوورا وأشتاد » والاخيرة هى الالهة « عشتروت » نفسها « التى عبدها سليمان بتأثير من زوجاته الاجنبيات » على أن الآثار الحبشية والمصرية القديمة كانت موجودة قبل هذه الغارات السامية ، ومن ثم استطاعت أكسوم ان تأخذ من حضارتها جميعا لكى تكون لنفسها حضارة خاصة بها ، هى الحضارة التى ميزت أكسوم والتى جاءت مثلا آخر لشعب استطاع أن يذيب الغزاة ويكون لنفسه حضارة جديدة . ولقد اتسعت رقعة امبراطورية أكسوم بعد ذلك ، واتسعت تجارتها فى البحر الاحمر ، وأصبح مينائها « أدوليس » على درجة كبيرة من الاتساع فى القرن السابع الميلادى ، عندما وصفه زائر يونانى بأن له علاقات تجارية واسعة مع الهند وسيلان ، وكانت قوافل التجارة تسير عبر أراضي أكسوم فيما وراء « أدوليس » الى الداخل ، حتى نهر عطبرة وحتى النيل الاوسط ومرو وكانت التجارة موضع منافسة ونزاع بين أكسوم وكوش وقد أوردت وثائق مرو تفصيلات الحرب التى قامت بين البلدين على أيام الملك الكوش « حارسيو تيف » (٣٩٧ - ٣٦٢) قبل الميلاد والملك « ناستاسين » (٣٢٨ - ٣٠٨) قبل الميلاد . ولكن أكسوم هى التى انتصرت أخيرا فى هذه الحروب على يد ملكها « آيزاناس » الذى تحول الى المسيحية فى أواخر أيامه على أيدي القساوسة البيزنطيين . ولقد كان هذا التحول شيئا على جانب

كبير من الاهمية ، ليس فقط من الناحية العقائدية ، فقد ساعد مملكة أكسوم ومن بعدهم خلفاؤهم الامهريون على الاحتفاظ بمكانة خاصة بين جيرانهم . وان كان هذا يعنى حروبا دينية متصلة معهم .

وقد كان من اثر انتشار المسيحية في هذه المنطقة ، ان برزت ثقافة وحضارة جديدة تختلف عن حضارة الوثنيين أو المسلمين ، الى الجنوب والشمال وشرق . بيد ان هناك ثلاث مظاهر للحياة الاثيوبية تجدر الاشارة اليها لأهميتها في تسجيل ما حدث الى الجنوب ، وهذه المظاهر هي المدرجات على جوانب التلال وعادة بناء القلاع والقصور المحصنة على قمم التلال المنحدرة ورمز اله الاخصاب وهذه المظاهر تصادقنا كثيرا حتى اننا لا نستطيع أن نغفل وقوعها . والزراعة على جوانب الجبال المدرجة والرى المناسب لهذه الزراعة مظهر لا يمكن فصله عن الحضارات الاولى التى قامت في شرق . وجنوب شرقى افريقية ، فقد استخدمت هذه الوسائل منذ وقت طويل في جنوبى الجزيرة العربية في الزراعة . ويمكننا حتى في العصر الحاضر أن نرى هذه الطريقة على جوانب جبال دارفور . وقد عثر الباحثون سنة ١٩٥٨ على هذه الطريقة خلال ابحاثهم في مساحة تبلغ ١٢٠٠٠ ميلا مربعا وتمتد في الجبال جنوبى الصحراء لجبل « مارا » وجبل « موسى » ولحدود « وادى » وتتبعوها بمشقة حتى حافة البركان الساكن في جبل مارا ، حيث لا يعيش أحد أو يزرع الآن . وكانت الزراعة في اثيوبيا على جوانب الجبال تتبع الطريقة نفسها . وقد كتب « بنت » عندما زار « بتجى » سنة ١٨٩٣ يقول ان الجبال المحيطة قد درجت كلها تمهيدا لزراعتها ، ولم أر شيئا كهذا في أى مكان من اليونان أو آسيا الصغرى حيث يدرج جانب صغير من الجبال ، أما في اثيوبيا وفي هذا الوادى الجبشى ، فقد زرعت مئات الآلاف الهكتارات بهذه الطريقة حتى قمم الجبال تقريبا . ولم تكن زراعة جوانب الجبال بهذه الطريقة مقصورة على شمالى اثيوبيا فلقد عثر على مدرجات زراعية دقيقة في جنوب غربى اثيوبيا أعدها الشعب الزنجى الوثنى - شعب كونسو :

وكان هذا النوع من الزراعة يبدو غربيا بالنسبة لافريقيا الشمالية ، الا انه ثبت بعد ذلك أن هذا الرأى غير صحيح . فنحن نعلم الآن أن الشعوب التى اختفت ، زاولت هذه الطريقة الزراعية حتى « ليمبوبو » جنوبا وامتدت فشملت كينيا وتنجانيقا وروديسيا وموزمبيق . وتبدو مهارة الاثيوبيين أيضا في البناء دون استعمال « المونة » ، حيث يوجد هذا النوع من البناء أيضا ، في القرن الافريقى . ويستخدم شعب كونسو حتى اليوم هذه الطريقة . كما يقومون بزراعة مدرجات على جوانب الجبال . والى الشرق في بلاد الصومال تخفى السهول أطلال مدن قديمة ترجع للعصور الوسطى لم يمكن معرفة أصولها التاريخية حتى الآن بشكل حاسم . وفي سنة ١٩٣٤ عثر « كيرل » وهو يحاول أن يجد تفسير التداخل الحضارات والثقافات

دار مور ثم إلى الغرب أبعد من ذلك في « كومبي صالح » وهي أحد المواقع المقترحة لعاصمة غانا القديمة . ومرة أخرى تواجهنا حقيقة التداخل والاتصال الفكري بين بلاد بعيدة يبدو وكأنه لم يحدث بينها اتصال في أي عصر من عصور التاريخ أو كأنها لم تشترك في تاريخ واحد إلا أنه لا يمكننا أن نحدد زمن حدوث هذه التأثيرات والطرق التي أتبعها ، وكيفية حدوثها . والظاهرة الثانية التي أشرنا إليها هي رموز الخصب « الكثيرة » في آثار إثيوبيا القديمة . فالى الجنوب من أديس أبابا وفي وديان « سيدما وبورما » والتي تؤدي لشمالى كينيا نجد أنصبا جبرية ترمز لأعضاء الإخصاب وتبلغ فى ارتفاعها أحيانا عشرة أقدام أو اثنى عشرة قدما . وتحمل نقوشا محفورة لرموز لا يمكن تفسيرها ولا يعلم أحد زمن إقامتها . ولا يعرف السكان الحاليون شيئا عنها ويتكرر عثورنا على رموز الإخصاب في هذه المناطق فنعثر على بعضها في جزر « باجيونى » بالقرب من ساحل الصومال وفي « باحامبو » فى تنجانيقا .

وقد أرجع بعض الباحثون استعمال هذا الرمز لتأثير اندونيسيا
 الا أن أغلب الباحثين فضلوا الصمت ، فقد كان استعمال رمز الإخصاب
 أمرا شائعا في الحضارات القديمة . والظاهرة الثلاثية في أثيوبيا وهي
 بناء القلاع والمساكن على قمم الجبال المنحدرة ونشهد ذلك في روديسيا
 الجنوبية وأنجولا وفي بنشوانا لاند جنوبى افريقيا . وهذه الظاهرة
 الى جانب أهميتها الدفاعية فى حماية البلاد فانها تشير أيضا الى تأثيرات
 ثقافية ناتجة من الهجرة ويشهد على ذلك مثالان فى منطقتين يفصلهما
 ألفا ميل .

فحين قدم كريستفاودى جاما « لمساعدة الاسرة المالكة الاثيوبية سنة ١٥٤١ وجد الملكة الام تعيش على قمة جبل شديد الانحدار ، وهو جبل « دبرارامو » وكان بناء القصور فى اثيوبيا القديمة ، يتم فوق قمم الجبال لاسباب تتعلق بالامن والسلامة . وكان الملوك يستقلون ذلك ايضا فى سجن أعدائهم ومنافسيهم على العرش . وفى سنة ١٩٣٢ عثر أحد الفلاحين البوير « فان جران » فى مجاهل الترنسفال على مكان قيل انه يحوى كنزا على قمة أحد التلال على الضفة الجنوبية على نهر « ليمبو » . وقد حاول هو وابنه مدة طويلة أن يجد طريقة ليصعد بها الى قمة هذا التل وأخيرا تمكن من اغراء أحد الاهالى من الوطنيين ، ليداه على ممر سرى يصل به الى القمة . وشق طريقه من السفح حتى القمة خلال أشجار كثيفة حتى وصل القمة وعثر على الكنز الذهبى الذى عرف بكنز « مابونجوبوى » . وهنا نستطيع أن نسجل تشابها ما بين بناء « دبرارامو » وكنز « مابونجوبوى » — ويدل هذا التشابه ، كما دلت الشواهد السابقة على وجود تبادل فى الآراء والمعتقدات على مساحات شاسعة ، وخلال فترة طويلة ، ويرتبط هذا التشابه بالهجرات فى افريقيا القديمة من الشمال الى الجنوب . وهذا هو التفسير الوحيد لهذا التشابه والترابط الذى يبدو واضحا فى جهات نائية من أجزاء القارة الافريقية كما أسلفنا .

اينجاروكا : -

في سنة ١٩٣٥ ابلغ أحد الضباط عن وجود أطلال مدينة كبيرة وسط التلال على الحدود بين كينيا وتنجانيقا تبعد عن الساحل بنحو ثلثمائة ميل . وكانت هذه المدينة تقع على قمم مجموعة من التلال بجانب الوادي الذي يقع على الجنوب الغربي من بحيرة « ناترون » وكان من العسير الوصول اليها لوعورة الطريق وكثرة النباتات والاشواك . وقد اثار هذا الكشف اهتمام الدكتور « ليكي » الذي كان يقوم بأبحاثه الاثرية في كينيا في ذلك الوقت وقرر أن يستقصى الامر بنفسه . وقد اكتشف ليكي أن اينجاروكا لم تكن مجرد مقابر وأطلال فقد وجد مدينة بأكملها ، بأطلالها ومبانيها وقدر عدد المنازل الموجودة بحوالى ٦٥٠٠ منزل تكون الجزء الرئيسى من المدينة وتقع على منحدرات هذه التلال . كما عثر في الوادي على أطلال ٥٠٠ منزل أخرى وقدر عدد سكانها بنحو ما بين ثلاثين الى اربعين ألف نسمة . وقد وصف ليكي هذه المدينة فقال ان المنازل التى تكون الجزء الرئيسى منها مبنية بحجارة ضخمة . لها شرفات واسعة وممرات تربط بينها وهناك سور عال ومدرجات كانت تزرع على جوانب التلال ، الا أنه لم يجد نقوشا تعاونه في البحث ، كما أنه لم يجد عظاما أيضا . والسبب في ذلك أن التربة هناك لا تساعد على حفظ العظام .

ويعتقد ليكي أن اينجاروكا هذه تم بناؤها منذ ثلثمائة سنة تقريبا ، وربما قبل ذلك التاريخ . وربما بناها شعب المبولو ، الذى يقطن المناطق المجاورة ، وربما كان الماساي قد أغاروا عليها من الشمال وأشاعوا فيها الخراب وقتلوا سكانها وقد أشار « فوسبروك سنة ١٩٣٨ الى التشابه الغريب بين أطلال اينجاروكا ومبان أخرى حجرية في قرى « سونجو » التى تبعد خمسين ميلا عنها . وقال ان تقاليد الماساي تربط بين سكان « اينجاروكا » و« سونجو »

وتعتبر مدينة « اينجاروكا » الاثرية من أهم الاكتشافات في شرقي أفريقيا ، وسواء أكانت تعود الى عصر متأخر نسبيا أم لا فانها اتصلت ولا شك بالحضارة الآزانية في كينيا كما أشار « هنتنجفورد » الى ذلك في سنة ١٩٣٣ وأهميتها تتلخص في أنها توضح لنا أساليب حضارات العصر الحديدي في افريقيا وكيف نمت وازدهرت خلال العصر الوسيط وما قبله في كينيا وتنجانيقا وداخل افريقيا فيما وراء الساحل . وهنا نتساءل ، هل كانت هناك صلة بين حضارات الساحل هذه والحضارة الآزانية في الداخل ؟ هل عاونت الاولى الثانية في حصولها على العاج والحديد وهل كان التجار على الساحل يجلبون بضائعهم من مدن مثل اينجاروكا ؟ اننا لا نستطيع أن نجد أجوبة شافية في هذا الصدد بيد اننا لا نستطيع أن نذكر الصلة التى كانت موجودة بين تجار الساحل والداخل .

وتروى قصص التجارة في كتاب « بير بولوس » الذى سبقته الاشارة اليه أن الصلة كانت دائمة بين المستعمرات الساحلية وبين الممالك الداخلية . فقد وجدت أوانى فخارية في ساحل كينيا ؟ ترجع

تواريخها إلى القرن الرابع عشر الميلادي وما قبل ذلك . وهي تشبه ما تم العثور عليه في « زمبابوى » و « ماجونجوبوى »

وقد كانت مدينة « كيلوا » في العصر الوسيط تقع على الساحل على نهاية طريق قديم من طرق القوافل يربط بينها وبين منطقة البحيرات العظمى وربما إلى أبعد من ذلك . وحتى الآن لم يجد علماء الآثار أجوبة على تفاصيل العلاقة بين الساحل والداخل وإلى أن يتمكنوا من الإجابة عن هذه الأسئلة فإنه من الثابت برغم ذلك بالشواهد الأثرية ، أن شعوبا على قدر من التدين والمهارة في استخدام الحجارة وممارسة الزراعة على سفوح الجبال وبناء المساكن وصناعة الحديد والمعادن الأخرى قد عاشت فيما إلى الساحل من الصومال إلى موزمبيق . هذه الشعوب كانت على الأرجح من « الزنج » الذين كانوا وحاكمهم في الجنوب يصدرون تجارتهم إلى المناطق الساحلية . « واكليمي » الذي وصفه السعودى في كتابة « مروج الذهب » من ألف سنة .

٣ - طرق كينيا القديمة :

تختفى آثار حضارات القرون الوسطى في شرقى افريقية ، كلما زاد عدد سكانها ونمت الزراعة ، ولم يكتب كثيرون عن هذا الموضوع ، إلا أن ويلسون تحدث في كتابه سنة ١٩٣٢ عن ثلاث مساحات رئيسية للزراعة على جوانب التلال في تنجانيقا حول بحيرات « ناثرون » « وآباسا » إلى الشمال وبالقرب من حدود كينيا ، وإلى الشرق بين كيلازا « » وكياكى .

وقد أشار ويلسون إلى أن الأهالي ما زالوا يزاولون هذا النوع من الزراعة على سفوح التلال . وقد وصف هذه المدرجات المزروعة فقال ان عرض أكثرها ارتفاعا يبلغ حوالى قدم ، والمسافة بينها حوالى ثلاثة أقدام وأن طرقا كثيرة كانت موجودة - ومدرجة يبلغ عرضها من عشر أقدام إلى اثنتى عشرة قدما . ويعتقد ويلسون أن - أطول هذه الطرق الآزانية ربما كان يربط ما بين رأس بحيرة نياسا في اتجاه « أبو كورن في روديسيا الشمالية » وبين « آروشا » ونيرونى في مرتفعات كينيا البيضاء حتى أنها كانت تمتد قرابة خمسمائة أو ستمائة ميل من الشمال إلى الجنوب . وقد أشار « وورسلى » و « ورامبورجر » إلى هذه الطرق فقال « ان عرضها حوالى تسع أقدام وأن قطعا من الحجارة كانت تحدد كل طريق » . ويعتقد ويلسون أن هذه الطرق توحى بنظام للمواصلات يمتد من الشمال إلى الجنوب على الساحل الشرقى للبحيرات العظمى إلا أنه يقول أنه لم يستطع تحديد الطرق التي كانت تؤدي إلى الساحل ، إلا أنه لا حاجة به لاثبات وجود الطرق الساحلية التي أبدتها الشواهد الأثرية كما أسلفنا ، في التشابه بين الأنية الفخارية في « ماليندى » - « وزمبابوى » ولم تجر حتى الآن اكتشافات أثرية وافية في هذا الموضوع تزيد من معلوماتنا .

وفي كينيا وجد « هنت تجفورت » آثارا وسط الخضرة الزراعية حيث عاش شعب كبير في منازل من الحجارة ذات انماط كثيرة « في مناطق يعيش فيها الاورييون الآن » تحيط بها أسوار دائرية من الحجارة ، ولاحظ نوعا من التخطيط في بناء هذه المساكن التي كانت تربط بينها طرق عدة . وكانت هذه الطرق تتدرج في ارتفاعها وهي تمر بسفوح الجبال وتخترق أراضي المستنقعات على جسور أعدت بعناية في كينيا وتنجانيقا . وكانت الزراعة والرى تعتمدان على قنوات ومدرجات وأسوار وحتى الآن لم يعثر في كينيا على قنوات قديمة الا في « ناندي » وأحسن مثال شهدته هذه القنوات واحدة عمقها خمس اقدام وعرضها ثلاث اقدام ومازالت شعوب السوك في « ماراكت تستخدم هذه الاساليب في الري » .

وفي سنة ١٩٢٨ اشار والسون الى الآبار التي عثر عليها محفورة وسط الحجارة الجيرية ، ويتراوح عمقها بين ١٦ الى ٤٠ قدما ومازال الرعاة في افريقيا يستعملونها الى اليوم . الا انها مظهر آخر للحضارة الازانية . وقد أرجع الكثيرون بعض مظاهر هذه الحضارة الى ظروف طبيعية ، على حين أرجعها الآخرون الى ظروف حضارية وانتصر الرأي الآخر بالشواهد التي تم العثور عليها والتي تشير الى شعب زراعي عاش عصر الحديد في سهول هذه المناطق .

٤ - التاريخ الازاني :

كان هؤلاء الزارعون أو الازانيون كما يطلق عليهم « هنتجفورد » على قدر من الحضارة تؤيده كل هذه الآثار التي تم العثور عليها . أطلال مساكنهم ومدنهم ومدرجاتهم الزراعية ؛ ووسائل ريمهم ، وطرقهم ، وقنواتهم ، وصناعاتهم الحديدية والمعدنية ، وتقوسهم على الحجارة . ولا يمكن القطع بوسائل الاتصال والتجارة بين هذه الشعوب وبين الاختراعات التجارية على الساحل فحين قدم الاورييون لأول مرة الى الساحل الافريقي ، وجدوا ان شعوب الساحل ، وخاصة السواحليين يحتفظون بأسرار هذه التجارة مع الداخل ويحتكرونها . وهذا يدل بدوره على صلة قديمة بين الساحل والداخل ، كما ورد في كتاب « بيريلوس » . واذا كنا لا نعلم الا انقليل عن الشعوب التي كانت تعيش في الداخل خلال عصر التجارة العظيم ، فهذا لا يعني أن التجارة نشأت فجأة ، ولم تسبقها فترة من النمو بين شرقي وجنوب شرقي افريقيا .

وقد عاصرت هذه الحضارة تأسيس « ريمبابوي » خلال حضارة الازانيين ونموها كما تشير الى ذلك الاواني الفخارية التي عثر عليها . واذا كانت شعوب الساحل قد حجبت هذه الشعوب في الداخل لاحتكار تجارتها الا انها لم تستطع أن تحجب شعوب الجنوب التي كانت أكثر تقدما في عصر الحديد مما أدى بنا الى معرفة الكثير عنها . وقد حدد « هنتجفورد » سنة ٧٠٠ ميلادية تاريخا تقريبا لبدء استخدام الحجارة في البناء واستخدام المعادن والحضارة الزراعية .

في كينيا وتنجانيقا . غير أن هذا التاريخ يشوبه الكثير من الغموض لأننا لم نعثر على أدلة كافية . ولأن هذه الحضارة كانت ولاشك نتاج تطور متصل لا ظاهرة عرضية مفاجئة . وربما كان هذا التطوير يتبط بالحركة القادمة من الشمال . وربما يمكن أرجاع أصولها الى جنوبي أثيوبيا ، حيث يحتفظ شعب « الكونسو » و « الكافا » على سبيل المثال ببعض المظاهر التي تميز الحضارة الآزانية حتى الآن .

ويقرر « هنتنجفورد » أننا يمكن أن نستخلص من ذلك وجود حضارة ازدهرت في القرن الأفريقي في حوالي القرن السابع الميلادي ، وإنها تأثرت كثيرا بحضارة سبأ وأكسوم و مرو . وأن انتشار الاسلام أنهى هذه الحضارة وصانعيها الذين تفهقروا صوب الجنوب الى كينيا . حيث لم ينتشر الاسلام الى أبعد من ذلك جنوبا وأن هذه الحضارة انتهت حوالي القرن الرابع عشر أو الخامس عشر ، وربما قبل ذلك . « ولا يتعارض تاريخ القبائل مع هذه النظرية ، فبينما تردد الاساطير القبلية في غربي افريقيا قصص الاجداد القادمين من الشرق ، تروى الاساطير القبلية في شرقي افريقيا عن الاجداد الوافدين من الشمال . ونحن لانقصد أن الاساطير القبلية يمكن أن تعتبر اثباتا علميا للحقيقة . إلا أنه من الثابت أن أنماطا من الثقافة والتفكير وصلت الى الآزانيين من الشمال ، وهم بدورهم غيروا فيها وأضافوا اليها حتى تلائم حياتهم . ويمكن هنا أن نشير الى أطلال « انجوداكا » التي ربما عادت أصولها الى أثيوبيا .

٥ - الآزانيون .. من هم ؟

كانت الفترة ما بين سنة ٥٠٠ وسنة ١٥٠٠ ميلادية تمثل قمة ما وصلت اليه التجارة من ازدهار بين شرقي افريقيا والدول البحرية في المحيط الهندي في الالف سنة الاولى التي تلت ميلاد المسيح ، وكانت تمثل أيضا قمة ما وصلت اليه حضارة عصر الحديد في شرقي وجنوب افريقيا ، وقادى هذا الازدهار الى تطور اجتماعي واقتصادي كبير وأدى ذلك في الجنوب الى سرعة استخدام الحديد وتقدير الزراعة وتطور المجتمعات القبلية وبداية الاستقرار الذي ساعد عليه تزايد الطلب من الساحل على المنتجات في داخل القارة مثل الحاجة والحديد والذهب والبضائع الأخرى . وتمثل « انجوداكا » نهاية مرحلة من التطور الحضاري البعيد فاذا أخذنا بقول « ليكي » من أن عدد سكانها بين ثلاثين وأربعين ألفا فان فلورنسا وصل عدد سكانها في هذه الايام نفسها الى ستين ألفا . هذا اذا كانت المقارنة عددية فحسب . ولم يكن من الممكن لهذا العدد الكبير من السكان بطبيعة الحال أن يعيش دون معرفة بالزراعة والمهارة فيها كما تؤيد ذلك الشواهد في « اينجوداكا » . ولم تظهر بعد كل الشواهد التي تبين مدى ما وصلت اليه هذه الحضارة الا أن ما أمكن الحصول عليه من شواهد يشير الى نهاية تطور حضاري طويل ، فلقد كانت الزراعة هناك قادرة على انتاج فائض من الطعام يكفي سكانها وعمالها الكثيرين .

— ذلك أنهم لم يعيشوا بالطبع بمعزل عن العالم ، فلقد كان الناس يسافرون في طرق ممهدة تمتد شمالا وجنوبا — ثم يستقرون في قرى هذه المدينة وما حولها — وقد تم اكتشاف مطاحن حجرية وأدوات زراعية أخرى كما تم العثور على أدوات حديدية وكميات كبيرة من الاوانى الفخارية ذات — المستوى الفنى الرفيع . . فمن كان هؤلاء الناس ؟ ولماذا توقف نموهم ؟ ربما استطعنا أن نجيب على الشطر الثانى من السؤال على أسس سليمة مقنعة أكثر مما نستطيع بالنسبة للشطر الاول منه . . فمئذ حوالى القرن الرابع عشر بدأ شرقى افريقيا يعانون سلسلة متوالية من الغزوات والهجرات من الشمال كانت تتكون أساسا من الرعاة الرحل الوافدين من « القرن الافريقى » مثل قبائل الجالا والصوماليين . والماساى وغيرهم . ويبدو أنهم تغلبوا على . — « الآزانيين » . المتفرقين وأخضعوهم لسيطرتهم . وأن كان ذلك لم يتم الا بعد فترة متأخرة نسبيا لاننا نفترض أن « اينجوراكا » كمدينة ليست موعلة في القدم ، وقد هزم الاكثر حضارة كما يحدث كثيرا في التاريخ على أيدي أناس اقل منهم حضارة وتغلبت خشونة الرجل على هدوء واستقرار المتحضرين .

وقد كتب ابن خلدون حوالى هذه الازمنة انه كلما تقابل جانبان على قدر متساو في العدد والقوة ؟ فان الجانب الاكثر خشونة وبداءة يتغلب على الجانب الآخر . وقد كان الآزانيون قوما رتبوا حياتهم في السلم والحرب متبعين تقاليد زنوج البانتو في الاستقرار . على حين كان الرعاة يتحركون بسرعة ويقاثلون بجماعات كبيرة . وقد حدث هذا الشيء نفسه بالنسبة لرعاة « باهيما » الذين غزوا أوغندة حوالى القرن الرابع عشر وتغلبوا على زارعيها المستقرين هناك ، والذين كانوا يملكون الارض . وقد أشار « كرازولارا » فى مؤلفه عن هجرات « اللو » الى هجرات الرعاة المتجهة الى الجنوب والى الاخطار والمصاعب التى مروا بها . وهم يجتازون حوض النيل الاعلى ؟ ويدخلون بلادا لم يعرفوها من قبل ويتغلبون على الشعوب التى كانت تعترض طريق تقدمهم .

كل هذا يشير الى الاجابة من الشطر الاول من السؤال . وهو الخاص بأصل الآزانيين غير أنه لا يمدنا بمعلومات كافية عنهم . فلم يكونوا هم المهاجرون الذين قدموا من الشمال فى اوقات متأخرة بل على العكس من ذلك ؟ لقد تغلب عليهم هؤلاء المهاجرون « كاباهيما » والماساى والنلوو وذلك خلال قرون طويلة لان « الباهيما » بلغوا ذروة قوتهم فى أوغندة حوالى ١٦٠٠ م على حين لم يبلغ الماساى ذلك القدر من القوة فى كينيا وتنجانيقا حتى سنة ١٨٥٠ .

وعلى الساحل كان السكان السواحليون وجيرانهم الذين يتحدثون بالبانتو والذين أطلق عليهم السواحليون بعد ذلك اسم « وانايسيكما » الذى تحول بعد ذلك الى تنجانيقا . وربما كان

أفريقيون في الداخل من بين الشعوب التي تتحدث بالبانسو . الا ان ذلك لا يحدد جنسهم بالضبط وربما كانوا من البوشمن من سلالات نوجية غير خالصة . وربما كانوا مزيجا من شعوب افريقية كثيرة . ولكن المؤكد انهم كانوا شعبا افريقيا خالصا . وكانوا على قدر من الحضارة والثقافة اعظم من البربرة الذين تغلبوا عليهم كما تشير الشواهد الى ذلك .

وكان الزارعون من بين شعوب افريقيا - ينظرون الى الحدادين - نظرة اعجاب واحترام شديدين ، بل كانوا يعتبرونهم طبقة متميزة . وحين قدم البرتغاليون الى الكونغو في نهاية القرن الخامس عشر ، وجدوا ملوك الكونغو ينتمون بحكم التقاليد الى رابطة . . الحدادين ! ذلك انهم كانوا يعتبرون هذه الصناعة سرا يحتفظون به . وفي بعض مناطق « الزولو » كانت المعرفة بصناعة الحديد مقصورة على عائلة واحدة يتوارثها ابناءؤها جيلا بعد جيل . وقد كتب « جرايولي » عن غربي افريقيا يقول « ان صناعة الحديد من اهم الصناعات القائمة في السودان الغربي وان فئة الحدادين فئة مكرمة . ولم يكن هؤلاء الحدادون يتقاضون أجرا من الزراع عن الآلات الزراعية التي يصنعونها أو يصلحونها . . ولكنهم كانوا يحصلون على قدر معين من المحصولات يعادل جهودهم . .

وبعد أن تغلب شعب باهيما على اوغنده واقام من امبراطورية « كيتواردا » حاكما على هذه المنطقة ، أخضع الصناع لسلطانه ، وقسمهم سبع فئات وكان الحدادون يكونون جزءا هاما من هذا التقسيم . وقد حرم « الباهيما » التزاوج بين الغالب والمغلوب ، الا ان ذلك لم يسر دائما بالطبع . وحرموا المغلوبين تملك البقر ، وحالوا بينهم وبين الوظائف ذات الاهمية والنفوذ . وكان المغلوبون وهم شعب « البايرو » يقدمون الطعام والعمل لغزاتهم . ولم يختلف موقف الاوروبيين كثيرا عندما قدموا الى شرقي افريقيا !!

وبهذه الطريقة تغلب البرابرة من الشمال على الحضارة النامية ، وعجلوا بنهايتها ولو كانت الحضارة القائمة أكثر رسوخا لامكنها أن تستوعب الغزاة وتطورهم وتجعلهم جزءا منها . الا أن نسيج الحضارة بشرقي افريقيا كان جديدا وضعيفا وبسيطا . فكانت هذه الضربات من الشمال قاضية عليها . وقد ساعد على هذا الانهيار للحضارة الآزانية انقطاع التجارة بينها وبين المحيط بعد تدخل الاوروبيين في هذه التجارة بعد سنة ١٥٠٠ .

الا ان مظاهر من هذه الحضارة تتضح هنا وهناك . كما ان التجارة على الساحل استمرت في نطاق ضيق . وقد كتب « ديتس » سنة ١٨٢٤ عن معرض تجارى - في « كاواجونفو » بالقرب من قلب القارة الافريقية اقامه الافريقيون وأشار الى المصنوعات الحديدية والعاجية والماشية التي كانت تكون الجزء الرئيسى من هذا المعرض .

وكان العرب يفضلون شراء الحديد من هذا المعرض عن شرائه من
السويد !

على أن هذه الحضارة لم تتطور إلا في روديسيا وموزمبيق
والترنسفال وذلك تحت تأثير ظروف أخرى وهجرات متتابعة ،
وكانت هذه الحضارة في الحقيقة جديرة بأن تحتل مكانا عظيما بين
حضارات عصر الحديد ، استنادا إلى ما تم اكتشافه من آثارها . أن
أفريقيا قد أسهمت بجانب كبير في قصة التطور الانساني مهما يكن
نوع هذا الاسهام .

الفصل التاسع

بناء الجنوب

١ - أرض عظيمة ممتدة :

كتب « باربوزا » سنة ١٥١٧ عن ساحل موزبيق قال « تقع خلف هذه البلاد الى الداخل « بينا ميتابا العظيمة » وهذه المملكة الوثنية هي نفسها التي أطلق عليها المراكشيون مملكة الكفار (وسكانها رجال سود يسيرون عراة) وقد حاول بعض البرتغاليين بعد ذلك أن يقوم بمحاولة جريئة للوصول الى هذه المملكة الداخلية التي سمع عنها الكثير وحاولوا التوغل في الداخل والتقوا برسل هذه المملكة الذين كانوا يرتدون جلود الحيوانات . ويتجهون الى سوفالا لشراء الملابس القطنية والحريرية وكان بعض هؤلاء الرسل من النبلاء الذين يجرجرون أذيال ثيابهم خلفهم وهم يسيرون في كبرياء ووقار (سيوفهم مدلاة داخل أغصان خشبية محلاة بالذهب أو بمعادن أخرى وكان بعضهم يحمل أقواسا وسهاما متوسطة الاحجام وتبدو عليهم مظاهر القوة والسرعة في القتال وكان بعضهم من كبار التجار) .

كانت الاحاديث تدور عند الشاطيء عن ممالك كثيرة في الداخل ولكنها كانت جميعا تشير الى « بينا ميتابا » كأعظمها وأقواها (فهي تقع على مسافة خمسة عشر أو عشرين يوما الى الداخل حيث ينتهي المسير الى مدينة زيمبوكي ذات المنازل المتعددة من الخشب والقش وسكانها وثنيون) .

وتقع « بينا ميتابا » هذه على مسيرة ستة أيام من هذه المدينة ويوجد طريق في الداخل يربط بين سوفالا ورأس الرجاء الصالح وفي مدينة بينا ميتابا يعيش الملك في قصر عظيم ويحمل اليه التجار البضائع المختلفة التي يجلبونها من التجار المراكشيون في مقابل الذهب ، وكان هؤلاء يحصلون على الملابس الملونة والمسابيح التي كانت تلقى لديهم رواجا كبيرا ، واليوم تقع الاطلال الضخمة لمدينة زيمبابوي في جنوب شرقي روديسيا على بعد ٢٥٠ ميلا من ميناء سوفالا القديم ولهذا لا نستغرب أن هؤلاء الرجال الاشداء والتجار كانوا يستطيعون الوصول الى الداخل بعد رحلة تستغرق ٢٦ يوما ويذكر لنا (ديموس) الذي ولد سنة ١٥٠١ . وهي السنة التي أبحر فيها نفسها باربوزا الى المحيط الهندي للمرة الاولى . يقول : هناك قلعة مبنية من الحجارة الضخمة التي لا تتخللها مادة بناء لاصقة وفي هذا السهل نفسه توجد قلاع أخرى بنيت « بالطريقة نفسها وبها قواد الملك وليس هناك ما يدل على أن البرتغاليين أو أي أوروبي قد وصل الى زيمبابوي

العظيمة وان كانوا فعلوا فاننا لا نملك ما يثبت ذلك ولكنهم بلا شك كانوا يعرفون الكثير عن هذه القلاع التي في الداخل وقد كتب « دهباروس » عن سكان هذه البلاد ومبانيهم ولغتهم (حيث ان الملك يستحوذ على كل المنشآت والمباني » وما زالت هناك مبان حجرية كثيرة وعظيمة تدل على المهارة في البناء في جنوبي أفريقيا الى يومنا هذا ، وكانت جوانب الجبال مدرجة ومزروعة على طريقة الازتيين في شرقي افريقية ، وقد تم العثور على مصنوعات معدنية (حوالى ٦٠٠ ألف أو سبعين ألف قطعة) وتوجد أغلب أطلال هذه المباني داخل مساحة الارض التي تمتد في الوسط والجنوب وتضم روديسيا والحافة الجنوبية للكونغو والحدود الغربية لموزمبيق وشمال الترنسفال ومن المؤكد أن الأبحاث التي تجرى في هذه المنطقة سوف توضح لنا المزيد من هذه البلاد بيد أننا يجب أن نوضح أن كل هذه الآثار ليست من صنع مملكة واحدة وربما كان ملك « بينا ميتابا » يسيطر نفوذه المباشر أو غير المباشر على كثير من هذه الممالك التي أصبحت فيما بعد موزبيق وروديسيا في وقت ما إلا أن هذه البقايا التي تشير الى حضارة « زمبابوى » تعتبر سجلا لحضارة طويلة معقدة ونمو اجتماعي وسياسي مضطرب فقد امتدت حضارة عصر الحديد في جنوبي أفريقيا عدة قرون وربما تكون هذه القارة قد بدأت منذ أكثر من ألف عام ، وربما تكون أصولها قد امتدت كذلك عبر سنين طويلة ونشأت على أنقاض حضارات أخرى أكثر قدما في القرن الخامس أو السادس بعد الميلاد حيث كانت الاكواخ تبني من الطين والقش .

أما المباني الحجرية والاسوار العظيمة لمدينة « زمبابوى » فلم تتم إلا سنة ١٩٥٠ أما « زمبابوى » نفسها فهي عاصمة لنظام من الاقطاع القبلى ساد هذه البلاد وازدهر حوالى سنة ١٢٥٠ وحتى سنة ١٩٥٠ وهناك موقع أثري هام هو « مابونبوى » الذى يقع الى الجنوب في « زمبابوى » على الضفة الجنوبية لنهر « ليمبوبو » في الترنسفال والذى نشأ على الأرجح قبل سنة ٩٠٠ م ولم يصبح مهجورا الا في القرن الثانى عشر .

زمبابوى :

زمبابوى العظيم عبارة عن مجموعة من الاطلال الحجرية التي تبعد سبعة عشر ميلا جنوبي شرق بيرت فيكتوريا وعلى بعد أميال قليلة من الطريق الرئيسى الذى يربط سالسبورى عاصمة روديسيا الجنوبية وجوهانسبورج في جنوبي أفريقيا وهذه الاطلال لها شهرة واسعة بين الاطلال الكثيرة في روديسيا لدقتها وفخامتها وحوائطها المرتفعة وأبراجها وبواباتها الدائرية وما تدل عليه من نظام مستقر قوى وموحد ومنظم .

وهناك بناءان من بين هذه الاطلال يقعان خارج باقى أطلال المدينة ويعرفان بالاكروبوليس .

وأول هذه الابنية كان فيما يبدو موقعا دفاعيا على قمة « تل » أما الآخر فيبدو أنه كان معبدا يقع على السهل المجاور وكل هذه الابنية مصنوعة من حجارة الجرانيت المحلية التي كانت تستخرج من التلال

المجاورة وكلها أيضا تنبئ عن القوة والعظمة وتبدو هذه الابنية لأول وهلة كما لو كانت من ابنية حضارة البحر المتوسط في أوروبا . معجاريها بعضها فوق بعض دون أن تلتصق بمادة بناء كما نرى فيما خلفته الحضارة الآزانية ، وأطلال جبل أورى في دارفور . ولكن الشيء الذى يميزها عن غيرها تلك السعة والفخامة التى تتميز بها حجراتها وكأنها محاولة من أصحابها لأن يبنوا بالحجارة نفس ما كانوا يبنونه من أماكن متسعة يسرها لهم استخدامها وهى تكشف عن دقة وقوة فى هذا المجال الذى يكشف بدوره المخلفات الحجرية التى جاءت نتيجة اهتمامهم بتسوية الحجارة قبل استخدامها وهى تكشف عن دقة وقوة فى هذا المجال الذى يكشف بدوره عن حضارة مزدهرة لعصر الحديد بدأت فى الألف الأولى بعد الميلاد تماما كما كان الامر بالنسبة للسودان الغربى ، وهو أمر يدل دلالة واضحة على رغبة أصحاب هذه المباني فى الدفاع عن أنفسهم ضد المعتدين ، ويدل كذلك على ما أتاحته حضارة عصر الحديد من تركيز للقوة والسلطة وحيات اجتماعية جديدة الى جانب مزيد من الخيرات وادفكار فى هذا الجزء من العالم طارت شهرتها جميعا حتى بلغت الساحل مع قوافل التجارة وانتقلت عن طريق التجارة البحرية الى أوروبا التى بدأ مثقفوها يقتنعون تمام الاقتناع أنه قد تم العثور أخيرا على عرش « برسترجون » (ملك افريقى عظيم فى أساطير أوروبية عن افريقيه أراد أن يوحد كل الممالك من حوله . ومهما كان الامر بالنسبة « لبرسترجون » هذا وسواء أكان هو برسترجون نفسه ملكا للمملكة المسيحية المفقودة التى ترددها الاسطورة أم غيره فان « موفوموتاجا » كان ولا شك على رأس نظام عقائدى لا يمكن اغفاله وان كان سيد افريقية من الداخل ولكنه كان أيضا سيد دولة قوية ذات نظام قبلى اقطاعى امتدت سيطرته عبر أرض لا تقل سعتها بحال من الاحوال عن امبراطورية مالى التى ورثها كاتمان موسى الذى سبقه بقليل . وربما لم يكن بلاط الملك مونوسوتابا متأنقا مثلما كان بلاط الامبراطورية الرومانية المقدمة أو كما كان بلاط انجلترا فى الازمان الغابرة .

وربما كان خدمه من الاميين ولكن ذلك لا يعنى بحال من الاحوال أن هذا البلاط لم يكن مثيرا ومسترعيا للنظر بالنسبة لأولئك الذين عاشوا فى هذه الايام .

ولم يثبت لنا حتى الآن أن أوروبا وحدها قد وصل الى هذا البلاط فلم يأت الى هذا المكان من العالم الخارجى الاتجار والمسافرون من الساحل من الافريقيين والعرب الذين لم يكتبوا شيئا عن زيارتهم ، وظلت طبيعة هذه الحضارة الداخلية بالهتها وعاداتها وأفكارها وتقاليدها ونموها الاجتماعى تتطور فى محيطها الداخلى . وانواقع أنها قد حققت فعلا تطورا عظيما ولكنه لم يكن تطورا جذريا يخل بالتقاليد المتوارثة عبر السنين لان الحضارات الخارجية لم يكن لها تأثيرها الكافى فى هذه المنطقة ولكن الشواهد تظل باقية ترمز الى عظمة بناء هذه الحضارة فى الجنوب رغم عزلتهم .

٣ - كنوز الملك سليمان :

عندما شاهد الأوروبيون « زيمبابوى » لأول مرة لم يصدقوا ما رأوه من أن الأفريقيين هم الذين بنوا الأسوار العالية واتقصور الشامخة هناك، وكان الصيادون والباحثون عن الثروة والرواد يذكرون ما يشاهدونه في هذه الأرض الشاسعة من عجائب وغرائب ، فقد كانت المباني هناك ترمز لحضارة عظيمة تضرب أصولها في التاريخ البعيد حينما كان الإنسان يبنى أكواخا بالطين والقش ولم يصدق واحد منهم باستثناء سيلوس - أن الأفريقيين استمروا في بناء منازلهم من الحجارة حتى نهاية القرن التاسع عشر إلا أن الغالبية استبعدت آراء « رندرز » وهو صياد جوال رأى « زيمبابوى » سنة ١٨٦٨ ، وموخ وهو جيولوجى ألماني وصل إلى زيمبابوى سنة ١٨٧٢ ، وأعلن لدى عودته أن الآثار التي شاهدها من صنع شعب متحضر عاش قديما في هذه الجهات .

لقد كانت القلعة التي شاهدها « موخ » على التل نسخة من معبد الملك سليمان على جبل « موريا » في حين كان البناء العظيم في الوادى نسخة من قصر ملكة سبا التي عاشت فيه في بيت المقدس في القرن العاشر قبل الميلاد ولم يصف زائرو هذه المناطق معلومات أكثر من التي ذكرناها حتى سنة ١٨٩٠ حين عسكرت سرية من الجيش البريطاني الذي كان يغزو ابتشوانالاند على بعد سبعة عشر ميلا من زيمبابوى العظيمة فقد كتب واحد من أفراد هذا الجيش يقول : « ان الانجليز يفتحون مرة أخرى كنز التاريخ » ثم استطرد يقول : « اننا نتوقع صورة الملكة فيكتوريا محفورة على الذهب الذي ناء بحمله عرش الملك سليمان وتوج به أعمدة معبده .

وكان لهذا الرجل عذرا فيما قاله فقد استعار البرتغاليون من قبل أسطورة عربية تربط بين ذهب « سوفالا » وذهب « أوفير » ولقد كان هؤلاء الرواد الأوائل سنة ١٨٩٠ يطمعون في العثور على الذهب ولم يصدقوا أن هذه الآثار والاطلال بنتها شعوب افريقيا اذ تعودوا دائما أن ينظروا إليها باحتقار ويصفوها بالبدائية والهمجية . وقد زادت الحروب والغزوات من هذه النظرة .

فقد كتب مراسل «ماتابيلي تايمز» يقول : « ان نظرية اصطياد الزنوج عند رؤيتهم لم تكن تعدو أن تكون وسيلة للتسلية . . . فقد كنا نحرق قراهم لمجرد أنهم من الاهالى الوطنيين . وكنا نطلق عليهم الرصاص لا لسبب الا لانهم سود . . . ولهذا لم يتصور هؤلاء الغزاة أن شعوب هذه المنطقة بنت « زيمبابوى » ذات الحضارة العظيمة . وقد اندفع الأوروبيون بعد ذلك وهم يتبعون أسطورة ذهب « أوفير » الى مناطق « بتشوانالاند . . . وفي سنة ١٩٠٠ وما قبلها بقليل طالب ١١٤٠٠٠ من الأوروبيين بمواقع تحوى أرضها ذهبا . وسجلوا طلباتهم في فاشونالاند « وماتابيلي لاند » وكان أكثر من نصف هذه الطلبات يعتمد على المواقع القديمة التي قيل ان سليمان كان يحصل منها على الذهب . وقد أضاع هذا الاندفاع نحو الذهب الشواهد الاثرية القديمة التي كانت لا تزال باقية حتى ذلك الوقت .

ولقد بدأ مكتشفه يدعى « يوسلت » نهب هذه الآثار والاطلال من سنة ١٨٨٨ . ورغم انه لم يعثر على ذهب كثير ، الا أنه وصف الآثار هناك ، ولاحظ أن الجمالين كانوا ينظرون اليها باحترام وخشوع - كانوا يجلسون ويحيونها بالتصفيق وفي سنة ١٨٩٥ أسس نيل وهو أحد المغامرين شركة مع اثنين من أصحاب رموس الاموال في جوهانسبرج (موريس جيفورد وجيفرسون كلارك) أسموها شركة « الاطلال القديمة » حصلت على تصريح بالتنقيب عن الآثار القديمة جنوبى نهر الزامبيزي . وقد حلت هذه الشرة سنة ١٩٠٠ بأمر من « سيسيل رودس » ولكن الضرر كان قد وقع . فلم يلق هؤلاء المغامرون بالا للاطلال أو لآى شيء سوى الذهب . وقد قرر « نيل » هذا سنة ١٩٠٢ ، أنه نقب في ٤٣ موقعا من مجموع ١٤٠ موقعا كان يعرف مقدما أنها موجودة . ورغم أنه لم يعثر الا على ما زنته ٥٠٠ أوقية من المصنوعات الذهبية الدقيقة مما يعتبر ذا قيمة أثرية أكثر منها مادية ، الا أن أحدا لا يعرف مدى ما عثر عليه بالضبط أمثال « نيل » من آثار ومصنوعات ذهبية صهروها وفقدت الى الابد . أو مدى الخسارة والخراب الذى حل بهذه الاطلال . غير أن الكنوز التى عثر عليها العلماء فى « مايونجوبوى » شمالى الترنسفال بعد ذلك بأربعين عاما تشير الى مدى عظمة هذه الآثار التى حطمها الغزاة الاوروبيون .

وهناك رأيان يتعلقان بهذه الآثار . الرأى الاول يقول : ان عمر هذه الآثار ثلاثة آلاف سنة على الأقل . وأن هناك فترتين من البناء . الاولى ترجع الى سبأ وتمتد من ٢٠٠٠ الى ١٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، والفترة الاخيرة فينيقية من ١١٠٠ قبل الميلاد الى وقت قصير قبل العصر المسيحى ، وبعبكس هذا الرأى الرواد الاوائل الذين لا يرجعون هذه الآثار للافريقيين الوطنيين ولا يصدقون أنهم شاركوا فى بناء هذه الحضارة والرأى الآخر لا يمت للخيال بصلة . مثل الرأى الاول . وهو يبحث فى أصل هذه الآثار نفسها وينادى بأن هذه الحضارة افريقية خالصة بناها اسلاف الافريقيين الذين يحكمهم الاوروبيون اليوم . وترجع الى تاريخ يقارب تاريخ غزو النورماندين لئسكسون فى انجلترا .

٤ - الحكم من الأدلة :

وقد نادت هذه المدرسة الاثرية العلمية بهذا الرأى على لسان « دافيد راندل ماكيفر » وهو من علماء الآثار المصرية الذين نقبوا فى اطلال روديسبا الجنوبية وقد توصل ماكيفر . الى أن « زيمبابوى » العظيمة وأشباهاها ذات أصل افريقى يرجع الى العصور الوسطى أو ما بعدها . وقد بنى رأيه هذا بعد التنقيب فى سبعة مواقع من هذه الاطلال . وقال ان الطراز الهندى للمباني سواء أكانت عسكرية أم مدنية لا أثر فيها للطابع الشرقى أو الاوروبى فى أى فترة من فترات التاريخ . كما أننا نلاحظ أن اطبع المساكن التى كانت تحيط بها أسوار حجرية وتكون جزءا لا يتفصل عنها كان طابعا افريقيا خالصا . ونلاحظ أيضا فى الاشياء التى تم العثور عليها باستثناء ما وصل الى هذه المناطق عن طريق التجارة .

وقد غضبت المدرسة الاولى من هذا الرأى الذى صدر عن حكم صحيح

وأوه
هناك،
هذه
ضارة
كواخا
يقين
الا أن
سنه
وأعلن
ما فى

الملك
حة من
الميلاد
سنة
نالاند
أفراد
« ثم
الذى

طورة
لرود
هذه
حتقار
سنة

زنج
حرق
سبب
لنطقة
بعد
...
واقع
وكان
يمان
ذهب

لأول عالم متخصص في الآثار يدرس هذه المناطق . وكان هذا الغضب
يخفى وراء أغراض سياسية وعنصرية واضحة . إلا أن الجمعية البريطانية
أوفدت بعد ذلك برقع قرن بعثة ثانية ترأسها الدكتورة « جرتروود » . كارنون
تومسون « للتنقيب في هذه الآثار وقد جاء تقريرها عن حضارة « زيمبابوي »
مؤيدا لما ذكره ما كيفر من قبل ، فقد ذكرت أن الشواهد الموجودة هناك
ترجع أصولها لحضارة البانتو « في العصر الوسيط . كما أكدت أنها
لا تستطيع أن توافق بحال من الأحوال على ما تردد كثيرا من أن حضارة
« زيمبابوي » ومبانيها قد شادها عمال وطنيون تحت إشراف جنس أرقى
قادم من بعيد . وربما كان هناك تأثير قادم من المدن الساحلية من العرب
والمسلمين إلا أن البناة أفريقيون . وقد صمد تقرير « جرتروود تومسون »
لكل الاعتراضات باستثناء نقطتين تتعلقان بتاريخ هذا العصر . إذ أثبتت
الأبحاث الراديو كربونية بعد ذلك أن تاريخ البناء والاستقرار بدأ قبل
العصر الوسيط الأوروبي . وأن سكان هذه المناطق الذين شادوا حضارة
« الزيمبابوي » المتقدمة ، ربما كانوا يختلفون عن خلفهم من شعوب
البانتو في أنهم كانوا خليطا من الهوتنتوت وانزويج . على حين كان أبناؤهم
أقرب إلى البانتو . غير أن هذا على أية حال لا ينفي أنهم كانوا أفريقيين في
المحل الأول . وقد ورد في كتاب « دي باروس » سنة ١٥٥٢ وكان يسجل
كلامه نقلا عما يسمعه وما يشاع أنه في وسط هذه البلاد ، توجد قلعة
مربعة الشكل مبنية بالحجارة ذات الأحجام الضخمة التي تلتصق بعضها
بعض بأية مادة من مواد البناء ، ويبلغ سمك حوائطها خمسة وعشرين شبرا ،
وإن كان ارتفاعها لا يتناسب مع سمك هذه الحوائط ، وتعلو باب القلعة
رسوم محفورة لم يستطع تاجر من التجار المغاربة أن يعرف ماهيتها أو ما ترمز
إليه . والقلعة محوطة بمجموعة من التلال تعلوها بعض القلاع الأخرى
المبنية بالطريقة التي لا تستلزم مواد البناء اللاصقة . . واحداها عبارة
عن برج يرتفع أكثر من اثنتي عشرة قامة .

والوصف على أية حال فيه مسحة من الخيال وربما كان مليئا
بالأخطاء . ولكن مما لا شك فيه أنه كان يصف « زيمبابوي » الباقية حتى
اليوم . ولو أنه من المؤكد أن الحوائط أعيد بناؤها فيما بعد . وقد دخلت
بعض الحواشي في هذا الوصف مثل الشكل المربع للقلعة . فليس هناك
ما يثبت وجود شيء كهذا في روديسيا . إلا أن الشواهد هنا أقوى منها في
أي مكان آخر تم اكتشافه في الداخل في كينيا أو تنجانيقا أو أوغندا .
والسبب في ذلك كثرة ما اكتشف في هذه المناطق ، مما يرجع إلى التجارة
مع الساحل الأفريقي على نطاق واسع . وليس ثمة شك في أن علاقة وثيقة
تربط بين التجارة وبين هذه الآثار الكبيرة التي تم العثور عليها .
أشارت « جوتروود تومسون » إلى أن الصلات التجارية مع الهند كانت قوية
ولا شك . وكانت في اعتقادها السبب الرئيسي لنمو حضارة زيمبابوي
فقد نمت مدينة أبناء هذه المنطقة بفضل تقدمهم في عصر الحديد ، وبفضل
انصلات التجارة الوثيقة التي كانت تربط بينهم وبين العالم الخارجي .
وقد ازدهرت للأسباب نفسها التي ازدهرت بسببها تجارة الساحل والتجارة
عبر الصحراء ، التي كان لها الأثر الكبير في حضارات السودان القديم .

وقد يتساءل البعض عن سبب تركيزنا على هذه النقطة بالذات . وهي أهمية التجارة بالنسبة لداخل افريقيا أثر من الساحل . أو الشمال . . . حيث تعتبر هذه المناطق أقرب الى الهند منها في الداخل . والسبب في ذلك أنه ستزیده الاكتشافات المستقبلية وضوحا . غير أن السذهب والنحاس كانا كثيرين في هذه المنطقة الداخلية ولم يكونا كثيرين على الساحل ومن ثم ازدهرت التجارة مع هذه المناطق ، وكان التجار يقدرون أهمية الذهب كما أوضح المسعودي كثيرا في كتابه « مروج الذهب » وكان هؤلاء التجار يترددون كثيرا على الداخل - ومن ثم أيضا - تركوا تأثيرا بالغاً على الحضارة الموجودة هناك ، وساعدوا على تطورها . وقد كانت هذه الحضارة في جنوبي وسط افريقيا حضارة تعتمد على المعادن في نموها ، وكان لابد إذن أن ترتبط بالتجارة على الساحل أشد الارتباط . فقد كانت أهمية هذه المعادن واضحة في كل المنطقة الجنوبية الداخلية من حافة الكونغو حيث كانانجا اليوم . . الى ناتال وبتشوانالاند التي بقيت مركزا لنمو وازدهار حضارة الزيمبابوى .

٥ - روديسيا في العصور الوسطى :

من هم اذن هؤلاء الشعوب ، ليس هناك في الواقع تحديد دقيق يمكن أن تستند اليه الإجابة عن هذا السؤال . تقول « جرتودومسون » : ان تأسيس زيمبابوى يعود الى زمن ما بين القرن التاسع والثالث عشر . زمن يبدو فيه واضحا استخدام الآنية الفخارية على نطاق واسع . ولكن جرتودومسون . تعتقد أن بدء البناء في « زيمبابوى » ربما كان قبل ذلك بقرن أو قرنين من الزمان . ومن ثم يمكن أن نقول أن حضارة زيمبابوى تعود الى الفترة نفسها التي كتب فيها المسعودي كتابه « مروج الذهب » وتحدث فيه عن ممالك الزنوج الساحلية ووصف أرض سوفالا التي تنتج الذهب والعجائب الاخرى بكميات وافرة .

ولقد ألفت سلسلة من الاختبارات الراديو كاربونية مزيدا من الضوء في هذا الصدد . هذه الاختبارات التي أجريت في شيكاغو سنة ١٩٥٢ وفي لندن سنة ١٩٥٤ على بقايا خشبية اكتشفت في أساس أحد حوائط مباني « زيمبابوى » فقد عادت هذه الاختبارات بقطعة الخشب الى سنة ٥٩١ ميلادية (مع مائة وعشرين سنة نقصا أو زيادة) والى سنة ٧٠٢ (مع اثنتين وتسعين سنة نقصا أو زيادة) وقد ظلت الأبحاث في « زيمبابوى » مستمرة ففي سنة ١٩٥٨ ، نقب كل من سمرز وروبينسون في أساس المبنى الذي سمي بالاكروبوليس ، وهو الذي سبقته الإشارة اليه ، وفي أساس بناء آخر على تل مجاور ، في محاولة لاكتشاف الطبقة الحاملة للإنسانية لهذه الأبنية الضخمة . وكانت « جرتودومسون » قد أشارت من قبل الى أن هذه الطبقة الحاملة هي من صنع البنائين أنفسهم وليست طبقة من طبقة الأرض نفسها وانها قد تعود الى القرنين الثامن أو التاسع عندما بدأ البنائون عملهم . ولكن سمرز وروبينسون أشارا الى أن هذه الطبقة الحاملة تدل على أن قوما آخرين قد استوطنوا هذه المنطقة ووضعوا أسس البناء فيها .

ويشير هذا كله الى أن الشعوب التي عاشت في « زيمبابوى » العظيمة فى القرن السادس أو السابع الميلادى ، وربما قبلهما كانت شعوبا على دراية بصناعة الحديد . ويؤكد لنا هذا ما أثبتته كلارك فى اكتشافاته انقرابية من شلالات كالامبو ، من أن هذه النهضة الجنوبية قد دخلت عصر الحديد فى الألف سنة الأولى الميلادية .

ولما كنا نعلم الكثير عن تحركات الشعوب الافريقية داخل افريقيا الوسطى الجنوبية فى العصور الوسطى وما تلاها . فلا يمكننا على وجه مرض أن نقرن بين ما أثبتته الاكتشافات الأثرية وبين تحركات هذه الشعوب . وان كانت معظم المصادر تكاد تتفق الآن على أن زيمبابوى قد خضعت لمراحل ثلاثة من الإقامة . المرحلة الأولى مرحلة ما قبل «مونوموتابا» والمرحلة الثانية هى مرحلة « مونوموتابا » نفسها أو ما يعرف بمرحلة «شونا الأولى» والمرحلة الثالثة هى مرحلة قامبو شونا الثانية » .

وأولى هذه المراحل كانت فى نهاية القرن الثانى عشر - ولكن يمكن ارجاعها الى القرن الرابع الميلادى . وهذه هى الفترة التى أطلق عليها سمرز عصر الحديد الروديسى . وهى تنطبق على السكان الذين أدخلوا صناعة الحديد وفنونه ، والذين قلموا من الشمال واستقروا فى هذه المناطق ليأتى أبناؤهم من بعدهم ويبنوا مبانيهم بالحجارة . وكانت هذه الشعوب أول شعوب تتحدث البانتو وتقيم فى روديسيا . وهناك ما يدعو للاعتقاد بأنهم كانوا يمثلون اندفاعا من شعوب الجنوب امتزج مع شعوب الشمال واستقر السكان هناك وكونوا أغلب شعوب قلب القارة الافريقية . وهنا نتساءل عن موعد ظهورهم وعن الأجناس التى ينتمون اليها . وإلى أى حد كانوا يشبهون صانعى الحديد الأول عند شلالات كالامبو ، وهل هم أبعدوا هؤلاء الذين وضعوا أساس البناء الأول فى « زيمبابوى » أو أنهم هم الذين وضعوا بأنفسهم هذا الأساس ؟ هذه كلها أسئلة تصعب الإجابة عنها .

ولكن موجة الهجرات تتابعت من الشمال والشمال الغربى عبر القرون . ومع القرن الثانى عشر، اندفعت شعوب من أجناس «الشونا» يحكمها حاكم يسمونه « مونوموتابا » . اندفعت من الزامبيزى الى الجنوب لتحتل زيمبابوى وتستقر فيها . ويتفق علماء الآثار على تسميتهم بشعوب عصر الحديد الروديسى . وقد استمرت أقامتهم فى زيمبابوى حتى سنة ١٤٥٠ حيث يعتقد أنهم هجروا هذا المكان . وقد ظل الاعتقاد سائدا طيلة قرن بعد هذا التاريخ أن « الشونا » قد أعادوا احتلال مبنى الاكروبوليس بزيمبابوى مرة أخرى . وفى سنة ١٦٠٠ تقريبا جاءت شعوب أخرى من أجناس الشونا هم الروزوى والفندا الى هذه المنطقة وبناو قلاعاً ضخمة من الحجارة فى ناليتالى ، ودهلوهلو ، وريجينواكامى وأماكن أخرى ؛ ويبدو أنهم قد احتلوا قابونجوبوى . الى الجنوب من الليمبوبو .

وقد ازدادت قوة الروزوى « وفى سنة ١٧٠٠ قام حاكمهم شانجامير المسمى بالمامبو بغزو دولة مونوموتابا ودمرها . ولكن الغزاة قاموا فى سنة ١٧٢٥ بتجديد مباني زيمبابوى العظيمة . وربما زادوا من رقيتها وخلقوا لنا هناك كثيرا مما نجده فيها اليوم . وبعد قرن من الزمان قدم الغزاة من

قبائل « نجوى من الجنوب وحطمو هذه الدولة وأتموا عملية هدم حضارتها مثلما فعل البرابرة الرحل مع الأزانين فى شرق أفريقية .

٦ - مقابر مابونجوبوى :

تعتبر آثار مابونجوبوى على درجة كبيرة من الاهمية لسببين الاول أنها كانت غنية ببقايا الهياكل البشرية ، وبالذهب وبعض المخلفات الاخرى . والسبب الآخر انها لم تتعرض لما تعرض له كثير من المناطق الاثرية الاخرى فى هذه المنطقة من عبث ما كان يعرف بشركات الآثار القديمة ، وتقع آثار مابونجوبوى هذه الى الجنوب من نهر ليمبوبو الذى يقسم جنوبى افريقيا الحالية عن روديسيا الجنوبية ، وحتى يومنا هذا تكاد تكون هذه المنطقة خلوا من السكان . وعندما ظهرت آثار « مابونجوبوى » منذ أكثر من ربع قرن من الزمان ، لم تكن تجذب انتباه الكثيرين فقد كانت الفيلة والاسود تحوم هناك . وكانت مراكز الصيد تقام قريبا من هذه المنطقة طيلة أسابيع قليلة مرة كل عام .

وفى سنة ١٩٣٢ صمم أحد فلاحي البوير ويدعى « فان جران » على أن يتسلق ما كان يسمى حينذاك بالتل المقدس الذى تقع عليه أطلال مابونجوبوى والذى كان يعتبره الاهالى الافريقيون هناك من المحرمات . واخيرا استطاع « فان جران » وابنه وثلاثة آخرون معه أن يقنعوا أحد الاهالى الافريقيين بأن يكون دليلا لهم فى هذه المنطقة . ومن ثم بدعوا يجولون فوق التل من خلال ممر تحيط به الاشواك حتى قمة التل حيث عثر فان جران على قطعة من الذهب . وباستمرار التنقيب اكتشفوا قطعا أخرى ذهبية ، الى جدار هياكل بشرية كانت مدفونة فى هذا المكان . وقد اتفق الجميع على أن يظل هذا الامر طي الكتمان الا أن فان جران الصغير أسرع يخبر أستاذه « فوشيه » بجامعة بريتوريا الذى أسرع بدوره يخبر السلطان بهذا الامر بعد أن ظهر أن الذهب المكتشف على درجة كبيرة من النقاء الى جانب أن هذه القطع كانت تعتبر أول مصنوعات من الذهب توجد فى جنوبى افريقيا . وقد أسرع اليهم مشورفانريت لدى بالتوجه الى هذه المنطقة ومن ثم بدأت اكتشافات « مابونجوبوى » العظيمة وقد ساهمت جامعة بريتوريا فى هذا الميدان وكانت اكتشافاتها على جانب كبير الاهمية بالنسبة للافريقيين هناك ولعل هذا هو السبب نفسه الذى دفع حكومة اتحاد جنوبى افريقيا فيما بعد الى عدم الاهتمام الجدى بهذا الموضوع . وقد تابع « فان توندر » البحث على نفقته الخاصة سنة ١٩٣٤ واستطاع أن يعثر على كميات ضخمة من المصنوعات المعدنية والذهبية الاخرى وعلى بقايا ثلاثة وعشرين هيكلا بشريا بعضها مدفون بعناية دفنا ملكيا وعثر على قطع ذهبية كثيرة .

وفجأة ألقت حكومة جنوبى افريقيا سستارا من الصممت حول الموضوع كله برغم ما قرره فوشيه من ضرورة متابعة البحث فى هذه المنطقة حتى تتضح خيوط التاريخ للشعوب التى عاشت فى هذه المنطقة . وكان واضحا ان حكومة جنوبى افريقيا قد لجأت الى هذا الصمت حتى لا يتاح

للافريقيين القول بأن لهم تاريخا يمكن أن يفخروا به أمام المستعمرين البيض .

وفي سنة ١٩٤٠ قام « جاردنر » بعمليات تنقيب جديدة على حسابها الخاص نشر نتائجها بعد خمسة عشر عاما في مجلة « آثار جنوبي أفريقيا » والواقع أن ما يونجوبوى تعتبر أكبر نموذج للحضارة الافريقية الزنجية اخالصة والتي أثبتت الاكتشافات التي تمت حتى الآن أن لها صلة وثيقة باكتشافات زيمبابوى ، واكتشافات « هلو - دهلو » . وتدل جميعها على أن رجال ما يونجوبوى قد كانت لهم في عصر الحديد حضارة لا تختلف عن أية حضارة مشابهة في أى مكان آخر من العالم . حضارة مستقرة حتمتها موانع طبيعية من التلال من الشرق والغرب ونهر ليمبوبو الى الشمال وسلسلة جبال زوت بانسبرج الى الجنوب . حضارة ازدهرت وبلغت أوج العظمة لتظل آثارها باقية نحو الاجيال القادمة من الافريقيين .

٧ - الترشفال القديم :

من اذن هذه الشعوب التي عاشت وانتشرت وقاست نهايتها المؤلمة في ما يونجوبوى والمناطق القريبة منها ؟

كان فوشيه وزملاؤه على وشك أن يجيبوا عن هذا السؤال عندما بدأت عقبات معينة تعترض بحثهم .

كان من المعتقد أن بناء هذه الحضارة الضخمة في الهضبة الجنوبية كانوا من البانتو التي تبدو أصولهم الطبيعية واضحة في سلالاتهم التي تعيش هناك حتى اليوم في قبائل الشونا والسوزو . وقد أيدت هذا الرأي الشواهد الكثيرة من الفخار والادوات المعدنية التي عثر عليها في تلال ما يونجوبوى ، هكذا كان الاعتقاد حتى زعزعه نتائج ابحاث علماء الاجناس الذين أجبروا ابحاثهم على الهياكل البشرية التي عثر عليها في تلال « ما يونجوبوى » حيث كشفت هذه الابحاث عن ندرة الملامح الزنجية في هذه الهياكل التي يقول « جالوواى انها أقرب الى ملامح « الهوتنتوت أو اجناس قريبة من الهوتنتوت من ملامح هياكل « البوسكون » القديمة التي كانت تعيش في كهوف جنوبي افريقيا . هناك بالطبع ملامح زنجية في هذه الهياكل ولكنها أقل من ملامح البانتو الذين يعيشون اليوم في روديسيا وجنوبي افريقيا .

كيف نوفق اذن بين هاتين النقطتين ؟ ان هذا الوضع يشبه تماما ما يمكن أن ينتج اذا نحن قارنا بين هياكل « وليام الفاتح » وفرنسكانه النورماندين ، بهياكل بشرية لشعوب الساكسون .

وانواقع ان الخلاف لا يزال قائما في هذه النقطة بالذات . فاذا نحن أخذنا بالرأى الذى يقول ان الهياكل البشرية التي عثر عليها في « ما يونجوبوى » تعود الى أصل من البانتو فسوف نرى أن طريقة دفن الاجساد وهى منحنية شيء لم يثبت أن البانتو قد مارسوه . ومن ناحية أخرى اذا نحن أخذنا بالرأى الذى يعود بهذه الهياكل الى أصل من الهوتنتوت فانه

ينبغي علينا بالتالى أن نفتتح بأن الهوتنتوت قد عرفوا حضارة تعتمد على تصنيع المعادن وعلى مستوى فنى دقيق فى أزمان سحيقة وهو ما لم يقل به أحد . الخلاف إذن لا يزال قائما ، وإن كان الشيء المؤكد والذي لا يرقى اليه أدنى شك هو أن حضارة مابونجوبوى هذه حضارة افريقية أصيلة فى كل ما يتصل بها وأن الشيء الوحيد الذى لا يمكن إثباته على وجه اليقين هو مدى الصلة التى كانت بين ما بونجوبوى وزيمبابوى .

على أنه من الممكن استنادا الى ما قرره فوشيه وجاردنر أن نقول أن الهوتنتوت قد عاشوا فى هذه المناطق ولا شك فى عصر زراعى ثم أغار عليهم شعب قادم من الشمال تزواج بنسائهم واستقر على تلال ما بونجوبوى كى يؤسس حضارتها هذه . ولا شك ان هذا الشعب كان الى جانب درايته بأساليب الزراعة على دراية بتصنيع الحديد . ومن ثم لا ينبغي أن نهتم بالسؤال عن مدى قرب هذه السلالات المتحضرة التى أسست حضارة مابونجوبوى من البانتو أو الهوتنتوت فهى أفريقيا على أية حال . ولكننا نتساءل الآن عن هذا الشعب القادم من الشمال . من أين أتى ؟ لا شك أنه من شعوب البانتو التى أسست من قبل حضارة الزيمبابوى . وأن سلالاته لا تزال تعيش حتى الآن بين ما يعرف بالباشوتوفى باشوتولاند . وبالمشونا فى روديسيا الجنوبية وبالباجندا فى الترنسفال .

ويبدو أن الباجندا كانوا آخر هذه السلالات التى سيطرت على حضارة المابونجوبوى وإن الهوتنتوت قد جاءوا بعدهم قبل أن تدفعهم هجمات قبائل متابيلي شمالا سنة ١٨٢٥ .

وهنا يرى جاردنر أن انغزة « من الهوتنتوت قد أخذوا كثيرا من حضارة الزيمبابوى ممثلة فى شعوب الفندا . أخذوا منهم مثلا أساليب صناعتهم للحلج الذهبية . وإذا نحن أخذنا بهذا رأى . أصبح تفسير التناقض الذى لم نجد له حلا من قبل شيئا ميسورا . فقد كانت الهياكل البشرية من الهوتنتوت حقا ولكن الذهب الذى كان يحليها من البانتو . ومهما كان الرأى فى هذا الصدد فإن المسلم به الآن ان حضارة مابونجوبوى واستخدام المعادن تطورت عبر عدة قرون وكانت امتدادا نحو الجنوب لما حدث فى وسط أفريقيا الجنوبية خلال عصر الحديد وربما حدد المستقبل حقيقة تلك الشعوب التى أقامت فى هذه المناطق تلك الحضارة المبكرة التى اصطنح علماء الآثار على أن يطلقوا عليها حضارة العصر الحديدى الرودىسى . ويعتقد البعض استنادا الى الاساطير القبلية أن حركات الهجرة نحو الجنوب والتى قام بها البانتو لم تعبر نهر الليمبوبو حتى العصر الوسيط ، وربما بدأت هذه الهجرات بعد القرن الثانى عشر . ويعتقد أن السود تحركوا جنوبا فيما يعرف الآن بالترنسفال فى منتصف القرن الخامس عشر أو نحو ذلك التاريخ . ثم قلم الشبونا بعدهم بقليل ثم سيطر الروزوى والفندا على حضارة زيمبابوى وارسلوا بدورهم مهاجرين نحو الجنوب . والتفسير الذى يزعم أن حضارة عصر الحديد لم تصل الى نهر ليمبوبو حتى القرن الثانى عشر ليس صحيحا ، ذلك أنه كان من اليسير على هذه الحضارة التى رسخت على بعد مئات قليلة من الاميال الى الشمال ان تعبر السهول المنبسطة قبل

هذا التاريخ بستة أو سبعة قرون . ثم ان هناك الدليل القائم على وجود مستعمرات ساحلية ، كما أن مابونجوبوى لا تبعد عن مصب نهر ليمبوبو بأكثر من أربعمئة ميل . ونحن نعلم مما كتبه الادريسي سنة ١١٥٤ أن المستعمرات الساحلية فى أيامه لم تكن تبعد كثيرا عن مصب نهر ليمبوبو وأنها لم تقتصر على صناعة الحديد ، بل كانت تقوم بتصدير كميات كبيرة . ولا شك أن هذه المستعمرات كانت لها صلات بدخل القارة . وقد أوضحت أعمال الحفر فى « مابونجوبوى » والاماكن القريبة منها طبيعة عصر وحضارة الحديد فى أفريقيا الجنوبية .

ونحن نرى أن شعوب البانتو الحالية ، ليست فى الواقع الا نتاجا لهجرات وتزاوج وتكاثر عبر عدة قرون موعلة فى القدم ، وهذا ما أكدته الحفريات بالفعل والنتيجة المنطقية التى تصل إليها هي أن سكان جنوبى أفريقيا الحاليين هم من سلالات تطورت من اختلاط أجناس (١) « تحت الزنجية » بأجناس أخرى زنجية قادمة من الشمال عن طريق الهجرة التى حدثت من سنة ١٥٠٠ على الأقل فى شكل موجات قوية متعددة على طول ضفاف نهر « ليمبوبو » هكذا نرى أن شعوب جنوبى افريقية التى وجدها الأوربيون فى القرن التاسع عشر كانت قد استقرت هناك وأصبحت تكون شعوب هذه المنطقة بعد مرحلة طويلة من التطور ، استقرت منذ أكثر من ثلثمائة أو أربعمئة سنة . الا أن شعوبا افريقية أخرى زنجية وغير زنجية قد سبقت تلك الشعوب الأولى أو قامت بدور كبير فى نمو المنطقة وتطورها . وحدثت التطورات الهامة فى الزراعة وصناعة الحديد فى الجنوب خلال الف سنة التى تعيشها الآن وقد أحدثها البانتو القادمون من الشمال ، أو ربما أحدثتها شعوب أخرى الا أن تفوق البانتو ظهر على مر السنين .

٨ - نيكركى وانيانجا :

يرغم أن البرتغاليين لم يصلوا قط الى زيمبابوى أو ما بونجوبوى الا أنه ليس ثمة شك فى انهم كانوا على صلة بالدويلات التى تقبض الى الداخل على حدود موزمبيق وروديسيا الحالية ، وكانت أهمية هذه الدويلات التجارية فى أنها كانت تمتد البرتغاليين بشروات الداخل التى كانت تنتقل الى مينائهم سوفاالا على شاطئ موزمبيق . وقد كان من نتيجة ازدهار هذه التجارة أن أصاب البرتغاليون قدرا كبيرا من الثراء تكشفه تقارير بعض الرسميين منهم . ففى سنة ١٦٠٧ أى بعد قرن من بدء احتلال البرتغاليين لهذه المنطقة كتب « لوى ده منجرىد ومنكاو » سكرتير الملك فيليب الثانى ملك البرتغال فى تقرير مرفوع الى الملك يقول أن منصب القيادة فى سوفاالا يدر على صاحبه أرباحا أكثر مما تدره قيادة أى ثغر آخر من الثغور البرتغالية فيما وراء البحار ، بما فيها ثغر « آرموزا » نفسه على الخليج الفارسى فان ثلاثة أعوام فى

(١) تحت الزنجية هي الترجمة التى اخترناها لكلمة Penegraid والتى يعنى بها الكاتب أجناسا افريقية ليست زنجية وان كانت سوداء البشرة كالbantو مثلا .

قيادة سوفالا تدر لصاحبها ما تساوى قيمته ٢٠٠.٠٠٠ كروزادوس فى حين تدر قيادة آرموزا ١٨٠.٠٠٠ ألفا وتدر قيادة مالاكا ١٣٠.٠٠٠. وإذا عرفنا ان قيمة الكروزادوس كما يقول دامت سنة ١٩١٨ تبلغ ما يعادل تسعة شلنات وتسعة بنسات فان ذلك يعنى أن سوفالا كانت ياسعار اليوم .. فى ثلاث سنوات فقط وخالصة الضرائب ، تدر لقائدها ٣٠٠.٠٠٠ جنيه .

وإذا كان الامر كذلك فلا بد أن الأرباح الكلية من التجارة التى كان يحصل عليها البرتغاليون كانت على قدر مدهل من الضخامة . وهنا يتضح لنا مدى الحقيقة فيما كتبه الكتاب العرب عن ثروات افريقية الجنوبية الشرقية فى العصور الوسطى . هذه الارض التى كانت تخرج منها هذه الثروات الخيالية كانت عقدا من الشمال الى الجنوب فى منطقة سينا على الزمبيزى الأدنى جنوبا الى ما يعرف الآن بسوازيلاند والنااتال . ومن انطبعي أن نتوقع ان سكان هذه المناطق الحافلة بالثروات لابد ان يكونوا قد خلفوا وراءهم آثارا تدل عليهم . وعلى أنهم على دراية فائقة باستخدام الاحجار وموارد المياه ورى الارض على طريقة المدرجات على جوانب التلال . وهذه الآثار هى آثار « ثيكاك » « وانيانجا » وهى حضارة آزانية جديدة .

يبدو أصحابها على دراية كبيرة بتربية الماشية وزراعة الحبوب والتنقيب عن المعادن وصهرها والتجارة على نطاق واسع مع الدول الشرقية فى المحيط الهندى . ويبدو من آثارهم أنهم كانوا يفعلون مثلما يفعل اليوم الانيماروكا « فى كينيا وتنجانيقا » . فى طريقة حياتهم فقد كانوا يعيشون فى اكواخ أوبيوت حجرية يتونها على أساس من الحجارة المستوية . وانهم كانوا الى جانب ذلك يخزنون حبوبهم ولوازم معيشتهم فى حفر يبلغ عمقها أربع اقدام ظنها الاوربيون لأول وهلة عندما اكتشفوها حفر العبيد . هذا بالإضافة الى أنهم عرفوا بناء الخزانات بالحجارة الغفل دون أن يستخدموا مادة بناء لاصقة .

ونحن لا نستطيع على وجه اليقين أن نقرر مدى العلاقة التى كانت تربط بين هذه المناطق جميعها وبين مناطق الحضارات فى جنوبى ووسط أفريقيا . وان كنا نستطيع أن نقرر أنها كانت جميعا على علاقات تجارية مع الساحل وأن ابنائها كانوا على دراية كبيرة بأساليب الزراعة وصناعة المعادن مما هيا لهم حضارة مستقرة .

الفصل العاشر

الحقيقة وراء الاطلال

١ - بعد أوجه المقارنة :

لقد اصطلحت علوم الانثروبولوجيا الحديثة على أن تتخذ مواقف معينة تجاه التقدم الانساني .. فما الحضارة مثلا ؟ .. اليس من المبالغة أننا نستخدم هذه الكلمة كثيرا ؟ .. وما الذى تعنيه كلمات مثل متوحش .. بربرى .. متحضر .. بالنسبة للتراث التاريخي ؟ .. وهل النحت الافريقى مثلا يعتبر « بدائيا » ؟ .. ان « وليام فاج » يقول بعكس ذلك .. انه يراه من أعظم ما خلفته الانسانية من تراث فنى .. وقد تعلمت مدارس الفنون الحديثة كثيرا من هذه المعروضات الأفريقية التى نشاهدها فى متاحفنا .. كما تعلمت من فنون المصريين والأغريق ..

وهل الديانات الافريقية بدائية ؟ الامر على النقيض من هذا .. فنحن نجد أن هناك شعوبا افريقية كثيرة لديها طرائق فى التفكير الدينى متصل بها وبالعالم الخارجى ، تعتبر طرائق عميقة ونامية .. وقد كتب الأب « تمبرل » عندما واجهته هذه الحقيقة .. يقول : « أن الصورة الزائفة للرجل البدائى المتوحش الذى يشبه الإنسان .. ولكنه محروم من نمو ذكائه الكامل ... هذه الصورة تختفى الآن بسرعة .. لقد كنا نظن ونحن نعلم الاطفال الأفريقيين .. ان تعليمنا لهم يبدو منطقيا وطبيعيا .. وفجأة يتضح لنا أننا نواجه انسانية ناضجة وراءها تراث من حكمة ومعرفة نمت على أساس فلسفاتها انكونية » ..

واذا كانت الفروق بين كلمة بدائى .. ولا بدائى .. ليست الا فروقا تكنولوجية بحتة .. فكيف اذن يمكن أن نقول أن عصر الحديد فى العصور الوسطى بجنوب افريقية .. كان عصرا بدائيا .. غير متحضر ؟ ..

لقد كان البرتغاليون ينظرون نظرة اذراء الى هذه الدول التى كانوا يتاجرون معها .. فان « باربوزا » مثلا فى سنة ١٥١٧ يصف - فى عدم ارتياح ورضا - مملكة « مونوموتابا » بأنها مملكة عظيمة الاتساع .. ويعجب كيف استطاع « ملك بدائى » ان يسيطر على هذه المناطق الشاسعة .. وهذه النظرة التى كان ينظر بها البرتغاليون الى شعوب هذه المناطق نظرة عجيبة حقا .. ليس لها ما يسوغها اذا نحن عرفنا أن ملك « مونوموتابا » كان يملك جيشا بالغ القوة « واذا كان البرتغاليون قد تغلبوا على هذا الجيش .. فليس ذلك راجعا الى شجاعتهم أو مدنييتهم

« كاكونجو » الى الزواج قبل ذلك من أميرات الكونغو .. وكانت هذه الحالة مشابهة تماما لما كان يحدث في أوروبا من زيجات ملكية - وعلى العكس من ملوك أوروبا لم تكن لهؤلاء الحكام داخل القارة وحتى ساحل المحيط الهندي ، سوى قليل من السلطات المطلقة .. بل كانوا أقرب الى الزعماء الدائمين منهم الى الملوك المستبدين ... ولم يظهر الحكام الاوتوقراطيون الا بعد ذلك بكثير .. فلم يكن ملك الكونغو مثلا يستطيع أن يصدر تشريعات خارج اطار القانون والعادات القبلية فاذا خالف ذلك فانه يتعرض لما تعرض له « واكيليمي » الذى ذكره المسعودى .. فقد اختاره شعبه ليحكم بينه بالعدل ولكنه جار .. فقتلوه . وكان النظام الملكى الافريقى فى العصور الوسطى اذن أقرب الى البناء القبلى الذى تطور وأثبت فعاليته خلال هجرات الشعوب نحو الجنوب واختلاطها بالشعوب الاخرى .. ولهذا السبب نرى أن مقارنة الظروف فى افريقية .. بما كان يحدث فى أوروبا فى ذلك الحين ، لا بد أن يقود الى الخطأ .. فقد كان عصر الحديد فى افريقية الجنوبية يختلف اختلافا كبيرا عن مجتمع العصر الوسيط فى أوروبا . ولم تكن حضارة افريقية تسندها حضارة اليونان أو الرومان مثلما كان الحال فى أوروبا .. وعلى الرغم من ذلك كانت الحضارات الافريقية تتطور دون ما خطأ .. فى اتجاه مطرد الى الامام ..

وفى « مابونجوبوى » وفى خلال عصر « البانتو » كان الزعماء وأقاربهم يقومون فى حصون أو قصور مبنية بالحجارة .. ويستمتعون بالثروة ويزينون مساكنهم بالآنية الصينية والخاروف والمسابيح الهندية .. وكانوا يختلفون عن عامة الشعب حتى فى مراسم الدفن .. وكل هذا يذكرنا بالآوضاع التى كانت سائدة فى أوروبا فى عصر الطبقات .

وإذا قيل ان عامة الشعب الافريقى كانوا يقومون بأعمال لا يقوم بها ساداتهم كما كانت الحال بالنسبة للشوننا . والفاندا « مع عبيد » السوزو » وللباهيما مع « البايرو » فى غربى أوغندا ، فالامر لا يختلف كثيرا من الناحية الطبعية عما كان يفعله النورمانديون بالساكسون عند غزوهم للجزيرة البريطانية . وقد كانت كلها على أية حال نظما طبقية فى عصور للاقطاع، مرت بها كل المجتمعات سواء أكانت أفريقية أم أوروبية .. وكان سكان القصور والقلاع يعيشون بالطبع عيشة تفوق عيشة عامة الشعب . الا أن حضاراتهم كانت واحدة مشتركة مع أنهم كانوا يسلكون طريقتين فى الحياة العملية .. أولاها تعد أصحابها للحكم والراحة والاخرى للعمل الشاق .

٢ - مرحلة من العظمة :

النتيجة التى نصل اليها الآن أن المجتمع فى جنوب أفريقية قبل قدوم الاوروبين كان يتطور بعيدا عن الاستبداد الشرقى الذى كان طابع العصر البرونزى القديم وبعيدا عن استبداد عصر الاقطاع فى أوروبا ، وأن الافريقين هناك أقاموا لانفسهم نظما اجتماعية مقبولة ومتطورة استوعبت الاهالى والوافدين من المهاجرين . وأن الافريقين هناك ساروا خطوات واسعة نحو التقدم الانسانى الذى يقود الى الحضارة .

ولقد لاحظنا طريقة تقسيم العمل نفسها بين « الآزانيين » في سر
أفريقية في العصور الوسطى كما لاحظنا المدن المزدهرة على الساحل .
وتبدو مظاهر هذا الازدهار والتقدم في جنوب أفريقية من طريقة صنع
المعادن هناك . وعلى الرغم من أن كثيرا من الآثار التي تقع شمال نهر
« ليمبوبو » قد فقدت عندما انقض الاوروبيون على هذه المناطق وأعملوا فيها
انسلب والنهب ، إلا أن الاكتشافات في « مابونجوبوى » خففت من أثر
هذا السلب والنهب . فقد تم العثور على المصنوعات الذهبية في مابونجوبوى
على صلولجان مزين برقائيق الذهب التي يبلغ سمكها جزءا من خمسة
آلاف جزء من البوصة . ويمكن أن نتصور مدى المهارة والوقت والمقدرة التي
يتطلبها صنع هذه الرقائيق المتناهية الدقة بالآلات كانت ولا شك في أنها
آلات بدائية . لقد كان الصناع في هذه المنطقة عديدين وكانت لهم جمعياتهم
« وهيئاتهم » التي كانت ترعى مصالحهم بالتالي .

ولكن ذلك لم يحدث بالنسبة لحضارات أفريقية في الجنوب مثلا لان
هذه الحضارات كانت حضارات قبلية تسود فيها الروح الجماعة بعكس
اللاتوقراطيات التي كانت تنشأ في أحواض الأنهار والتي تيسر تحكم
الملوك في أفراد الشعب . وتيسر لهم جمع الثروات الطائلة وبناء المعابد
الضخمة بالصورة التي أسلفناها . ويمكننا أن نقول أن شعوب شمال أوروبا
في تلك الأيام نفسها لم تكن أحسن حالا من الأفريقيين فقد كتب « امارك
بلوخ » يقول : « انه ليس ثمة شك في أن غالبية الملوك الصغار ومن هم أعلى
مرتبة منهم بقليل من شمال الألب والبرانس كانوا من الاميين بكل معنى
الكلمة » . وإذا كان الأوروبيون قد عرفوا اللغة اللاتينية في هذه الأيام
فقد عرف سكان مدن سواحل أفريقية الشرقية اللغة السواحيلية
واستخدموها في القراءة والكتابة .

وهناك نقطة جديدة بالمناقشة في صدد « الحضارة » بالمعنى الذي
يصر الأوروبيون على استخدامه . فالأوروبيون ينعون على هذه الحضارات
الأفريقية في عصر الحديد بجنوب أفريقية . أنها فشلت في اختراع
« العجلة » أو حتى في تبني هذا الاكتشاف والاخذ به بعد أن أصبح معروفا
لمعظم الحضارات وإذا بدا هذا الاعتراض وجيها لأول وهلة . فإن البحث
والمناقشة يكشفان كذلك أن « العجلة » لم تستخدم في شمال أوروبا نفسها
في العصور الوسطى حتى القرن الثاني أو الثالث عشر الميلادي . وإذا
نحن أخذنا بمنطق هذا الاعتراض لجاز لنا أن نقول ان اسكتلندا نفسها
في القرن السادس عشر كانت بلدا بربريا لا حضارة له لان التاريخ يقول
ان أول عربية عرفت « اسكتلندا » هي التي أحضرها « الكسندر لورد
سيتون » عندما جاءت « الملكة ماري » من « فرنسا » .

هنا تبرز الحاجة الى البعد عن التورط عند الحكم في مثل هذه
الأمور والواقع أن التجارة والاستفادة منها . قد طورا حضارات هذه
المناطق الجنوبية من افريقية تطورا كبيرا . يقول . ده باروس
« سنة ١٥٥٢ » ان سوفالا تتميز بشهرة واسعة نتيجة الكميات الضخمة
من الذهب التي يحصل عليها المغاربة من زنوج هذه الارض عن طريق
التجارة . وهذه التجارة كما نعرف من كتابات العرب كانت موجودة

في هذه المناطق لمدة تزيد على خمسمائة سنة ٠٠ ولا شك أن نمو المجتمعات التجارية في هذه الأماكن الداخلية كان نموا بطيئا وجزئيا ٠٠ وكانت التجارة بينها وبين الساحل تتم بين وسطاء كثيرين ٠٠ وكان الجانب الأكبر من هذه التجارة يتم عن طريق المياضة كما كان يحدث في أوروبا في العصور الوسطى إلا أن أبناء هذه المناطق بدءوا يستخدمون العملات التي كانت تضرب في «كيلوا» في نهاية القرن الثالث عشر ٠٠ وكانت الصادرات الرئيسية لداخل القارة ٠ هي الذهب والعاج والنحاس والحديد ٠٠ والعبيد منذ القرن السابع عشر ٠٠ كان سكان الداخل يستوردون الملابس القطنية وأدوات الزينة والعقود الحمراء من الهند كما كانوا يستوردون الآنية الصينية في حدود ضيقة وذلك لارتفاع ثمنها ٠٠ فقد كانت الضرائب في «كيلوا» على استيراد هذه البضائع في القرن الثالث عشر تبلغ ٦٠٪ من قيمتها ٠٠ وعلى الرغم من هذا فقد استثمروا في استيراد الآنية الصينية طيلة عشرة قرون كما اتضح من اكتشافات «روديسيا الشمالية» «والترنسفال» ٠٠ وترجع أقدم القطع الروديسية التي اكتشفها «كينيون» سنة ١٩٢٩ في أطلال «زيمبابوي» الشرقية داخل كوخ كبير كان يحوى آنية فخارية كثيرة وبعض قطع الخزف ٠٠ وترجع الآنية الصينية إلى عهد أسرة «سونج» كما قرر ذلك خبراء المتحف البريطاني ٠ وقد تم العثور أيضا على قطعة من الصيني الكاملة أمكن اصلاحها في «دهلو - دهلو» وهي أشبه بالكأس من طراز «منج» ويرجع تاريخها إلى نهاية القرن السابع عشر ٠ وكل هذه الآثار تؤيد الشواهد الموجودة على النشاط ٠٠ والتي تدل على ازدهار «كيلوا» والمدن الساحلية الأخرى بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر ٠٠ وقد كان الاستقرار في الداخل ٠٠ وتزايد قوة الممالك والمجتمعات المركزية ٠ يرتبط أشد الارتباط بالتوسع التجاري مع الساحل ٠ فقد شيد أهلي «مونوموتابا» أعلى أسوارهم وأبراجهم عندما وصلت تجارة «كيلوا» إلى قمته ٠٠ ولهذا السبب ذكرت «جيرترود تومبسون» أن من الأسباب الرئيسية لازدهار حضارة زيمبابوي «الاتجار مع الهند ٠٠ ولم يكن هذا النمو الحضارى في الداخل أمرا هينا ٠٠ فقد دفع جماعات من «البوشمن» الذين كانوا يعيشون في وسط هذه الهضبة الجنوبية بعيدا عن التيار الحضارى ولم ينالوا منه شيئا ٠٠ على حين تعلم «الهوتنتو» في أقصى الجنوب صناعة الحديد من الهولنديين «الذين استقروا في رأس الرجاء الصالح سنة ١٦٥٢ ٠٠ على حين كانت صناعته مزدهرة في الشمال بين شعوب البانتو «قبل ذلك بزمن بعيد جدا ٠٠ وهذا يوضح لنا طريقة نمو هذه المجتمعات ويلقى مزيدا من الضوء على طبيعتها ونظامها وحركتها الذاتية ٠٠ والتي قد تبدو لأول وهلة كما لو كانت مجتمعات بدائية راكدة لم تعرف الصناعة ٠٠ إلا أن الاكتشافات تدعو إلى مزيد من الاهتمام والجدل ٠ هذه المجتمعات قد بلغت شأوا كبيرا في ميدان الصناعة برغم ما تيسر لها من أدوات بدائية هزيلة ٠ وكانت غنيه بطرائفها وأساليبها في الحياة ، مولعة بممارسة التجربة واتباع الطرق الحديثة برغم ما كان يبدو في هذه المجتمعات من أنها مجتمعات تعيش على الماضي والتقاليد القديمة ٠

صحيح أنه لا يمكننا أن نقارن كاتدرائيات أوروبا أو شعر دانتي

بما حققته حضارة عصر الحديد في افريقية من اُبنية وثقافة .. الا أننا لا يمكننا من ناحية أخرى أن نفعل التقدم الذي حققته هذه الحضارة أو نفعل سيطرتها على بعض مظاهر الطبيعة وتقدمها في الناحية الفنية .. وكلها أمور تبدو كما لو كان أصحابها قد حققوها من العدم :

٣ - البرعم .. والزهرة :

هل بمقدورنا أن نعتقد أن المظاهر المختلفة لعصر الحديد في افريقية ليست الا فروعا من أصل واحد ؟ هل كانت القلاع اجنوبيه مثلا .. والتي تشرف على احاديث نهر « بوجوى » ويحجبها ضباب اجبال ، تمت بصله ما الى سهول «نجانيف» ومرمعات «كينيا» أو حتى «اتيوبيا» نفسها في بدايه الامر .. ربما كشفت الابحاث الأثرية في المستقبل .. عن صفة «ماين» انجوراكا ، وايتيانجا « أو حتى بينها وبين ما بوجوى، وقد ثبت أن بناء « زيمبابوى » العصيه قد نقلوا أقدارهم في نصم احم الى اوتنداه البعيدة عنهم وان كل هذه الحضارات تدخل في نطاق حضارة آزانية خلقت آثارها في أجزاء كثيرة من افريقية .. ان أنصار المدرسه الفينيقيه يزعمون ان معظم حضارات عصر الحديد وفي افريقية .. لم تكن الا النصر الوحيد الذي أحرزته فينيقيا في هذه الحضارات .. وأن الحضارات الافريقية اى اخرى ترجع الى اهل «سبا» والعرب الاوائل الذين أقاموا مدنا على الساحل .. وأن دور الافريقيين بعد ذلك لم يعد أن يكون تقليدا لهم وقد أثبتت الاكتشافات الاثرية خطئ هذا الرأي .. فقد أوضحت لهم الاكتشافات أساسا وأصولا وطيدة لهذه الحضارات الافريقية . وكشفت مدى تعقيدها وأكدت ان أصولها ترجع للشمال وانها قد نمت كثيرا من آرائها وفنونها من شمال افريقية ومنتصف حوض النيل والمناطق المجاورة كمنطقة البحيرات العظمى والقرن الافريقى الى باقى مناطق افريقية .. وقد جلب المهاجرون من الشمال كثيرا من الافكار والاداء التى تطورت عبر قرون عديدة . حتى لم يبق منها الا صدى خافت لأثر بعيد موغل فى القدم حتى ساد الصدى الافريقى .. وذلك أن مؤسسى « زيمبابوى » العظيمة وأشباهاها اخترعوا وطوروا وسائل وحلولا صناعية فى أراض جديدة .. وابتكر زعمائهم وصناعهم وسائل لم تكن تقليدا منهم لغيرهم . وكانوا اخلال حضاراتهم يقومون بتطوير ما ابتكروه ويسيروا بخطا حيثة نحو الاستقرار الحضارى مع التغير والتنويع المتصلين .. وكان ما خلفوه لنا شاهدا على زعمائهم وصناعهم وسائل لم تكن تقليدا منهم لغيرهم . وكانوا خلال ذلك كله ، وقد كتب بعض أنصار المدرسه الفينيقيه مثل «بنت» عندما تم العثور على تماثيل لطيور كبيرة فى « زيمبابوى » يقول : ان هذه الطيور كانت تحل الحائط الخارجى لمعبد نصف دائرى .. ثم استطرد فقال : ان هذه الطيور على نمط صقور وعقبان ربما يكون لها معنى جنسى جلبها سكان هذه المنطقة من الخارج .. وكان يحاول فى هذا أن يؤيد وجهة نظره الفائلة بأن قدماء المصريين كانوا يعتبرون الصقر رمزا للألوهة على حين نعرف نحن أن قبائل « حمير » فى جنوب الجزيرة العربية كانت تنظر الى العقاب باعتباره حاميا لها .. وعندما يقول «بنت» ذلك فانه يتصور فراغا انسانيا كبيرا بين روديسيا الجنوبية وجنوب الجزيرة

وأكثر تنظيماً بالنسبة للساحل الأفريقي وخاصة فيما يتعلق بالفترة ما بين سنة ٥٠٠ وسنة ١٥٠٠ ميلادية ، وبالنسبة أيضاً لما يتعلق بالصلوات التي كانت قائمة بين هذا الساحل وبين المناطق الداخلية .

والامر الثاني الذي نحتاج اليه في هذا الصدد هو عملية تنقيب واسعة النطاق في أراضي الداخل التي لاتزال حتى الآن خلوا من مثل هذه الابحاث الأثرية .

والامر الثالث هو مزيد من البحث في مناطق الكشف الرئيسية التي عرفت حتى الآن .

هذا بالنسبة للنواحي المتعلقة بالابحاث الأثرية . . وهناك بالإضافة الى هذه النواحي . . حاجة ملحة الى ترجمة الكتب العربية القديمة وترجمة الكتب العربية الحديثة أيضاً التي تبحث في هذه الامور والتي لا يمكن الحصول عليها وليست معروفة كما ينبغي . ثم ان هناك أيضاً الوثائق الأوروبية التي يمكن أن تمدنا بالكثير عن هذا الموضوع . فلم يتم حتى الآن تنظيم لهذه الوثائق في المكتبات المختلفة بأحاء أوروبا ، تلك الوثائق التي تبحث أو تتعلق بالتاريخ الأفريقي القديم .

ولحسن الحظ بدأ التاريخ الأفريقي والابحاث الأثرية التي ترتبط بتاريخ الأفريقيين قبل قدوم الأوروبيين ، تستحوذ على اهتمام المعاهد العلمية والجامعات والدراسات الأكاديمية . وقد أضافت الأعوام القليلة الماضية (منذ عشر سنين) كثيراً من المعلومات في هذا الصدد وخاصة بعد طبع مؤلفات ماثيو وجرانفيل . الذي كشف النقاب عن حدود ألف سنة متصلة من تاريخ استقرار الأفريقيين في المناطق الساحلية . ووصف حضاراتهم غير أننا نطلب مزيداً من أعمال الحفر المنتظمة في هذه الأماكن ونطلب أيضاً استمرار التنقيب جنوباً حتى موزمبيق حتى رأس «دجادو» (الذي عرفه التجار الأغريقيون والرومان والعرب قبل الاسلام والحيريون قبلهم) .

كذلك نأمل أن تكشف الابحاث الأثرية عن الصلات بين هذه المدن الساحلية والمحطات التجارية على الساحل وفي المناطق الداخلية والتي كانت تمدهم بالبضائع منذ زمن بعيد . . ذلك أن توثق التجارة في بعض المناطق كما كان الامر بالنسبة لروديسيا في العصور الوسطى واستمرار هذا التوثيق يوضح لنا كثيراً من الامور مثل الحضارات التي لم يكتمل نموها كحضارة بيجو في أوغنده والحضارات الكبيرة الأخرى النامية كحضارة «زيمبابوي» . . فقد كان ازدياد الطلب على تجارة الداخل عاملاً من عوامل حضارة عصر الحديد في الجنوب .

وهذا الامر بالذات يتطلب أبحاثاً أثرية منظمة في ساحل موزمبيق وإلى الداخل منه حتى تنجانيقا . . والعثور على العملات والأواني الصينية أو العقود وهي المواد التي تتحمل عوامل الزمن يساعد في هذه الابحاث . وهنا أيضاً نياسالاند التي لم تجر فيها أبحاث أثرية من قبل على حين تستطيع مثل هذه الابحاث لو أجريت . ان تمدنا بالكثير من هذا

وقد كان نظام البناء بالحجارة دون استخدام «المونة» شائعا في كل هذه الجهات من أثيوبيا الى الترانسفال ٠٠ وكانت أشكالها تتشابه في كثير من الاحيان كما نرى في مساكن الآزانيين في مرتفعات «كينيا» في العصور الوسطى ٠٠ وكان الشكل الدائري هو أبسط أشكال هذه المساكن ٠٠ وكانت الفكرة نفسها موجودة في مباني الجنوب قبل ذلك بزمان طويل عند سكان مرتفعات جنوب شرق روديسيا مم تغيرات طفيفة

وهنا تتساءل ٠٠ هل طور أهالي الجنوب هندستهم في البناء بتأثير من الآزانيين الذين كانوا يمارسون البناء من قبل ؟

يقول «يورك مامون» : ان كل المباني نشأت في الفترة نفسها تقريبا ونبتت عن تصميم واحد ٠٠ وليس من الصعوبة بمكان ان نتصور أن الشعب الذي شيّد «ايتيانجا» شعب «قادم من الشمال» أو أن المهاجرين من الشمال قد وفدوا اليها ، ذلك أن الروابط الهندسية بين مدينة «انجوراك» في الشمال وبين المدن المعاصرة في الجنوب كانت أكثر من مجرد أمر عارض ٠ غير أن تبادل الآراء لم يحدث بين الشمال والجنوب فقط ٠ فقد أثبتت الاكتشافات الاثرية في غرب أوغنده خلال الاعوام القليلة الماضية وجود ارتباط بين وسائل دفاعية ضخمة من التحصينات الترابية في أماكن مختلفة ٠ (وهي أكبر هذه الوسائل الدفاعية القديمة في أفريقية وكلها تردد أصداء «زيمبابوى» ٠

وخلاصة القول في هذا الصدد - وبصرف النظر عن مختلف التفاصيل - ماقرره «وايلاند» سنة ١٩٣٤ بصيرة نافذة من أن حضارة «زيمبابوى» أقدم من حضارات أخرى كحضارة بيجو إلا أنهما ينبعان من أصل واحد ٠٠ فقد كانت بيجو برعما لم يتم نموه ٠ وكانت زيمبابوى زهرة مبكرة النمو ٠٠ وكلاهما من حضارات البانتو ٠٠ ويرجعان بأصولهما الى جذر واحد ٠

وينطبق هذا الكلام نفسه على كثير من حضارات عصر الحديد في أفريقية سواء أكانت هذه الحضارات في مرتفعات «كينيا» أم في أوغنده ، أم في أخاديد «ايتيانجا» أم في سهول روديسيا ، هذه الحضارات التي تمت عبر قرون من الهجرات والاستقرار والاحتكاك بشعوب أقل حضارة إلا أنها جميعا أفريقية خالصة وتؤيد النظرية القائلة بأن وحدة شاملة ضمت هذه الحضارات برغم اختلاف أطرافها - وأن هذه الحضارات تابعت نموها على الرغم من عزلتها ٠

٤ - وما المطلوب :

ان الامر يحتاج بالنسبة للمناطق الشرقية والجنوبية من أفريقية الى مزيد من التفاصيل التي نعتقد أن الوصول اليها أصبح أمرا ممكنا ، فما نعرفه اليوم في هذا الصدد أكبر بكثير ولا شك مما كنا نعرفه من عشرين عاما مضت ولكنه لا يزال على أية حال يحتاج الى المزيد ٠

من الناحية الاركولوجية (الحفريات) مثلا ٠٠ نحتاج الى معرفة أعمق

وأكثر تنظيماً بالنسبة للساحل الأفريقي وخاصة فيما يتعلق بالفترة ما بين سنة ٥٠٠ ومئة ١٥٠٠ ميلادية ، وبالنسبة أيضاً لما يتعلق بالوصلات التي كانت قائمة بين هذا الساحل وبين المناطق الداخلية .

والامر الثاني الذي نحتاج اليه في هذا الصدد هو عملية تنقيب واسعة النطاق في أراضي الداخل التي دُتزال حتى الآن خلوا من مثل هذه الابحاث الأثرية .

والامر الثالث هو مزيد من البحث في مناطق الكشف الرئيسية التي عرفت حتى الآن .

هذا بالنسبة للنواحي المتعلقة بالابحاث الأثرية . وهناك بالإضافة الى هذه النواحي . . حاجة ملحة الى ترجمة الكتب العربية القديمة وترجمة الكتب العربية الحديثة أيضاً التي تبحث في هذه الامور والتي لا يمكن الحصول عليها وليست معروفة كما ينبغي . ثم ان هناك أيضاً الوثائق الأوروبية التي يمكن أن تمدنا بالكثير عن هذا الموضوع . فلم يتم حتى الآن تنظيم لهذه الوثائق في المكتبات المختلفة بأحاء أوروبا ، تلك الوثائق التي تبحث أو تتعلق بالتاريخ الأفريقي القديم .

ولحسن الحظ بدأ التاريخ الأفريقي والابحاث الأثرية التي ترتبط بتاريخ الأفريقيين قبل قدوم الأوروبيين ، تستحوذ على اهتمام المصاحدين العلمية والمجاذبات والدراسات الأكاديمية . وقد أضافت الاعوام القليلة الماضية (منذ عشر سنين) كثيراً من المعلومات في هذا الصدد وخاصة بعد طبع مؤلفات ماثيو وجرانفيل . الذي كشف النقاب عن حدود ألف سنة متصلة من تاريخ استقرار الأفريقيين في المناطق الساحلية . . ووصف حضاراتهم غير أننا نطلب مزيداً من أعمال الحفر المنتظمة في هذه الاماكن ونطلب أيضاً استمرار التنقيب جنوباً حتى موزمبيق حتى رأس «دلدادو» (الذي عرفه التجار الاغريق والرومان والعرب قبل الاسلام والحمايون قبلهم) .

كذلك نأمل أن تكشف الابحاث الأثرية عن الوصلات بين هذه المدن الساحلية والمحطات التجارية على الساحل وفي المناطق الداخلية والتي كانت تمدهم بالبضائع منذ زمن بعيد . . ذلك أن توثق التجارة في بعض المناطق كما كان الامر بالنسبة لروديسيا في العصور الوسطى واستمرار هذا التوثيق يوضح لنا كثيراً من الامور مثل الحضارات التي لم يكتمل نموها كحضارة بيجو في أوغنده والحضارات الكبيرة الاخرى النامية كحضارة «زيمبابوي» . . فقد كان ازدياد الطلب على تجارة الداخل عاملاً من عوامل حضارة عصر الحديد في الجنوب .

وهذا الامر بالذات يتطلب أبحاثاً أثرية منظمة في ساحل موزمبيق والى الداخل منه حتى تنجانيقا . . والعثور على العملات والأواني الصينية أو العقود وهي المواد التي تتحمل عوامل الزمن يساعد في هذه الابحاث .

وهنا أيضاً نياسالاند التي لم تجر فيها أبحاث أثرية من قبل على حين تستطيع مثل هذه الابحاث لو أجريت . ان تمدنا بالكثير من هذا

الصدد وتستطيع أن تفسر لنا مثلا نمو ونجاح الحضارات في الهضبة الوسطى... وهي المنطقة التي نرجو أن توضح لنا مستقبلا الاصول البعيدة لهذه الحضارات... ويؤيد هذا الاعتقاد ما عثر عليه « كلارك » في « كالامبو » سنة ١٩٥٣... وكان البرتغاليون منذ خمسمائة عام تقريبا قد وجدوا ممالك مزدهرة تصنع الحديد بالقرب من مصب نهر الكونغو وقد وجدت طلائعهم العسكرية المتقدمة الى الداخل بعد ذلك قلاعا على قمم التلال قبل التي وجدوها في « بونجو آندويجو » ولم تستكمل الابحاث الاثرية في أنجولا أيضا والتي تبدو أهميتها في امكان بيان الصلة والتأثير بين ما قبل لعصور الوسطى وما بعدها في غرب أفريقيا... والى الشمال في غرب أوغنده ومرتفعات كينيا والمواقع التي تجاورها قد نجد ارتباطا بين المباني الحجرية الاثنية والكونغو الشرقي وجنوب السودان وجنوب أثيوبيا... الى جانب التأثير من « زيمبابوى »

ولقد بدأت حكومات كثيرة في المستعمرات كما هو الحال في روديسيا وتنجانيقا... في اجراء أبحاث أثرية ولكنها ليست كافية ولا يخصص لها المسئولون مبالغ كافية من المال...

الى هذا الحد من البحث... نتساءل لماذا وجد اوروبيون منذ مائة عام... أفريقية... قارة بدائية متوحشة؟ لقد كان بناؤها الحضارى بناء متينا... فلماذا انهار هذا البناء واختفى؟ ولماذا توقف نمو هذا البناء الحضارى... هذه الاسئلة نجيب عنها في الفصل القادم من هذا البحث...

الفصل الحادى عشر

إنحلال وسقوط

فى سنة ١٨٥٦ وعلى طول حوض انزيمبىزى كان ليفنجستون ينتقل من مكان الى مكان ومن رحلة الى أخرى وتتناهى اليه الأصدااء
الاخيرة الحزينة لقصة «مونوموتابا» .. فان هذا الملك العظيم الغامض الذى
كان يخضع بدوره للملك آخر غامض .. أسبغ عليه البرتغاليون من قبل
مظاهر التكريم فقدموا له بعض المعونات .. وخصصوا له حرسا يطلقون
النار عند أية جنازة ..

لم تبق لدى خلفائه .. من شواهد عظمتة سوى مائة زوجة .. وعندما
كان يموت الملك كان يبدأ نزاع طويل وقتال مرير حتى يستقر الملك مرة
أخرى ..

ولم يكن انحلال امبراطورية « مونوموتابا » وسقوطها هي والدويلات
الاخري الاقطاعية فى جنوبى أفريقية .. لم يكن هذا يعنى بالضرورة اختفاء
الحضارة التى قامت عليها هذه الامبراطورية والدويلات .. ولكن هكذا
كان الامر بالنسبة لأفريقية .. سقطت الامبراطوريات .. واندثرت
الحضارات معا ..

لقد كانت أراضى هذه المناطق من أفريقية تبدو بالنسبة للرواد
الاوروبيين فى القرن التاسع عشر ، مجاهل ميئوسا منها .. وكان الامر
يبدو أكثر سوءا بالنسبة لجمهوره الشعوب الاوروبية التى نشأت على
احتقار هؤلاء العبيد ولكن الحقائق ليست على هذا القدر من البساطة فقد
استمر كثير من حضارات عصر الحديد فى الجنوب ينمو ويتزعرع ويمتد
لفترة طويلة من الزمن بعد أول اتصال لها بالبرتغاليين .. فالإطلال
العظيمة فى دهاو - دهلوكامى وينكركى واينيانجا .. ترجع كلها الى
القرنين السابع عشر والثامن عشر فى حين استمر الحيط الملكى لعائلة
«امبوروزى» التى كانت تسود فى بداية القرن السابع عشر قائما
حتى بداية القرن التاسع عشر .. ثم ان تقدير الاوروبيين لما شاهدوه كان
يختلف باختلاف شخصية المشاهد نفسه .. فقد تأثر «فاسكودى جاما»
ومعاصروه مثلا أشد التأثر بالمدن الساحلية التى وجدوها وحطموها ..
وفى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .. تغيرت نظرة الاوروبيين تغييرا
كبيرا .. لان أوروبا تطورت خلال قرنين بفضل العلم والصناعة ، على حين
لم تتمكن أفريقية من مسايرتها بل انهارت هنا وهناك وساعد على هذا
الانهيار تجارة العبيد على نطاق لم يسبق له مثيل وكانت بعض العبارات

والشعارات التي تصف انحطاط الأفريقيين الطبيعي ، وقد أصبحت عادية ومألوفة تدمج حضاراتهم وكانت حضارات الأفريقيين على الساحل قد تحطمت وأصبحت تؤيد هذا الشعور بالاحتقار . . . إلا أن الأمر في وسط أفريقية كان يختلف بعض الشيء بالنسبة لتقدير الأوروبيين وتأثرهم بشعار الوحشية والبربرية التي تسود أفريقية .

وتروى لنا سنة ١٨٣١ قصة لقاء بين بعثة برتغالية يرأسها الماجور «مونتيرو» وبلاط حاكم «لوندا» جنوب الكونغو نلمس من خلالها طبيعة التطور البطيء الذي أدى إلى ازدهار حضارة عصر الحديد في قلب القارة .

ويروى «مونتيرو» قصته فيقول إنه استدعى للمثول في حضرة الملك «مواتاكازيمبي» فدخل قصرًا فسيحًا ملاء جمهور كبير وكان جمهور حامية «لوندا» الذين يتألفون من أربعة أو خمسة آلاف رجل من المسلحين بالسهم والحراب والاقواس يقفون في أماكنهم دون نظام عسكري على حين كان ضباطهم يتمنطقون بسيوف داخل أعمادها ، وهذا هو ماشاهده باربوزا نفسه قبل ذلك بثلاثمائة عام .

وقد وجد البرتغاليون «مولتا» يجلس على عرشه بعظمة يرتدى أفخم الثياب كما لم يشهد البرتغاليون حاكمًا أفريقيًا من قبل . . . وكان يرتدى قبعة عالية من الريش لونها أحمر تحيط بها الاحجار الكريمة متعددة الألوان كما كان يضع شارات الملك وأساور من الخرز الأزرق في ساعدية ويقف من حوله ضباط البلاط والجنود والمهرجون وزوجاته ومحظياته .

هكذا كان المظهر الخارجي لحاكم مجهول في أرض مجهولة في القرن التاسع عشر . . . وبالطبع ينطبق وصف «مواتاكازيمبي» الذي يحمل في طياته معنى النظام والحكومة المركزية المستقرة على حكام آخرين . . . ولقد روى الشعب «البوشونجو» على ضفاف نهر «سونكورو» جنوب الكونغو (البليجيكي) لاميل تورداي في الاعوام الأولى من القرن العشرين عن عصر البوشونجو الذهبي حينما أبطل الملك «شامبابولونجونجو» استخدام نوع خاص من المدى اللولبية . . . وأدخل فنونا وصناعات سلمية كصناعة الغزل كما يدلنا الحفر الدقيق الرائع في الخشب والذي انتقل إلينا من صناعات مملكة شعب البوشونجو على حضارة عريقة متقدمة ، وقد أشاد ليفنجستون مرارًا بالسلام والأمان اللذين يرفرفان على هذه المناطق الشاسعة من داخل القارة . . . وربما لم يكن الأهالي شديدي الحماس لاعتناق المسيحية ولكنهم كانوا يتقبلون التعليم والمعرفة . . . بل إن رؤساءهم وزعماءهم كانوا يفخرون بوجود أوروبي زائر أو مقيم في مناطقهم . . . ولم يكن أحد يخشى على حياته أو ممتلكاته . . . وبالطبع كان ليفنجستون يشير إلى الأهالي ولم يتحدث عن أخطار الحيوانات أو الأمراض . . . أما ما أشاعه الأوروبيون عن طهي البشر في الأواني الضخمة . . . فلم يكن سوى دعاية أوروبية . . . فحتى سنة ١٨٨٤ لم يثبت سوى قتل ستة من البشر من بين ثلاثمائة مبشر توغلوا في شرقي وسط أفريقية قبل سنة ١٨٨٤ . . . ومن ذلك نرى أن القوضى المزعومة لم يكن لها أساس وأن الأخطار المزعومة شابها كثير من المبالغة . . . وعلى العكس من ذلك فإن الحياة في وسط أفريقية كانت أكثر أمانًا وسلامًا للمسافر بالنسبة للحروب وحوادث القتل) عما كانت

عليه الحال في أوروبا.. ويفسر لنا استقبال الأفريقيين الودي للأوروبيين وترحيبهم بهم .. طبيعة هؤلاء الأفريقيين المسألة .

ولقد كان هذا الأمن بعكس احترام الحياة واستتباب النظام والقانون على حين أنه كان من العسير على الأوروبيين أن يفسروا سبب وجودهم وسبب مجيئهم وماذا يريدون من الأفريقيين . وكما ذكرت « مارجوري بيرهام » فإن سلوك الأوروبيين كان شيئا لا يمكن تفسيره وكان في أغلب الأحيان مثيرا للتهديد .. وبالرغم من ذلك كان يسمح لهم (وهم يعملون لحسابهم الخاص) بالتنقل من قبيلة لأخرى ، ومن زعيم إلى آخر تحت قيود بسيطة .. وفي قليل من الأحيان كانوا يضطهدون لعدم تقديمهم هدايا للزعماء .. ولو أن هذا الاضطهاد لم يكن يصل إلى حد العنف ، وفي كثير من الأحيان كان العون يقدم لهم .

كل هذا يعكس لنا فهما ومعرفة في مجتمع غير صناعي لقيم الحياة وأنماط من التفكير والسلوك توضح لنا الحد الذي وصلت إليه هذه الشعوب داخل القارة من حيث الملاءمة بين معيشتها وبين البيئة المحيطة بها .. ولم تكن انقنونات الأفريقية التي كثيرا ما أثارت الإعجاب والدهشة في نفوس أولئك الذين عاشوا في العصر « الفيكيتوري » .. لم تكن هذه لتصدر إلا عن مجتمعات بلغت شأوا كبيرا في التفكير الحضاري .. وكانت لها فلسفتها وأراؤها عن الإنسان والعالم .. واستطاعت أن توفق بين مجهود الفرد ومجهود المجتمع .. ولم تكن هذه القننات ولا هذه الديانات مجرد فرق مبعثرة كما كان يصفها الأوروبيون الذين ينتقلون داخل أفريقيا السوداء .. ولم تكن أبدا تكشف عن نمو ضحل لأيام قليلة مضت ولا عن استسلام يأس للعنف والسخرية كما كانوا يتصورون .. وقد اتضحت هذه الحقيقة أكثر وأكثر في منتصف القرن العشرين .. وازدادنا يقينا أن الأفريقيين قد تطوروا تحت تأثير حركتهم الدائبة في التقدم وانهم وجدوا طريقهم إلى الامام بأنفسهم .. وانهم واجهوا مشكلاتهم بأنفسهم أيضا .. كل هذا تم بمعزل عن التأثيرات التي كانت تؤثر دائما في مختلف الحضارات الأخرى .. وظل الأفريقيون يتقدمون في طريقهم إلى الامام ببطء ولكن في اصرار: فيما عدا تلك المناطق التي كانت تنتشر فيها تجارة العبيد بكل مساوئها ومخازيها التي أوقفت هذا التقدم .

أما في المناطق التي لم تصل إليها هذه اللعنة فقد كان التقدم في بعض نواحي الحياة مذهلا بالغا حد الروعة .. فقد نأت مثلا قبائل لوزي في جنوب غربي روديسيا عن هذه اللعنة .. ومن ثم وجدنا مجموعة قوانين هذه الشعوب على درجة كبيرة من الرقي بحيث نستطيع أن نضع أساليب القضاء والمحاكم عندها على المستوى نفسه من التناسق والاحكام الملذين نجدهم في نظم القضاء الأوروبية أو الأمريكية .. يقول « جلكنان » انه لمن الواضح أن الاجراءات القضائية لدى شعب لوزي تتفق مع الاجراءات القضائية في المجتمعات الغربية أكثر مما تختلف عنها فان قضاتهم يستمدون أحكامهم من الاصول والمبادئ نفسها التي يستمد منها قضاة الغرب أحكامهم بمعنى مراعاة ظروف البيئة والمملكة الحيوانية والانسان وعاداته وقوانينه وراثته والمساواة بين الأفراد مع مراعاة أحكام الطبيعة والبشر والسياسة العامة والاخلاق .

كان كان المجتمع الافريقي اذن ٠٠ قويا وقادرا على البقاء ٠٠ ومع ذلك فقد انهارت دول جنوب افريقية فى عصر الحديد وآلت الى زوال ٠

٢ - انهياره على الأبواب :

عندما بدأ الاوروبيون يزحفون نحو «ماتابيليلاند» ونحو «ماشونالاند» منذ حوالى سبعين عاما ٠٠ لم يجدوا من الشواهد ما يدل على أدنى صلة بين مارأوه من أطلال قديمة ٠٠ وبين أولئك الذين كانوا يعيشون فى جوارها أو قريبا منها ٠٠ فقد انقطعت الصلة بينهم وبين ماضيهم بعد أن انهارت حضاراتهم ومن الممكن أن نضع أسبابا رئيسية ثلاثة لهذا الانهيار الذى أصاب تلك الحضارات ٠

السبب الاول يكمن فى طبيعة غير مستقرة لنظام اقطاعى أو قريب من الاقطاعى كان يسود دولا وممالك تشتد المنافسة فيما بينها ٠٠ ومن ثم تندلع الحروب ٠ تماما كما كان يحدث فى أوروبا فى القرون الوسطى والسبب الثانى يعود فى المحل الاول الى مآنتج عن التدخل البرتغالى بعد بداية القرن السادس عشر فى شئون التجارة الخارجية ٠

والسبب الثالث يرجع الى تلك الغزوات البربرية التى جاءت من الجنوب أما بالنسبة للسبب الاول ٠٠ فانه من الثابت أن البرتغاليين قدموا لأول مرة الى افريقية فى الوقت الذى كانت تندلع فيه الحروب وتسلود الحزازات بين قوة افريقية وأخرى ٠٠ فقد ذكر البرتغاليون أن الحروب كانت تسود ممالك الكونفو فى الاعوام الاخيرة من القرن الخامس عشر ٠٠ وذكرت تقاريرهم أيضا أن الحروب والمنازعات سادت الممالك الجنوبية فيما وراء «سوفالا» ٠٠ فقد كتب «الكانكوبا» فى سنة ١٥٠٦ أن الحروب امتدت فى هذه المناطق الداخلية طيلة ثلاثة عشر عاما أو تزيد بين الشونا بطائفتيها الاولى والثانية مما كان سببا فى انهيار «زيمبابوى» العظيمة وتاريخ هذه المنطقة حافل بالحروب بين القبائل والممالك المختلفة التى أدت فى النهاية الى انهيار حضاراتها جميعا ٠

أما بالنسبة للسبب الثانى فان انهيار التجارة الذى سببه تدخل البرتغاليين قد أدى بالتالى الى انقطاع مورد الرخاء الطبيعى لهذه المناطق وقد أشرنا من قبل الى النتيجة التى أدى اليها هذا كله ٠٠ ثم يجيء بعد ذلك السبب الثالث فى غزوات قبائل أقصى الجنوب التى لم يكن لها نصيب من الحضارة ٠٠ لهذه المناطق ذات الحضارات المستقرة مما أسرع بانهارها ٠

٣ - الباب يفتح على مصراعيه :

ظلت أحلام الثروة تراود أذهان المكتشفين البرتغاليين الأوائل فاندفعوا فى جنون مع أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الى مدن افريقية الساحلية التى ترامت شهرتها بعيدا حتى وصلت الى أوروبا فى تلك الايام ٠ واستطاعوا أن يسيطروا عليها بالحديد وال نار فى محاولة للاستثمار وجمعهم بالتجارة الافريقية الهندية ، تدفعهم أحلامهم

الاستعمارية في نهب أكبر قدر ممكن من هذه الثروات وبأسرع وقت ممكن وبنهم سبلوا في تحقيق هذا الغرض .. حتى لقد بدأت شذوى مبعوثيهم الرسميين الى هذه المناطق ترد ان ملك البرتغال في سنة ١٥١٧ تنعى ضالته ما استطاعوا نهبه من هذه الثروات .. لقد واجهتهم في بادئ الامر مقاومة سلبية .. فقد بدأ التجار في «سوفالا» مثلا ينسجون ملابسهم القطنية بانفسهم حيث لم يعد باستطاعتهم استيرادها من الهند الا عن طريق البرتغاليين واحتادهم ، هذا من ناحية .. أما من ناحية الذهب فيما وراء الساحل الى الداخل من جنوبي القارة الافريقية فقد انقطع وروده بسبب الحروب المتصلة بين القبائل هناك .. وكان الامر بالنسبة للبرتغاليين يتطلب توسعا الى الداخل .. وهو أمر لم يكن باستطاعتهم تحقيقه في تلك الايام نظرا للصعوبة الكامنة وراءه .. ذلك كله على الرغم من أن كثيرا من البرتغاليين قد استطاعوا بعد أربعين عاما من رحلات « فاسلودي جاما » أن يستقروا في حوض الزامبيزي الأدنى .. ويتاجروا هناك .. وقد اضطر البرتغاليون بعد ذلك بوقت طويل الى أن يبعثوا بحملات عسكرية الى الداخل فيما وراء «سوفالا» لكي يضعوا أيديهم على مناجم الذهب في هذه المناطق .. ولكن الدهشة أصابتهم عند ما رأوا أن الذهب أصبح فجأة نادر الوجود، وعادت معظم هذه البعثات العسكرية الى قواعدها بخفي حنين وكان الدرس قاسيا .. ولكن المحاولات على الرغم من ذلك استمرت للنفاذ الى داخل جنوبي القارة لاحتكار مصادر الذهب حتى توصل البرتغاليون في بعض الاوقات الى اغراء بعض رؤساء القبائل بكشف أماكن مناجم الذهب في أسلوب مخادع كما حدث بالنسبة لامبراطورية مونوموتابا التي تمكن البرتغاليون من تثبيت مراكزهم فيها بالاتفاق مع أحد ملوكها بعد سلسلة طويلة من الحروب .

ومن ثم أيضا تمكن البرتغاليون من تثبيت مراكزهم باطراد متزايد الى الداخل واستطاعوا أن يفعلوا ما يشاءون تحميمهم بنادقهم وأسلحتهم النارية كما استطاعوا أن يحققوا سيطرتهم التامة على هذه المناطق بتأليب الأفريقيين بعضهم على بعض حتى استطاعوا في النهاية أن يحطموا كل تلك الدول التي كانت قائمة هناك .. ولكنهم أيضا حطموا أنفسهم لان أعمالهم التي كانت تتسم بالحديعة والنفاق والحيت والقسوة جعلت كثيرا من رؤساء القبائل المجاورة يمتنعون عن الاتفاق معهم حتى تحت ضغط بنادقهم خشية أن يحدث لهم ما حدث لكثير من الملوك والزعماء قبلهم الذين أغراهم البرتغاليون بمساعدتهم في التنقيب عن الذهب .. وبعد أن تم لهم ما أرادوا اغتصبوا أرضهم باسم معاهدات لم تكن تساوي قيمة الورق الذي كتبت عليه .. وأجبروهم هم أنفسهم على السخرة في هذه المناجم بل أن الأفريقيين كثيرا ما كانوا يهربون من أراضيهم تاركين البرتغاليين عاجزين عن أن يستخرجوا ما يريدون من الذهب لنقص الأيدي العاملة كما حدث بالنسبة لشعوب «الكافير» .. التي هربت من وجهه البرتغاليين وتنقلت من مكان الى آخر .

وهكذا .. فان البرتغاليين وجدوا شعوب جنوب شرقي أفريقيا تعيش في ثقة ورخاء عندما بدأت أنظارهم تتطلع الى أفريقية .. ثم هيئوا بهم جيتهم ووحشيتهم نهاية هذا الرخاء ..

لقد كان قدوم البرتغاليين الى هذه المناطق من أفريقية قرصنة
أرستقراطية كان كل همها الحصول على الثروة والرخاء الذي كان يبسط
جناحيه على هذه المناطق ولم يكن لقدومهم وغزواتهم من نتيجة سوى أنهم
حطموا في أيام قليلة مانسجته عشرات القرون من الصلات التجارية
القائمة وعندما حطموا مدن الساحل الأفريقي المزدهرة في بربرية ووحشية
وعندما ضربوا بمدافعهم - بأوامر ملكية - مراكز التجارة الساحلية هناك
كان ذلك نذيراً بأنهم فقدوا أول مصدر من مصادر الثروة التي اندفعوا
من أجلها الى أفريقية .. وعندئذ فكروا في أن يعوضوا هذه الخسارة
بذهب الداخل .. ولكنهم فشلوا في تحقيق ذلك فاندفعوا كالمجانين
يبحثون عن بديل للذهب في الفضة مثلاً .. وعندما فشلوا أيضاً في هذه
الناحية بدعوا يبحثون عن أى نوع آخر من المعادن .. ولم تكن النتيجة
أحسن مما سبقها من نتائج .. ومن ثم لم يجد البرتغاليون وسيلة
لتحقيق الثروة التي جاءوا من أجلها الى أفريقية .. الا أن يبدعوا - بقذارة
متناهية - في هذه القارة .. بعهد لتجارة العبيد .. وصممهم بالحزى
والعار ..

الفصل الثاني عشر

إذا كان منتصف هذا القرن يبدو باعثاً على التشاؤم وهو يتأرجح بين فناء ذرى وسلام مشكوك في أمره فإنه يأتي معه بأشياء طيبة خيرة من بينها شمس التحرير الشامل التي بدأت تغمر بأشعتها القارة الأفريقية وربط شعوب إفريقيا إلى العائلة الإنسانية وإلى مبدأ المساواة بين البشر. فقد شهدت السنوات الوسيطة من هذا القرن بدء انتشار الإفريقيين من وهدة التفرقة البغيضة بين الاجناس ، تلك التي عاقت تقدم البشرية في كثير من الأزمان وبطريقة ما هنا وهناك في أنحاء متفرقة من العالم ولكنها لم تكن في صورة أسوأ منها مما هي في أفريقية .

فهذه الاعوام تعيد المسؤولية إلى الإفريقيين أنفسهم ليملكوا حياتهم وليتأهب من ٧٠ إلى ٨٠ مليوناً من الإفريقيين السود في المستعمرات الأوروبية ليتولوا زمام أمورهم بأنفسهم ويسيروا في حياتهم قدما . . كما أن الإفريقيين البيض أو عرب الشمال قد ساروا في الاتجاه نفسه . . ولا توجد الآن منطقة في أفريقية مهما كانت صغيرة أو نائية أو محجوبة عن العالم الخارجي ، لا يتقابل أهلها ليناقشوا أمور مستقبلهم .

ولست أزعج أنني أوفيت الموضوع حقه أو ألمت بكل جوانب التاريخ الإفريقي أو ذكرت كل ما يمكن أن يقال في هذا الصدد ، فقد اكتفيت بالتلميح أحيانا ولكن يكفي كتاب أكبر من هذا بكثير ، أو كاتب أقدر مني على أن يوفى كل الموضوع حقه ، سيتقرر التاريخ الإفريقي . . وسوف تتلاحق صورته بانتظام واطراد وسيكتب دون جهل أو أحقاد خلال هذه السنين التي ستقرر مصير مشكلات كبيرة حيث تكون الأمور قد اتخذت شكلا واضحا في هذه القارة .

فحضارة أفريقية التي ارتبطت بالعالم الخارجي وحركتها عوامل إفريقية خلقة خالصة من بدايتها ، كما تشهد بذلك ممالك السودان القديمة ومدن الساحل العظيمة وأسوار زيمبابوي وأبراجها ، تقرر انتصار شعوب غير معروفة قامت في داخل أفريقية وحقت ذلك الانتصار . وقد كانت هذه الشعوب وحياتها حركة متصلة دائبة تضرب في أعماق التاريخ وتواصل زحفها دائما ، وكانت تمثل نموا لا يختلف في أساسه وجوهره عن نمو أى مجتمع في أى مكان آخر من العالم . ولقد أسهمت هذه الشعوب بأفكارها وفنونها وآرائها في الحكم والفن ومختلف نواحي الحياة في تراث الإنسانية المشترك .

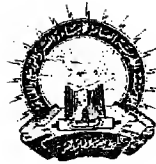
إن تاريخ هذه الشعوب يبدأ اليوم من جديد وعلى الرغم من أنها تظهر اليوم في عالم متفرق ، فإن تقاليدها لم تكن تؤمن قط بحدود الوطن.

الضيق ، وكانت عبقرياتها عبقرية امتزاج وتداخل ، كانت فى الماضى تتم عن طريق الغزو ولكنها أثمرت عن طريق الهجرات ، وكانت تنمو فى وحدات كبيرة ، وكانت امبراطورية «كانم» مع «مالى» و «سنفهى» أكبر هذه التجمعات فى السودان القديم وكان لها بناؤها الفيدرالى ومجلسها الحاكم الذى يتكون من اثنى عشر أميراً حكموا مساحات واسعة عبر أجيال كثيرة -

وقد مزق الاستعمار فى القرن التاسع عشر أوصال هذه النقادة ، وفرق بين شعوبها ، ولا يبقى أمام الأفريقين الآن ألا أن يعيدوا رسم حدود بلادهم ، فهل يكتفى الأفريقيون باستقلال بلادهم متبعين الدول الأوروبية أو يسعون للوحدة •

وأجدر بالأفريقين ألا يكتفوا بحدود استقلالهم داخل بلادهم التى وضع الاستعمار حدودها • وأن يضعوا نصب أعينهم تكوين دول كبيرة بدل أن يزدوا فى اتساع الخلافات التى تفصل عادة بين الدول فى وقت فقدت فيه الدولة الواحدة قوتها وأصبحت فى أغلب الأحيان عقبة فى سبيل نموها •

لقد تحدث العالم طويلاً عن افريقية المتخلفة •• وقد آن الأوان ليتحدث العالم كله الآن عن افريقية العظيمة •• افريقية قارة المستقبل •



الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبدة - روض الفرج

تلفون { ٤٠٧٥٣ / ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤ }

Bibliotheca Alexandrina



0272755

الشمس ١٢ قرش

العدد ٣٩